روز اليوسف

# فصول من التاريخ الإجتماعي للقاهرة العثمانية

اندريه ريمون

ترجمة : زهير الشايب

فصول من

# التاريخ الإجتماعى للقاهرة العثمانية

أندريه ريمون

ترجمة: زهير الشايب

# مقـــــدمة

أندريه ريمون مؤرخ فرنسى معاصر وأستاذ للتـــاريخ بجامعة بوردو ، يشـــغل حاليا منصب مدير المعهـــد الفرنسى للدراســـات العربيـــــة بدمشـــق ، وله مؤلفات عديدة عن بلدان شمال افريقيا ، وقد أولى جل اهتمامه الان لدراسة تاريخ القاهرة فى العصر العثمانى ، وتاريخ القاهرة يعنى عنده، كما قال، تاريخ مصر كلها .

وقد أنتهى الان من وضع مؤلف ضخم عن تجار القاهرة العثمانية وحرفييها فى القرن الثامن عشر .

ولقد اختار المؤلف الطريق الصعب لانجاز دراساته تلك ، فرجع الى المصادر الرئيسية لتاريخ مصر العثمانية فى مؤلفات المقريزى وأحمد شلبى والقبنالى والدمرداش والجبرتى وعلى مبارك ، وعانى الكثير فى التوفيق بين المعلومات المتباينة ، والترجيح بين التواريخ والوقائع المتضاربة ، كما نقب عنه فى مظانه الحقيقية ، فى الوثائق المتناثرة والمكدسة بلا تنظيم ولا ترتيب والمبعثرة كأشلاء أوزيريس بين دار المحفوظات العمومية ودار الوثائق القومية والمحكمة الشرعية بالقاهرة،

وقد بذل فى سبيل ذلك مجهودات مضنية .

وهذا الكتاب ، عبارة عن مجموعة من الدراسات كتبها المؤلف فيما بين ١٩٦٢ و ١٩٦٩ وقد نشر بعضها فى مصر عن طريق المعهد الفرنسى للاثار الشرقية بالمنيرة ، ونشر بعضها خارج مصر .

وبالرغم من أن المؤرخ لم يضع مؤلفه هذاككتاب ، بل قدمه كمجموعة دراسات مستقلة فان الشىء الجدير بالملاحظة هو ذلك الترابط والتكامل بين كافة فصول الكتاب . ويعودذلك بلا شك لوحدة المنهج المتبع فضلا عن دقته وسلامته ، ولسوف يعجب

القــارىء من ذلك النفاذ المدهش فى الرؤية ، ولســوف يجد نفســه فى أحيان كثيرة يقرأ لفنان يملك عقــل ومعلومات مؤرخ قادر عــلى تحويل ذلك الماضى البعيد الى واقع معاصر، يكاد ، لو جرده من بعض تفاصيله ومادياته ، يظن الرجل يتحدث عن حياتنا المعاصرة .

وانني لارجو أن يحقق هذا الكتاب ما أتمناه من فائدة لقارئه ، كما أني على ثقة من أن القارىء المتخصص سوف يجد فيه منهجا جديرا بالتأمل والاقتــداء .

كمــا أرجو أن يســهم كتابنا

هذا مساهمة جادة فى نفض الغبار عن فترة من أهم فترات تاريخنـــــا المعاصر ، فتـــرة تتجاوز ثلاثة قرون وتلقى بثقلها على حاضرنا كله لابد أن نجلوها حتى نفهم الكثير مما يحدث لنا ومما يدور حولنا ، لكنها للاسف لاتلقى منا الا كل الاهمـــال والصـــد ونتركها ايثارا للســـلامة بحجة ندرة المصــــادر ( كذا ! ) لنجـــرى وراء البحـــوث الســـهلة ذات المراجع والمصادر الميسورة ، فلماذا التنقيب فى وثائق يعلوهـــا التـــراب ويمزقها التشتت والاهمـــال وتحول بيننا وبينها الاجراءات المعقدة ؟ لماذا وجع القلب هذا ، وثمة أندريه ريمون

فى فرنسا ، وج . ستانفورد شو فى الولايات المتحدة ، وغيرهما وغيرهما، سوف يحملون عنا هذا العبء ويقدمون لنا ونحن جد مستريحين مثل هذا الكتاب ؟ .

وختاما فانى أتوجه بالشكر لاستاذنا يحيى حقى الذى شجع على نشر هذه الدراسات بأعداد مجلة المجلة عندما كان يرأس تحريرها ، وأشكر كذلك كل من ساهم بتشجيعى على فكرة ضم هذه الدراسات فى كتاب وكل من أتاح فرصة تقديم هذا الكتاب الجاد الى المكتبة العربية .

المترجم

# القاهرة العثمانية بوصفها مدينة

## « شئون البلديات والمرافق »

رغم أن سقوط العهد المملوكى عام ١٥١٧ قد أصاب القاهرة بالتدهور ، وجعل مكانتها تهبط من عاصمة لدولة الى مجرد عاصمة لاقليم الا أن نشاطها التجارى ومكانتها الثقافية ظلا بمثابة تعويض لها — ولو جزئيا — عن اضمحلال مكانتها السياسية ، فقد كانت — بشعبها البالغ عدده من ٢٥٠ الى ٣٠٠ الف نسمة — المدينة الثانية فى الامبراطورية العثمانية فى عصر كانت فيه استانبول — بسكانها السبعمائة أو الثمانمائة ألف — بلا جدال هى المدينة الاولى فى كل من أوروبا والشرق الادنى .

وبلا شك ، فقد كانت حالة القاهرة التى وجدها عليها الفرنسيون اثناء حملة بونابرت — بسبب الركود الاقتصادى والاضطرابات السياسية التى عرفتها المدينة فى القرن الثامن عشر — ابعد ما

تكون عن حال باريس التى فى تلك الفترة **فى قمة** ازدهارها بالرغم من أن المدينتين كانتا — لاتزالان — متكافئتين حتى القرن السابق . وقد كتب Jouvin de ROCHEFORT حوالى عام ١٦٥٠ يقول : « ان اطلاق اسم « الكبرى » على القاهرة لم يأت اعتباطا ، اذا نحن أخذنا فى الاعتبار ، ليس فقط امتداد اسوارها القديمة ، بل أيضا عدد منازلها وسكانها » كما كان يعتبرها « أكثر اتساعا من باريس نفسها اذا راعينا ما يتخللها — وهذا صحيح — من مناطق خلاء واسعة فى امتدادها هذا »

ويختم كلامه مؤكدا أن تعداد سكان القاهرة يفوق تعداد باريس .

وعلى هذا ، فادارة شئون مدينة بمثل هذه الاهمية ، وضمان سير أجهزة البلديات بها على وجه طيب ، كانت تواجه حكام مصر بمشاكل لم يكن باستطاعتهم اهمالها كلية فى ظروف كانت تشغلهم فيها بوضوح مشكلات المحافظة على النظام داخل الاطار نفسه للحكومة الاقليمية .

## أولا — الادارة الحضرية ( ادارات المرافق )

سوف نلمس أن أبرز سمات القاهرة العثمانية على الاطلاق — اذا نظرنا اليها من زاوية ادارتها

التمدينيه ـ هى الغيبة شبه التامة للمؤسسات النوعية سواء منها ما يمثل المنظمات الجماعية للشعب أو تلك التى تنشئها السلطات الحاكمة .

لكن ذلك ليس، على الاطلاق، مما يثير الدهشة، اذ يجب ألا ننسى أن القاهرة فى زمن المماليك كانت ـ كذلك ـ خالية تماما من أية تنظيمات لشئون البلديات ، وحتى نهاية العصور الوسطى لم تكن مسئولية الشئون العامة تدخل فى اختصاص أية ادارة حكومية أو أية تنظيمات أهلية ، وهكذا ، فان أمراء المماليك الحاكمين حين كانوا يتصدون لامور من هذا القبيل ، أنما كانوا يفعلون ذلك لمجرد اهتمامهم الخاص ، أو لشعور منهم بالواجب ، أو رغبة فى اكتساب مسحة من الشرعية فى عيون العلماء والاهالى .

ومن جهة أخرى ، فان عاصمة الامبراطورية نفسها فى العصر العثمانى لم تكن بأحسن حالا من القاهرة ، ويمكن أن نلمس هناك بالمثل غيبة أية تنظيمات حقيقية للشئون البلدية والمرافق العامة، وكذا تضارب الاختصاصات من الحكومة المركزية وادارتها .

ان هذه الظاهرة تمثل شيئا مستمرا فى تاريخ

المدن الاسلامية فى الشرق الادنى ، فليس الامـــر اذن قاصرا على القاهرة وحدها .

## ١ ــ منظمـــات البلديـــات :

كانت التنظيمات المهنيـــة ( الطوائف ) وكـــذا منظمات الاحياء ( الحارات ) تشكل بنيات حضرية هامة ، لكنها مع ذلك لـــم تكن تشـــكل درجات حقيقية فى سلم التنظيم الادارى كما أنها لم تكن أنظمة حضرية أصيلة .

### ( أ ) الطوائف المهنيـــــــة :

كانت الطائفة المهنية عنصرا أساسيا فى الحياة المدنية ، فقد كانت تمثل ــ بالنسبة للسلطات ــ اطارا يمكنها من الاشراف على قرابة معظم الشعب العامل بالمدينة من صناع وتجار . وهذه الحقيقة بالغة الوضوح بحيث تستحق الوقوف عنـــدها كثيرا ، فعندما يتوسط شيوخ الطوائف المهنيـــة فى المشاجرات التى تنشب بين ابنـــاء طوائفهم ، وعندما ينظمون المنافسة ويعاقبون المسيئين على مايرتكبون من أخطاء فأنهم بذلك يســـــهمون فى ادارة المدينة وفى حفظ النظام ، وكانت الغرامات التى تجمع ــ نتيجة لوساطة الشيوخ هـــذه ــ تشكل مصـــادر مالية لايمكن أن تنكر أهميتها

سلطات القاهرة . وكان على الحكام أن يلجأوا لهذه الطوائف ولشيوخها عند حاجتهم لانجاز بعض أعمال البناء أو النظافة أو عندما يحتاجون لتأمين خدمات معينة لم يكن ثمة جهاز متخصص قد أنشىء من أجلها كمكافحة الحرائق على سبيل المثال .

وبصفة عامة ، فقد كانت الطوائف رابطة ادارية ، من تلك الروابط القليلة التى أتيح لها أن تقوم بين السلطات وبين الرعية ، وقد ظلت تلعب هذا الدور الهام الى أن نجحت السلطات المصرية عند حوالى نهاية القرن التاسع عشر فى أن تنشىء جهازا ادرايا قادرا على الحلول محل هذه الطوائف ، ومع ذلك فكلما كانت الحكومة تجد نفسها عاجزة عن خلق جهاز جديد للقيام بوظيفة ما ، فقد كانت تجد نفسها ملزمة باللجوء الى نفس الوحدات التقليدية ، السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، لتكون لها بمثابة الصلة بينها وبين تلك الاعمال الادارية التى كان يتعين عليها القيام بها . وهكذا واصل الشيوخ ممارسة وظائفهم فى تبليغ أوامر الحكومة الى أعضاء طوائفهم .

ومع ذلك فان الدور الذى كانت تلعبه الطوائف

الحرفية فى جهاز الادارة العامة « كجهاز توصيل » تلجأ اليه السلطات ، لم يكن يخص بطريقة نوعية القاهرة كمجتمع حضرى ، بل ان هذا الدور قد مضى لابعد من ذلك ، اذا نحن نظرنا للطـوائف من ناحية المظهر الجغرافى ، فحيث ان معظم الحرف فى القاهرة كانت تتركز فى قطـاع محدود من المدينة فقد كانت للطـوائف المهنية فى الغالب قاعدة جغرافية بالغة التحديد تستمد اسـمها احيانا من اسم تلك الطائفة ، وان كان الامر ليس على الدوام صحيحا فى هذه النقطة ، فبينما نجد طائفة « لعمال حى باب الشعرية » وأخرى « لتجار حى الغورية » ، نجد الامر واضحا بالنسبة لطائفة « بياعى النحاس بالقاهرة » اذ كان كل النحاسين فى الواقع متجمعين فى سوق يحمل نفس الاسم وفى ضواحيه القريبة ، كذلك الامر بالنسـبة « لصناع الخيام بالقاهرة » فكل الخيامية بالقاهرة كانت محلاتهم تقع بالقرب من باب زويلة ، وكما كان الافراد الذين يمارسون مهنة ما يتجمعون فى حى واحد ، هو غالبا شـارع معين ، وكما كان لنشـاطهم ملمح سـائد وخاص احيانا ، فأنه من الممكن الافتراض ان الطائفة المهنية التى ينتمون اليها كانت تمارس داخل هذا القطاع عملا اداريا « محليا » بالاضـافة الى اختصاصاتها العادية فى

المسائل الحرفية ( كالاجور والاثمان ٠٠ ) ويوحى بهذا المعنى احد النصوص ـ وان كان متأخرا نوعا اذ يعود الى زمن الاحتلال الفرنسى ٠ فقد حدث بعد بضعة ايام من نهاية ثورة القاهرة الاولى ان توجه شيخ وتجار حى الغورية ( وهو اكبر سوق للاقمشة بالقاهرة ) الى بونابرت وقدموا تعهدا كتابيا بأنهم سوف يحفظون من الان فصاعدا كل شوارع الحى من أى اضطراب او شغب ، وبأنهم سوف يبذلون كل عنايتهم لردع كل من يسىء الى الامن ، ووعدوا ايضا بأن يلقوا القبض على ابناء الحى الذين يرتكبون ما يخل بالنظام وبأن يرشدوا السلطات الى الغرباء الذين قد يقيمون بالحى كما اعلنوا انهم مسئولون شخصيا عن أى اضطراب قد ينشأ فى منطقتهم ٠

وواضح ان الامر هنا أمر سلطة قضائية محلية اخذت على عاتقها طائفة ما القيام بها فى منطقة نشاطها الاقتصادى ٠

ومع ذلك فان هذا النص شديد التفرد ، كما انه صدر فى ظروف غير عادية لدرجة شاذة لا نستطيع معها ان نعتبره شيئا سوى دليل على ما كان يمكن للطوائف المهنية ان تلعبه من دور فى الادارة المحلية ٠

## ( ب ) الاحياء :

كانت الخلية الاساسية للحياة المدنية فى القاهرة تتمثل فى الاحياء بأكثر مما كانت تتمثل فى الطوائف ، التى ظلت اهتماماتها مهنية على وجه الخصوص والتى كانت منطقة نشاطها لا تغطى الا جزءا من حياة المدينة . وكان يشار الى الاحياء عادة باسم الحارات ( حارة ) ، وان كنا نصادف أحيانا اسماء اخرى مثل «خط» و«درب» .

وقد وصف نيبيور NIEBUHR احياء القاهرة بأنها « تتكون من عدد كبير من الشوارع الصغيرة ، ليس لها جميعا الا منفذ واحد ، تتصل عن طريقه بأحد شوارع المدينة الرئيسية » . فالحى اذن وحدة مغلقة تترابط فيما بينها عن طريق شبكة متدرجة من الطرق الهامة ، وأزقة تصب فى حوارى ( عطفات ــ عطفة ) وتؤدى بدورها الى الشارع الرئيسى للحى ( درب ) ، وهو الذى يسمى الحى عادة باسمه ، ويتصل فى النهاية بالشارع الكبير ( شارع ) غالبا عن طريق بوابة . وفى العادة لم يكن ثمة دكاكين فى الحارة ، وان وجدت احيانا ، فانها تكون بالقرب من البوابة . ويقول نيبيور « ان الاحياء تستخدم فى العادة كمقر لسكنى الصناع وغيرهم من السكان الفقراء الذين يعملون ، ليس داخل بيوتهم ،

ولكن فى حوانيت صغيرة فى « السوق » او على طول الشوارع التجارية » ٠

وكانت كل من هذه الوحدات المنفصلة تضـــم عادة جماعة متجانسة نسبيا من الناس ، كعمــال يمارسون مهنة واحدة ، أو أناس تنتمى اصــولهم لبلدة واحدة أو يدينون بدين واحد ٠

ويميل رحالة القرن السابع عشر الى المبالغـــة فى عدد حوارى القاهــرة فيذكر Thevenot رقم ٢٣٫٠٠٠ ثم لايلبث آن يضيف ان هـــذا يبدو له رقما مبالغا فيه ٠ ولسنا نستطيع أن نعتمد عـــلى تقدير معقول لعدد الحارات الا عـــن طـــريق كتاب وصف مصر Description de l'Egypte كما امكن عن طريق الخريطة التى عملت للقاهــرة فى هذا الكتاب تحديد اماكن الحارات بدقة ٠ وحسبما يذكر Gomard ، فقد كان يوجد بالقاهرة ٥٣ حيا نجـد منها ٥٢ بالفعل فى قائمة وصـــف مصر ٠ ويتفق هذا العدد على وجه التقريب مع العدد الذى يمكن استخلاصه من قائمة مشـــايخ الحارات التى تضمها وثائق أرشيف الحملة الفرنسية وهى ٥٨ شيخا وهو رقم يمكن تنزيله الى ٥٥ فقط اذا وضعنا فى اعتبارنا أن ثلاثة من هذه الاحياء كانت منقسمة . ومع ذلك يبقى هذا الرقم أقل من الرقم الحقيقى

اذ اننا ــ أثناء بحثنا فى وثائق القاهرة ــ اكتشفنا، مع أننا لاندعى أنه بحث تام وشامل ــ وجود ١٦ حارة لم يرد ذكرها فى قائمة كتاب وصف مصر .

ومن جهة اخرى فان قائمة ارشيف الحملة الفرنسية شديدة الاختلاف مع القائمة التى يوردها كتاب وصف مصر ، ولذا فان رقم الـ ٦٣ الذى انتهينا اليه هو بدوره رقم غير دقيق ، والرقم الحقيقى لعدد الاحياء يقترب بلا شك من المائة مما يجعل متوسط عدد سكان كل حى ما بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ نسمة .

وليس من نافلة القول ان نقدم قائمة بهذه الحارات ، ذلك ان تحديد اماكنها على الخريطة قد يؤدى لنتائج هامة (١)

## الاحياء التى ورد ذكرها فى كتاب وصف مصر :

النصارى ــ الداودية ــ الصعايدة ــ المدابغ ــ الزرائب ــ العبيد ــ الاسقف ــ النصارى ــ الحنفى ــ عابدين ــ النصارى ــ السقائين ــ السيدة ــ الزياتين ــ صفية ــ الحمام ــ غيط العدة ــ المغاربة ــ باب الغدر ــ اليهود ــ الصقالبة ــ القرائين ــ زويلة ــ الشعراوى ــ الفرنساوية ــ الافرنج ــ النصارى ــ الخضرى

ــ الكفاروة ــ النصارى ــ الساكت ــ قنطرة الدكة ــ الغريب ــ الدراسة ــ الفرن ــ الوسايمة ــ الدويدارى ــ الازهر ــ الوليلى ــ الجعيدية ــ القليوبية ــ البوز ــ العطوف ــ السناتية ــ الحطابة ــ الخربكية ــ زرع النوى ــ الرخبة ــ الروم ــ الزرنبة .

**أحياء ورد ذكرها فى وثائق أرشيف القاهرة :**

الجمالية ــ درب الاحمر ــ عرب اليسار ــ القبانة ــ البقلى ــ درب المحروقى ــ كوم الشيخ سلامه ــ الحبالة ــ درب السكرى ــ درب مصطفى بك ــ الحسينية .

وكانت الحارات الثلاث والستون التى سبق ذكرها موزعة كما يلى : ٢٣ بالقاهرة بحدودها الفاطمية و ١٩ بالمنطقة الجنوبية و ٢٠ فى المنطقة الواقعة الى الغرب ووراء الخليج ، وأكثر من واحدة بقريه الحسينية . ويتفق هذا تقريبا مع توزيع السكان الذين كانوا موزعين بلا شك بطريقة مماثلة بين مناطق القاهرة الثلاث بينما كانت النشاطات الاقتصادية مركزة بالقاهرة ( الفاطمية ) .

ويتفق هذا مع الملاحظة التى ابداها الرحالة وهى ان الحارة كانت مخصصة للسكنى ، والدليل على صحة هذه الملاحظة أن عدد الحارات فى المناطق

التى يتركز فيها النشاط التجارى الكبير ( كالقصبة بين باب الفتوح وباب زويلـــه وامتـــدادها حتى طولون ، وكذا منطقة خان الخليلى فى باب الشعرية) كان قليلا ، كما ان خريطة الاســواق حيث كانت تتركز الطـــوائف المهنية أســاســا تبدو وكأنها الصورة السلبية لخريطة الحــارات ، كما أن معظم الحارات التى أمكن تحديدها على الخريطــة كانت تقع عند تخوم المدينـــة ، فى تلك المناطـــق التى استقرت فيها الاحياء الشعبية ، بينما ينـــدر أن نجد فى مقابل ذلك حـــارة واحـــدة بالقرب من « الاحياء الراقية » للمدينة : ضواحى بركة الازبكية وبركة الفيل ، وشواطىء الخليج ، وتمثل الاحيـــاء الافرنجية والمسيحية شذوذا عن القاعدة ، تفسره الملامح الخاصة لهذه الحــارات وتلك الرفاهيـــة النسبية لسكانها . كان يسكن هـــذه الاحياء ـ الشـــعبية ـ اذن كمـــا لاحظ نييـــور العناصر الفقيرة من الشعب من صـــغار الحرفيين وتجار التجزئة و « بورجوازية » المشايخ والتجار الذين كانوا يقيمون فى غالب الاحيـــان بجـــوار الاسواق وحول الازهر .

وفى العادة كان لكل حارة باب ( بوابة ) يوجد عند مدخل الشارع المؤدى اليها ، وقد ظل بعضها باقيا حتى الان مثل بوابة حـــارة المبيضـــة التى

أنشــئت عام ١٦٧٣ هى والســبيل والوكالــة المجاوران لها ، وهى عبارة عن قوس من البناء يعلوه صف من الفتحات ويغلقه مصراع ( ضرفة ) كبير من الخشب المقوى بعوارض حديدية . وكان يحرس هــذه الابواب بوابون ( بواب ـ خفير ) ، كان يصفهم الرحالة الاوروبيون ـ بسبب تخشبهم الاسطورى بأنهم يبدون وكأنهم مقيــدو القدمين كأى حصــان جامح بواسطة قيد . مفتاحـــه بيد سكان الحارة حتى يكونوا مطمئنين من حراستـــه لحارتهم .

وفى العادة كانت ثمة نقط للحراسة من بعض رجال الانكشارية تكمل نظام حراســـة الاحياء . وهذه الابواب ـ التى كان من السهل اغلاقها بأقفال خشبية ( ضبة ) ـ لم تكن فى الحقيقة مخصصـــة للقيام بأى دور دفاعى أوقات الحرب ، وانما فقط لتأكيد الامن الليلى بمنع تجوال اللصوص الطارئين، فما ان كان يحــل الليل حتى كانت تغلق أبواب الحارات ، وكان على أولئك الذين يرغبون فى التنقل فى تلك الساعة أن يحملوا الفوانيس . ولم تكن البوابات تفتح الا لابناء الحارة نفســها وللزوار المعروفين منهم مقابل جعــل متواضــع للبواب . وكان هذا النظام يمكن الســلطات من مراقبــة تحركات الاشــخاص الذين ترتاب فيهم ، فمثلا ،

ما ان شاع الخبر عام ١٧٢٩ بأن بعض العسكر الهاربين قد دخلوا درب المحروقى عن طريق القفز من فوق الجدران حتى أغلق الدرب وفتشت البيوت بيتا بيتا وتم استجواب البواب وظل الحى معزولا طيلة يوم كامل مع ما فى ذلك من مضايقة شديدة لسكانه . وبخلاف تلك العطاءات الضئيلة والطارئة التى كان البواب يحصلها من الزوار ، وبخلاف العطاء الاضافى الذى كان يمنح له وقت توزيع التركات (٢) . فقد كان البواب - فيما يبدو - يحصل على أجره من قاضى المنطقة ، من حصيلة الضرائب التى كانت تحصل من الميسورين من أهل الحى .

كان انفصال أحياء المدينة بالغ الفائدة اثناء الاضطرابات ، فما ان كانت تلوح فى الافق نذر حركة عصيان أهلية أو تمرد عسكرى ، حتى كانت تغلق الاحياء ، مما كان يحقق فائدة مضاعفة ، فهو من جهة يضمن حماية الاهالى ، ومن جهة أخرى يعوق حركة المتمردين ، وعند الجبرتى نرى تلك الجملة ذات المغزى تردد فى أوقات الازمات : « أغلق الناس الدكاكين والدروب » ومع ذلك فان وجود الحارات كان يسبب للسلطات أضرارا خطيرة ، اذ كان بامكان الثائرين أن يتحصنوا بداخلها ، وبهذه الطريقة أغلق المتمردون عام ١٣ - ١٦١٤ - وهم عسكر كانوا فى طريقهم الى

اليمن ـ على أنفسهم أبواب حى باب النصر حيث كانوا يقيمون ، وتحصنوا بداخله ولم يمكن التغلب عليهم الا بصعوبة بالغة .

وقد ظل الميل الى العصيان ـ فى احياء معينة من المدينة ـ قويا حتى نهاية القرن الثامن عشر ، كما ان كثرة حوادث العنف والاخلال بالامن التى ميزت العقود الاخيرة من الفترة العثمانية ، دفعت الجماعات القائمة على تجمعات حرفية أو دينية أو انتولوجية ( جنسية ) على أن تتخذ وسائل خاصة بها للدفاع الذاتى . وأهذا انشىء فى عام ١٧٢٠ سور لعزل الحى الافرنجى وتم انشاء بوابة له عام ١٧٥٧ ، ولهذا أيضا فعندما شيد الامير يوسف لنفسه قصرا بالقرب من بركة الفيل عام ١٧٧٧ ، وشق هناك شارعا واسعا للمرور ، احتاط لنفسه بأن انشأ للقصر بابا سريا حصينا . واذا كان الفرنسيون قد عملوا أثناء احتلالهم لمصر على ازالة ابواب الشوارع والحارات فى القاهرة ، فانهم كانوا يفعلون ذلك لاسباب استراتيجية ، فقد كان وجود وسائل الدفاع الداخلى هذه يشكل اخطارا جسيمة بالنسبة لحفظ النظام ، وذلك مايؤكده بوضوح تلاحق الثورات بالقاهرة .

والان ، لنا ان نتساءل : الى أى حد اذن كانت

الخلايا البشرية الاساسية للحياة فى القاهرة تشكل اقساما ادارية ؟ • لقد كانت الحارات تخضع لسلطة شيوخ الحارات ، وكان يعاون كلا منهم نقيب أو اكثر كما توضح وثائق الارشيف • وهذه البنية تطابق نفس بنية الطوائف الحرفية ، ويمكن ان نفترض ان الحارة كانت بنية موازية لبنية الطائفة ، احداهما تقوم على الحرفة والاخرى تقوم على مقر السكن ، وهما متكاملتان كما يبين ذلك بجلاء توزيع الحارات على خريطة القاهرة • لم يكن اذن ثمة انفصال بين النظامين بل لقد كان هناك تكامل بينهما ، فكان من الممكن ان يكون شيخ الحارة ــ أحيانا ــ هو نفسه شيخ الطائفة المسيطرة فى الحى ، تلك مثلا هى حال حجاج محمد شيخ البرادعية الذى كان فى نفس الوقت ــ عام ١٧٧٧ ــ شيخا لحارة الدراسة ، وحال حجاج موسى عام ١٧٩٨ حين كان شيخا لطائفة النجارين وشيخا لحارة الحبالة فى نفس الوقت • وليس لدينا من المعلومات ما يجعلنا نعرف على وجه الدقة طبيعة الدور الذى كان يقوم به مشايخ الحارات • لقد دعوا ــ اثناء الاحتلال الفرنسى ــ الى المساهمة الفعالة فى حفظ النظام ، تلك هى المهمة التى أوكلها اليهم نابليون عام ١٧٩٩ حين غادر القاهرة للقيام بحملته على سوريا ، وهذا ما يتفق مع

الالتزامات التى نفذها المشايخ منذ قيامهم باحصاء النفوس فى ٣١ أكتوبر ١٧٩٨ ، ومنذ ذلك الحين اصبحوا بمثابة ضامنين للاهالى من أبناء احيائهم ومسئولين عن أى اضطراب قد ينشأ فيها . وعندما فكر الفرنسيون فى عمل احصاء للمولودين والمتوفين أوكلوا هذه المهمة الى مشايخ الحارات ، تعاونهم فى ذلك القابلات واللحادين . هذا عن دورهم وقت الحملة الفرنسية ، لكن المعلومات التى لدينا عن القرنين السابع عشر والثامن عشر لاتسمح لنا الا ببعض الافتراضات عن وظيفة شيوخ الحارات . ويمكن الافتراض أن دورهم كان يماثل - بلا شك - التزامات رجل الشرطة من حفظ للنظام ومراقبة العناصر المشبوهة أو « الغريبة » وبحكم اتصالهم المباشر بالاهالى فقد كانوا فى مكان يسمح لهم أن يلعبوا دورا اداريا ، وهكذا فقد كانوا يدعون للاشتراك فى تصفية تركات « الخاضعين لادارتهم » وفى مقابل ذلك كانوا يحصلون على عوايد ، ( أو خدمة ) تعادل ٢ أو ٣ ٪ من مجموع التركة . وعموما فان مشايخ الحارات كانوا واسطة اتصال بين السلطة والرعايا وهو نفس الدور الذى كان يلعبه شيوخ الطوائف الحرفية كما سبق ان ذكرنا . ويجب ان ننظر اليهم فى هذا الخصوص - بلا شك - كأعيان

وممثلين لاحيائهم أكثر من اعتبارهم مجـرد اناس قائمين « بدور اداري » .

لكن هذه البنيات لم تتحدد ولم ينظمها سـلم اداري الا في القرن السادس عشر ، فعلى سـبيل المثال لم يرد ذكر لشيخ مشايخ الحارات الا في عام ١٨٠٣ ، في مؤلفات الجبرتي .

وكانت هذه الاحياء في النهاية ـ كمقر مزدحم بالسكان ـ تعبر عن نفسها بمظاهرات دينيـة وجماعية ، ولايمكن اعتبارها بحال اقساما ادارية بالمعنى الصحيح للكلمة ، وسوف يكون من العبث في هذا المجال البحث عن شكل ولو ضئيلا لادارة ذاتية حضرية (لها اهتمام بالمرافق والبلديات) على نحو ما . لقد ظلت القاهرة بوصفها مدينة تدار من أعلى ، على يد السلطات الحاكمة .

## ٢ ـ ادارة ( حكومة ) المدينة :

لم يكن بالقاهرة العثمانية مايمكـن ان نعتبره ادارة ذات صبغة حضرية الا الوالي . أما المسئوليات التي تتصل بالمجالين الاساسيين للمدينة : مجـال حفظ النظام ومجال المرافق فقد كانت موزعـة بين سلطات « أهلية » ماكانت لتهتم بالقاهرة على وجه الخصوص الا لكونهـا مقرا للحكومة ، ولان

مشكلات التنظيمات المختلفة بها كانت ذات اهمية خاصة ٠

**(أ) الباشــــا :**

كانت السلطه التى فى حوزة الفرق العسكرية تخسف بجانبها سلطة ممثلى الباب العالى ، ومع ذلك فقد ظلت فى حوزة الباشوات وسائل عمل كافية ، كفيلة بأن تمكنهم من أن يقوموا بدور مؤثر عندما يضطرب الامن ويختل النظام بالقاهرة، ومهما كانت محدودية تأثير تلك السلطات ، الاانهم ظلوا ـ من وجهة النظر هذه ـ هم السلطة العليا التى كان على بقية « القوى » ان تعتمد عليها حتى ولو كانوا فى واقع الامر يستخفون بها ، وهذا ماكان يبدو بوضوح متزايد بدءا من القرن السابع عشر ٠ وحيث ان المحافظة على النظام كانت تشغل هؤلاء الباشوات بالدرجة الاولى ، فقد كانوا كثيرا مايتدخلون لحل الصعوبات التى تهدد باضطراب النظام ، كما حدث على سبيل المثال اثناء ازمات الاسعار وندرة المواد الغذائية التى أدت الى كثير من الحركات الشعبية ٠ ففى عام ١٦٧٨ عندما بلغ ثمن اردب القمح ١٨٠ نصف ( فضة ) مما زاد السخط ، أمر عبد الرحمن باشا بأن يباع الاردب ب ١٣٠ فقط ومع ذلك انفجر العصيان وأشعلت الحرائق فى الدكاكين ومخازن الحبوب فى الرميلة ،

عندئذ ارسل الباشا الزعيم لاعادة الهدوء ، لكن ذلك لم يؤد الا الى سقوط ١٣ قتيلا . والامثلة على مثل هذا التدخل كثيرة .

أما فيما يخص القاهرة نفسها كمدينة ، فقد أولى الباشوات اهتماما بشئون المرافق اكبر من من اهتمام الاهالى انفسهم بهذه الشئون اذ يبدو ان مثل هذه الامور فى ذلك الوقت لم تكن تشغل بالهم . وعلى سبيل المثال ، فقد امر محمد باشا ( ١٦٠٧ — ١٦١١ ) بازالة نتوءات الارض من كل شوارع القاهرة حيث كان تراكم الاتربة والقاذورات قد أدى الى مشاكل حقة . كما أمر مقصود باشا ( ١٦٤٢ ـ ١٦٤٣ ) بحفر الخليج الحاكمى والخليج الناصرى اللذين يهددهما تراكم الطمى، وبعد ذلك بمدة أعطى محمد باشا — آخر — ( ١٦٥٢ ـ ١٦٥٦ ) أوامره الى نظار المساجد بالقاهرة بتبييض هذه المبانى مما جعل الناس يطلقون عليه اسم « أبى النور محمد » ، كما ارتبط اسم حسين باشا ( ١٦٧٤ ـ ١٦٧٥ ) بترميم العيون التى تهدمت من الكوبرى القريب من الجيزة . وأخيرا فان محمد باشا ـ ثالث ـ ( ١٦٩٩ ـ ١٧٠٤ ) هو الذى أمر بهدم الدكاكين والسقوف من الاسواق كى يوسع الشوارع . وهو الذى أمر كذلك بحفر أرض الشوارع وتسويتها ، ولم

يفتر حماس الباشوات فى مجـال البلديات الا فى القرن الثامن وانتهى الامر بانطفاء هذا الحمـــاس نهائيا ·

**(ب) أغوات الانكشارية :**

منذ بداية الاحتلال العثمانى لمصر ، عهدالسلطان سليم الى أوجاق الانكشارية بمهمة حراسة المدينة والقلعة · والى تلك المهمة يعود سبب تســميتهم ( مستحفظان ) أى « الحراس » تلك التسمية التى أصبح يشـار بها اليهم فى مصر عادة ، فى الوقت الذى كان يطلق عليهم فيه اسم يانيشــاريا أو ينكيشاريا ( وبالتركية : ينيشرى ) ونتيجة لهـذه المهام الموكولة اليهم ، كان عـلى الانكشــارية ان يقووا من نفوذهم وسلطتهم لحد أصـبحوا معـه - عند حوالى نهاية القرن السـابع عشر - العنصر العسكرى والسياسى المســيطر فى مصر · وكان لقائدهم أغا مستحفظان الصدارة على قواد بقية الاوجاقات ، بل كان هو بالفعل قائد جيش مصر · وكان من مهامه على وجه الخصوص ان يقوم بدور الشرطة فى القاهرة وضواحيها ·

وفيما بعد انتقلت السلطة الحقيقية فى أوجاق الانكشارية الى يد كتخدا ( ملازم ) الاوجاق ، وان ظل الاغا يحتفظ بسلطات البوليس التى سبق ان

تولاها . وعنـــد مجيء الحملة الفرنســية كان الانكشاريون كما يذكر مارســيل Marcel يقوم بمهمة الحفاظ على الامن العام ، وكان أغاهم يقوم بمهام عسكرية وادارية ، وكان يقوم على وجه الخصــوص بدور الشرطـــة فى المدينة فى كـــل الشئون التى لاتخضع لسلطة المحتســب الذى لم تكن اختصاصاته تتعدى القيام بدور الشرطة فى شئون التجارة .

أما اختصاصات الاغا فقـــد امتدت لتشـــمل الاشقياء من كل نوع ، واللصــوص ، والعاهرات والذين يبيعـون الخمور سرا أو يقومون بما يعكر صفو الامن . وبصفة عامة فقد كان الانكشاريون يمارسون دور شرطة النهار بينما الوالى يقوم بدور الشرطة الليلية .

وقد أدت تلك السلطات التى حازها الاغوات فى مجال الامن ، والتى كانت تزيد كثيرا وقت الازمات، حين كانت الحكومة وقتها تعطيهم نوعا من التفويض العام بالسلطة، أدت الى أن يتدخل هؤلاء المسئولون الكبار فى شئون بلديات ومرافق القاهرة . ويمكن أن يوضح لنا ذلك العلاقات التى كانت قائمة بين الاوجاق والطوائف الحرفية بالاضافة الى سيطرة الاوجاق على عدد من هذه الطوائف منافسا بذلك

سلطة المحتسب • فعندما أوكل الى على آغا عام ۱۷۰۳ – بتكليف من السلطات العليا – حل المصاعب الناجمة عن الازمة النقدية وندرة المواد الغذائية انتهزهو تلك السلطات المطلقة التى خولت له ليوجه اهتمامه الى مشاكل « المرور » فى شوارع المدينه ، فأمر بازالة الاتربة التى تراكمت والتى بلغت طول ذراعين فى بعض الجهات كما أمر بازالة « مصاطب الدكاكين » التى تعوق الطريق •

وعندما حصل عام ۱۷۱۱ على نفس التفويض مرة أخرى وبسبب ازمة « سياسية » هذه المرة ، فقد عمل هذا الاغا نفسه على تنظيف الشوارع وغسل المنشئات العامة ( المساجد ، الاسبله ( سبيل ) المدارس •• ) كما توجه الى المناطق التى دارت بها المعارك التى تسببت فى هدم الكثير من المبانى ، وأمر بازالة الانقاض واعادة بناء ماتهدم • وكان للرعب الذى توحى به شخصيته القوية اثره مما جعل أوامره مطاعة على الفور • ولكن عند قرب نهاية القرن ، ومع اضمحلال نفوذ الانكشارية ، كان من الواضح ان هذا النوع من التدخل قد اصبح نادرا ، وقد لاحظ الجبرتى وهو يشير الى المبانى التى شيدت بالقرب من بولاق – فى فترة على بك – والى الاهمال الشديد من جانب الاهالى حين كانوا يلقون بالفضلات فى النيل ، مما كان

يهدد بتغيير مجراه ، ان اخر حاكم شغل نفسه بهذه المسائل هو : عبد الرحمن باشا أغا مستحفظان وأن أحدا بعده لم يلق بالا على الاطلاق لهذه الامور لدرجة ان بعض الطرق التى كانت تؤدى الى بولاق ، انتهى بها الامر ان سدت تماما بسبب ماتكدس فيها من فضلات • ومع ذلك فاننا نعود لنرى سالم أغا عام ١٧٨٦ يأمر باعادة فتح بوابة جامع السلطان حسن المطلة على سوق السلاح ، وهى البوابة التى ظلت مغلقة منذ احداث ١٧٣٦ مما كان يضطر المصلين أن يذهبوا عن طريق الرميلة كما أمر بهدم الدكاكين والمبانى الطفيلية التى كانت قد قامت هناك •

## (ج) الوالى :

كانت وظيفة والى القاهرة ـ والذى كان يسمى أيضا زعيم ، وبالتركية ( صوباشى ) أقل مرتبة من الاغا ، ومع ذلك فأن السلطة التى كان يحوزها كانت لها مسحة حضرية ( أى ذات صلة بشئون المرافق والبلديات ) محصورة داخل القاهرة وكان الوالى يعين ـ فى الواقع ـ من قبل الاغا الذى يعهد اليه بمهمة الحرص على كافة الشئون البوليسية فى داخل القاهرة ، أما بالنسبة لبولاق ومصر القديمة فقد كانت هذه الشئون من اختصاص « زعيمين » اخرين • وكانت مهمة الزعيم على وجه

الخصوص ، التأكد من أن حراسة مختلف الاحياء مؤمنة جيدا ، وأن النظام يسود المدينة . وكان الوالى يقوم بجولات ليلية تعيد الى الاذهان جولات سلفه فى العصر المملوكى « والى الطوف » الذى كانت اختصاصاته تماثل نفس اختصاصات الوالى التركى . وكان من سلطة الوالى أن يعاقب المخالفين بالغرامات أو بعقوبات أشد ، لكن لم يكن من حقه مطلقا أن يصدر حكما بالاعدام . وكان يصحبه فى جولاته النهارية والليلية عدد من الجنود ، وكان مخولا أن يحصل بعض العوائد من الافراد الداخلين فى مجال سلطته ومن بين هؤلاء الفتيات اللائى يحترفن البغاء .

وكانت اختصاصات الوالى العادية تشمل على وجه الخصوص تنظيف ترعة القاهرة ومكافحة الحرائق . وعند حدوث كارثة ، كان الوالى يتوجه الى مكان الحادث مع ممثلى عدد من طوائف مهنية معينة ، وبالذات السقائين والهدادين . وفى هذا المجال أيضا كان الوالى يقوم بنفس اختصاصات سلفه « والى الطوف » الذى يشير اليه المقريزى « مصحوبا بالسقايين والنجارين والقصابين والهدادين » الذين عليهم الدور فى الخدمة لمكافحة الحرائق الليلية بالمدينة ولاطفاء النار .

### (د) المحتسب :

كانت وظيفة المحتسب ايضا تتصل بشئون البلديات والمرافق ، لكن اختصاصات المحتسب اقتصرت فى الفترة العثمانية على مجال الاقتصاد . وكان يخضع لرقابته عدد معين من الطوائف الحرفية المتصلة بالغذاء . وكان المحتسب يراقب الاوزان والمقاييس والاسعار فى الاسواق الرئيسية حيث تباع المواد الغذائية ، وكان يقوم بجولاته فى المدينة فى شكل موكب مهيب لفت على الدوام أنظار الرحالة . وكان يصحبه فى موكبه كثيرون من بينهم على وجه الخصوص حاملو الموازين ، وكان يوقع العقوبات الجسدية على المخالفين . ومع ذلك فان مكانة المحتسب فى السلم الادارى كانت بالغة التواضع ، وكذا الدخول التى يحصل عليها من وظيفته تلك . وقد ادى به فيما مضى اشرافه على أصحاب الحوانيت الى الاهتمام بمشاكل البلديات كنظافة الشوارع وتأمين حرية المرور داخل الاسواق ، لكن اختصاصاته تلك فى العهد العثمانى اصبحت مجرد ذكريات جهد أحد المحتسبين النشيطين ، وهو مصطفى كاشف كرد ، أن يبعث فيها الحياة فى عهد محمد على ، فقد أراد أن يجبر الاهالى على كنس الاسواق ورشها بصفة دائمة . وأمر باضاءة الفوانيس على ابواب البيوت وبتعليق

فانوس على باب واحـد من كل ثلاثة دكاكين وقد أثارت هذه الاوامر وغيرها معارضات قوية لحـد اضطر معه الباشا ان يلزم موظفه النشيط بالتزام الامر السائد وبأن يقتصر عـلى القيام فقط بنفس اختصاصات سابقيه .

وعندما نأخذ في اعتبارنا ضعف هـذا الاطار الحضرى وعـدم كفايته ، فسـوف نرى أن تلك الامتيازات ـ أو الاوضاع الخاصة ـ التى حصلت عليها بعض طوائف الشعب تعد ـ عـلى نحو ما ـ كسبا للسلطات الحاكمة التى تخلصت بهـذه الطريقة من أعباء كثيرة من المهام الادارية التى كان عليها ان تقوم بها . لقد كان « الذميون » يخضعون لاشراف رؤسائهم الدينيين ، كما كانت الجاليات ( الاجنبية ) كالمغاربة والاتراك والسوريين على سبيل المثال يخضعون بالمثل لمشايخ اختيروا من بينهم ، وكان الزعماء الدينيون وشيوخ الجاليات هؤلاء يلعبون ـ بين السلطة وتلك الاقليات ـ نفس الدور الذى كان يلعبه شيوخ الطوائف الحرفيـة وشيوخ الحارات ، أى دور ضباط الاتصـال بين السلطة والتنظيمات الحرفية والجغرافية القائمة ، وكان هـذا « الانفصـال » عن ولاية السـلطة الشرعية يمثل ـ الى حد ما ـ نوعا من الضـمان لايستهان به فى أوقات كانت الامور فيها مضطربة لحد اضطرت معه جماعات اخـرى ان تحـاول

الحصول لنفسها على امتياز مماثل ، فلهذا السبب، حاول رجال الازهر ان يحصلوا على اعتراف بحق الازهر - تلك « الجامعة الاسلامية » - فى معاملة خاصة . ففى عام ١٧٧٧ - وعقب حوادث وقعت بين بعض الامراء وبعض الطلبة المغاربة الذين كانوا مدعومين من الازهر ، طلب المشايخ أن يصبح محظورا على الاغا والوالى والمحتسب منذ ذلك الوقت أن يمروا فى حى الازهر مما حقق للمشيوخ والطلاب امتيازا حقيقيا أمام السلطات التى كانت تقوم بدور البوليس والادارة بالقاهرة . لكن هذا الامتياز لم يحظ بالاحترام الا لعدة أيام ، ودائما ما نرى الازهر يواصل محاولته الحصول على اعفاء - ولو جزئيا على الاقل - من النظام العام حتى ان ادارة الحى - فى بداية القرن التاسع عشر - ( الحسبة والاحكام بخط الازهر ) اصبحت من اختصاص ممثلين خاصين وهما فى ذلك الوقت - كما يذكر الجبرتى - السيد أحمد الذى يقال له جندى المطبخ وابن اخيه . وهكذا بدا أن المدينة كانت تتحلل الى خلايا تتمتع كل منها باستقلال ذاتى .

## ثانيا - الوظائف الحضرية ( المتصلة بالمرافق والبلديات )

عندما نضع فى اعتبارنا هذا العدد الضئيل من

الاجهزة المتصلة بشئون البلديات ــ والتى تستحق بالفعل هذا الوصف ــ فسوف يبدو لاول وهلة ان الفوضى كانت تعم حياة المدينة . ومع ذلك فان شئون البلديات كانت تؤمن عادة بفعل ميكانيزمات ذاتية وشبه تلقائيـــة فى غيبـــة تلك الادارات المتخصصة .

## ١ ــ النظام العام :

لم يكن تدخل الباشا واغوات الانكشـارية فى شئون النظام العام امرا طبيعيا معتادا ، بل كـــان يحدث عادة فقط وقت الازمات ، كحدوث فتنـــة داخل الجيش أو تنازع بين القوى أو عند حوادث العصيان الشعبية . وكانت شئون البوليس العادية تدخل فى اختصاص الاغا وكان يقوم بها نيابة عن الوالى ورجاله .

وكان والى الشرطـــة يقود جنود الانكشـارية المتمركزين بالقاهرة للمحافظة عـلى النظام ، وكان يصحبه عدد منهم فى جولاته ، أما الباقون فكانوا موزعين على نقط صغيرة تنتشر فى كل انحاء المدينة . وكانت هذه النقط تحمل اسم «قلق» ويقودها ضابط برتبة بلوكباشى ، وكان جندى الانكشارية الذى يخــدم بها ــ وكان ذلك يتم بالدور فيما

بينهم - يسمى نوباتجى · وكانت هذه النقط مكلفة على وجه الخصوص بضمان وتأكيد الامن فى أحياء المدينة ·

وكان مركز بوليس القاهرة يوجد فى قلب المدينة بجوار باب زويلة مباشرة · وهناك كان مقر سكنى الوالى بالقرب من سوق القوافين وهو سوق كبير مغطى ، بناه رضوان بك لتجار الاحذية أمام باب زويلة · ويذكر كتاب وصف مصر ان فى هذه المنطقة كان يوجد بيت الوالى وبوابة الوالى حيث كان يقوم بحراسته الجنود فى شارع صغير يؤدى الى قصبة رضوان على الشمال عند المجىء من باب زويلة . وربما كان وجود الوالى قريبا من هناك هو الذى يفسر لنا كيف أن باب زويلة ظل المكان الذى كانت تنفذ فيه أحكام الاعدام حيث كانت تعلق رؤوس المشنوقين حسب تقليد - والحق يقال - بالغ القدم . وهناك ، علقت رأس آخر سلاطين المماليك طومان باى بعد مدة قصيرة من هزيمة مصر على يد العثمانيين ، وفوق السور الحديدى لسبيل فرج بن برقوق . وفى عهد العثمانيين قضى كثير من المحكوم عليهم بالاعدام هناك آخر لحظات عمرهم سواء كانوا من كبار الشخصيات أمثال أحمد باشا «الخائن» بعد فشل تمرده ضد السلطان عام ١٥٢٤

وابراهيم باشا الذى ذهب ضحية تمرد العسكر عام ١٦٠٤ وعلقت رأس كل منهما على باب زويلة — أو سواء كانوا مجرد أمراء أو عسكر لاقوا حتفهم نتيجة انقسامات ونزاعات داخلية أو مجرد أناس أدينوا من قبل «القانون العام» كتلك السيدة التى قبض عليها عام ١٨٠٢ لانها سرقت ملابس من أحد الحمامات ، وقد شـنقت هى الاخرى عند باب زويلة ، وبلا شك فان وجود الوالى فى هذه المنطقة — والذى خلف أثره على طبوغرافية الحى عن طريق حمام يسمى حمام الوالى على سبيل المثال — يفسر لنا تلك التسمية : «باب المتولى» التى اطلقت على باب زويلة ، اذ كان يطلق على قائد الشرطة أحيانا اسم متولى الشرطة وهى التسمية التى تعثر على مثلها فى دمشق . ويبدو أن الفكرة التى تقول أن أصل هذه التسمية يعود الى سبب دينى هو تقديس أحد الاولياء (والى أو متولى القطب) كان يقيم هناك ، يبدو أن هذه الفكرة لم تظهر الا فى القرن التاسع عشر كما أن (الكركول) الذى أشار الى وجوده على باشا مبارك بجوار مسجد الطلائع عند بداية قصبة رضوان تجاه باب زويلة هو بلا شك احدى البصمات التى تركتها اقامة الوالى على هذا الحى .

وعلى العموم ، فاذا نحن نحينا جانبا فترات الاضطرابات السياسية التى أصبحت أكثر تكرارا فى القرن الثامن عشر ، فانه يمكن القول أن النظام كان يبدو مستتبا بطريقة مرضية لمدة تقرب من الثلاثة قرون من السيطرة العثمانية ، ومهما كانت أخطاء هذه الشرطة التي تتهم أحيانا بالرشوة والقسوة ، فانها كانت فعالة لحد كاف . كما أن الاحتياطات المضاعفة التى أتبعت لمنع نشاط اللصوص — وخاصة أثناء الليل — ( كاغلاق الحارات ، وجولات الوالى ) قد هيأت لسكان القاهرة أمنا نسبيا . ولا يذكر مؤرخو هذه الفترة ، وهم الذين يميلون الى سرد الحكايات الطريفة من هذا النوع — الا بعض حوادث (المناسر) الذين عاشوا فى مختلف الاحياء دون رادع يذكر ، وعندما أمسكهم الناس تركهم الوالى يهربون مقابل رشوة . لقد كان الامر بشعا لحد شاذ فقد نهب ٤٨ دكانا فى طولون مما تسبب فى خسائر كبيرة ، وعندئذ ذهب التجار المغاربة يشكون للباشا مهددين برفع شكاواهم الى السلطان اذا لم يعزل الوالى ، فعين الباشا واليا جديدا قام بتعقب اللصوص والقى القبض على عدد منهم وعاد الامن الى القاهرة ، ولكن ابن أبى السرور الذى أفرد لهذا الحادث صفحات

عدة يحدثنا بعد ذلك عن الامن التام الذى كان يسود القاهرة اثناء الليل « كثرة الامن بها بالليل » كاحدى مميزاتها ، فقد كانت شدة الولاة وقسوتهم تجعل بقاء اللصوص مستحيلا ، وكان بامكان الناس أن يذهبوا أثناء الليل الى أعمالهم فى الاسواق والشوارع .

## ٢ ـ التنظيم ( ادارة الطرق )

ظل انشغال الحكام بالامور التى تمس تنظيم الطرق لا يتجاوز حدا متواضعا ، كتنظيف الشوارع او ازالة الانقاض التى تهدد بسدها . كما كان هذا الاهتمام بالغ التقطع لحد لم يكن لهذه المشاكل معه أن تصل الى حلول مرضية ، واستوجب الامر أن يقوم السكان القريبون من شواطىء النيل بعبء كنس الشوارع ورشها مما يحول دون أن تتسبب الاتربة فى مضايقة الناس .

وعندما حمل الشعب السلاح عام ١٧٩٨ عند مجىء الفرنسيين وأسرع الناس الى المتاريس التى أقيمت فى بولاق ، وعندما لم يعد بالقاهرة سوى النساء والاطفال والعجزة أصبحت

الشوارع قذرة اذ لم يعد ثمة من يكنسها أو يرشها . كما أن فى تكرار النداءات من جانب السلطات ـ فى الاوقات العادية ـ بالتزام النظام حتى يمكن تأمين « الكنس والرش » مايجعلنا نفترض انه حتى فى هذه الاوقات العادية كثيرا ماكان الناس يهملون هذا الامر . ومع ذلك فمما لاشك فيه ، انه يمكن القول بأن الحال فى الاسواق الكبرى التى يصفها الرحالة دائما بأنها نظيفة ومعتنى بها كانت غير الحال فى الشوارع الصغيرة والمتعرجة فى الاحياء السكنية التى كان تنظيفها بالغ الصعوبة . ومن هنا كانت تلك الانطباعات المتعارضة ـ ظاهريا ـ لاولئك الرحالة ، فعلى سبيل المثال وصف كليبر Kléber عام ١٧٩٨ شارع « سوق القوافين جنوب باب زويلة » بأنه « واسع » ، نظيف ، جيد التنظيم ، ومغطى جيدا .. ومقابل ذلك نجد أن القاهرة فى رأى دوجيرو Doguereau ليست سوى « لوحة منفرة ، قبيحة لحد مرعب ، وتنقصها النظافة » . وحول هذا المعنى نفسه كتب الشيخ حسن الحجازى (المتوفى عام ١١٣١هـ ـ ١٨ ـ ١٧١٩م) هذه الابيات وهى وان كانت تميل للمبالغة بعض الشىء الا انها مع ذلك ذات دلالة :

حارات أولاد العرب سبعا حوت من الكرب
بولا وغائطـــا كـــذا ترب غبار ســـو أدب
وضجة وأهلهـــــا شبه عفـــاريت الترب

وقد كان ضيق غالبية الشـــوارع يجعـــل من الصعب اخلاءها من الانقاض والقاذورات التى تتراكم فيها من كل نوع ، بالاضافة الى الاتربة التى تعد واحدا من جروح القاهرة التى لاتندمل ، وقد كان ذلك كله يؤدى الى ارتفاع بطىء ، ولكنه مزعج ، لمســـتوى ارض الشـــوارع ، ولعـــلاج الامر ، كان لابد من «تطهير» الشوارع — تطهير بمعنى الكلمة — على فترات منتظمة . وهـــذا ماكان يقوم به بين حين وآخر بعض الحـــكام الذين كانت تشغلهم على وجه الخصوص مسائل الصالح العام . وحين أمر محمد باشـــا ( ١٦٠٧ — ١٦١١ ) — كما ســـبق أن رأينا — بازالة الارض التى تكدست أرفق قراره بتبرير بـــادى الغرابة ، فقد أدعى — حسبما قال — انه أراد أن يزيل الارض التى وطئتها أقدام العصـــــاة الذين رد اليهم صـــوابهم ، وليس أقل من هـــذا دلالة أن يخصص الشيخ عبد الله الدنوشارى أبياتا عدة لهذا الاجراء الذى يتصل ببســـــاطة بالشئون الصحية . وبعد ذلك بحوالى قـــرن (١٧٠٢ — ١٧٠٤) أمر محمد باشا — آخر — بازالة الارض التى تكدست فى الشوارع حتى

تبين أساسات الجدران وتمت ازالة مالا يقل عن ذراع من أرض الشوارع، لكن مستوى الارض كان يرتفع من جديد فى فترات التوقف ، وبعد ذلك علينا أن ننتظر حتى عام ١٨١٨ لكى نرى محتسبا نشيطا لدرجة غير عادية من موظفى محمد على يلزم القاهريين بأن يزيلوا من الشوارع الاكوام التى تهدد بمنع المرور فيها . وبرغم مبادرات السلطات هذه ، فقد ظلت القاهرة عرضة للردم تحت الانقاض كما يوضح ذلك منشئات العهد العثمانى التى تبدو واجهاتها كما لو كانت مدفونة تحت الارض والتى تختفى أبوابها أحيانا حتى النصف بحيث لم يكن من السهل الوصول اليها الا بواسطة سلم(٣) وقد سبق أن ذكرنا أن بعض الباشوات والاغوات وخصوصا محمد باشا السلحدار « أبو النور » وعلى باشا وعلى أغا قد ذهبوا الى حد الامر بغسل واجهات المنشئات العامة فى القاهرة وهو امر يتجاوز بوضوح ولحد بعيد كل الاهتمامات الحضرية المعتادة من حكام القاهرة .

وكان الخليج الذى يخترق القاهرة من منتصفها والذى كان يستخدم كمجارى طيلة العام وكمصدر للمياه ايام الفيضان — كان هذا الخليج رغم

كونه أكثر حيوية لحياة المدينة يلقى للاسف نفس الاهمال . لقد كان من اختصاص الوالى العناية بالخليج على وجه الخصوص ، تلك العناية التى كان يسهم فيها الاهالى القاطنون بالقرب من شواطئه ، فكما يذكر قنصل فرنسا Damiral عام ١٧٤٦ «كانت مصاريف ازالة الطين من الخليج تقع خصوصا على عاتق كل بيت يطل على الخليج وحسب حصة معينة» ومع ذلك فلا يبدو أن العمل كان يتم بانتظام ، ففى حوالى عام ١٦٤٣ أمر مقصود باشا باعادة حفر الخليجين حيث أزيل من كل منهما ذراع من الطمى أى مايقرب من المتر ، لكن تكدس الاوحال بلغ فى عام ١٨٠٨ — وبسبب اهمال المسئولين — حدا توقف معه وصول الماء فى «عز» موسم الفيضان مع كل النتائج التى يمكن افتراضها من جراء ذلك عن الحالة الصحية للمدينة وامداداتها بالمياه .

وكانت اضاءة الشوارع تتم حسب تقليد بالغ القدم ، رغم انها كانت تتوقف أحيانا دون شك . وكانت القناديل ( قنديل ) حسبما يذكر ابن أبى السرور تضاء منذ منتصف القرن السابع عشر فى الاسواق والشوارع . وفى الواقع فان ايفليا جلبى يذكر طائفة تسمى «القندلجية» تضم مائتى

فرد ، وكان عملهم على وجه الخصوص هو تزيين الدكاكين بالفوانيس أثناء ليالى المولد وليالى رمضان وكانت الاضاءة فى الاوقات العادية بلا شك اكثر اقتصادا ، وتورد حسابات الامة الفرنسية Nation Française سعر الزيت المستخدم لاضاءة قنديل الحى وقنديل بيت القنصلية وكانت الاضاءة تقوى أثناء الازمات ، وقبيل مجىء بونابرت كان اللصوص قد ظهروا فى الضواحى وامتنع الناس عن الخروج فى الليل ، عندئذ اصدر الوالى والاغا اوامرهما الى الناس بفتح الاسواق والمقاهى بالليل وبتعليق واضاءة الفوانيس امام البيوت والدكاكين لطمأنة الناس ولتفادى المفاجئات ·
وبعد دخول الفرنسيين القاهرة بقليل امروا بالمثل باضاءة الفوانيس بالليل فى الشوارع والاسواق بواقع فانوس لكل بيت وفانوس لكل ثلاثة حوانيت · ولنفس دواعى الامن ، كان على الناس الذين يتجولون ليلا ان يصطحبوا رجالا يحملون مشاعل · والمشعل فى العادة عبارة عن عمود خشبى مزود بقرص اسطوانى من الحديد توضع به قطع من الخشب المشتعل · وكان حاملو المشاعل ( المشعلى

ـ المشعلجى ـ وكذلك الضوئى ) يشكلون طائفة لاتحظى بالاحترام ، يقوم اعضاؤها عادة بأعمال لاتحظى هى الاخرى بالاحترام : نزاحين ، ومرشدين للبوليس وجلادين ٠

## ٣ ـ الخدمات العامـــة

لم تكن ثمة « خدمات عامة » بالقاهرة ، وكـــان جلب المياه والنقل الداخلى وشئون الصحة موكلة الى مهنيين متخصصين ظل نشاطهم بعيدا عن أى تدخل من جانب السلطات ٠ وفى هذا المجال سوف لانتحدث بالتفصيل عن مشــكلة جلب الميـــاه الى سكان القاهرة ٠

كانت القاهرة تعتمد كلية على النيل الذى كان يجرى على بعد كيلو متر من الحد الغربى للمدينة ، بينما كان الخليج المصرى لايجلب المياه الا لمـــدة الثلاثة اشهر التى تعقب الفيضان ، وكانت المياه لاتعطى الا مياها ملحة ، ولهذا كان الناس يتزودون بالمياه الصالحة للاســتهلاك وللاستعمالات المنزلية بواسطة تلك الغـــدوات والروحات التى لاتنقطع لحاملى المياه (السقايين)٠ وكان السقاءون يكافأون من قبل عملائهم ٠ وكانت تقسيمات طائفتهم تقوم عـــلى اسس منطقية بالفعل ، فكان يوجد فى نهاية

القرن الثامن عشر حسب قائمة Vincennes
ثمانى طوائف للسقايين . ويبدو ان هذا التقسيم يعود الى اسباب « تقنيه » و « طبوغرافية » .
كانت المياه اذن تأتى من النهر الذى كانت توجد على طوله الموردات « موردة » التى يصب من عندها السقاءون ، لذا فقد كان من الطبيعى ان تنشأ متدرجة تلك الطوائف الاربع « لحاملى المياه على ظهور الحمير » بالقرب من المداخل الغربية للمدينة، فنجد أولا طائفة « حاملى المياه على ظهور الحمير » لحى باب البحر ، ثم طائفة لحى باب اللوق ثم ثالثة فى حارة السقايين والرابعة فى قناطر السباع .
وعند منتصف الحد الغربى للمدينة ، فى ذلك الحى الذى كان يحاذى عن بعد اتجاه النيل - حى باب اللوق - كانت توجد « طائفة لحاملى المياه على ظهور الجمال » .

وابتداء من هذه النقط المختلفة ، كان « سقاءو القطاعى » يحملون القرب ويسيرون على أقدامهم يوزعون المياه فى احياء القاهرة . ولم يكن ثمة سوى طائفة واحدة تضم « باعة المياه بالقطاعى فى الشوارع » ولم يكن نشاطها يغطى القاهرة فى مجموعها فقط بل كان يغطى ايضا بولاق ومصر القديمة . ومن الواضح ان هؤلاء الباعة لم تكن لهم دكاكين ، كما ان توزعهم الجغرافى بين قطاعات

المدينة المختلفة كان مرتبطا بتوزيع الاسبلة ( سبيل ) حيث كان يتزود الكثيرون منهم بمياهها : فمن بين ٢٢٦ سبيلا يبينها كتاب وصف مصر كان ٨٠ منها ( ٣٤½٪ ) موجودة بالقاهرة ( الفاطمية ) وفى قرية الحسينية وكان ٩٥ منها ( ٤٢٪ ) فى الحى الجنوبى و ٥١ ( ٢٢ر٦٪ ) فى الحى الغربى فيما وراء الخليج ، وهو توزيع يتفق بلا شك وأى حد ما مع توزيع السكان . وكذلك فان الطائفة الوحيدة لحاملى مياه السبيل كان مقرها حى باب زويله . وفى مقابل ذلك فنحن نجهل فى أى منطقة من المدينة كان مقر طائفة حاملى المياه المالحة التى كانت تستخدم فى بعض الاحتياجات المنزلية .

ان هذا التقسيم المنطقى لطوائف السقايين لايدين بشىء - بلا شك - لسلطات القاهرة التى كانت قلما يشغلها أمر السقايين ، الا عند التفكير فى استغلالهم، وليس ثمة مايدل على ذلك اكثر من ان التعليمات الصارمة والمفصلة فى دفاتر الحسبة فى القرون الوسطى والتى تؤكد على ضرورة نظافة المياه .. قلما كانت توضع موضع التطبيق . وعلى كل ، فانه لم يكن يبدو ان « الموظفين » المختصين - و « المحتسب » على وجه الخصوص -

يهتمون بممارسة أية رقابة فى هـــذا المجال ، بل على العكس من ذلك ، فقـــد كانوا يلجـــأون الى السقايين فقط عند الحاجة الى خدماتهم للاسـهام فى اطفاء الحرائق ، فعند حدوث الكارثة ، كـــان الوالى يستدعى عددا كافيا من السقايين والهدادين وكانت هذه الاجراءات الارتجالية تكفى فى العادة لايقاف انتشار الحرائق ، وعند الازمات ، لم يكن المتنازعون يترددون فى الاستيلاء عنوة على دواب السقايين وتسخيرها مع ما فى ذلك من تعـــريض تموين القاهرة بالمياه للخطر . وليس ثمة مايفضح اهمال حكام مصر اثناء الحكم العثمانى اكثر من تلك العناية البالغة الضآلة التى أولوها ـ قرب نهاية حكمهم للمجـــرى الذى كان يجلب المياه من مصر القديمة الى القلعة . وعندما قرر محمد على عـــام ١٢٢٣ هـ ( ١٨٠٨ ـ ١٨٠٩ م ) أن يعيد بناء هذا المجرى الهندسى الذى كان قد تحول الى انقاض ، كان هذا المجرى قد انقطع عن جلب المياه منـــذ اكثر مـــن عشرين عاما مع ما فى ذلك من متاعب جمة لسكان القلعة والاحياء المجاورة .

أما التنقل فى داخل القاهرة وفيما بينها وبين ضواحيها : بولاق ومصر القديمة فكان يتم بواسطة ركائب تستأجر لهـذا الغرض . وبفضـل هـذا العدد الكبير من الركائب « الجاهزة » على الدوام

وبسبب اعتدال اسعار المشاوير نسبيا ، كان سكان القاهرة يستطيعون التنقل بسهولة بالرغم من اتساع المدينة . وكانت الحمير هي أكثر هذه الركائب انتشارا . وكانت مميزاتها : السرعة والقوة ، موضع امتداح الرحالين الذين أدهشهم بالفعل كثرة عددها الذى وصل لما لايقل عن ٣٠٫٠٠٠ حسب تقدير شابرول Chabrol وهو تقدير لايبدو مبالغا فيه ويشير دوجرو Doguereaa بسرور في يومياته الى تلك النزهات التى تتم على ظهور الحمير التى كانت تمثل لجنود الحملة الفرنسية مباهج حقيقية « كنا نذهب ، وكل منا فوق ركوبته ، نوزع البريد فى كل شوارع المدينة التى لاتسبب شمسها أى أذى .. ان هذه الدواب لممتازة فى مصر ، وهى تجرى قفزا وبنشاط لايصدق ، وفى كل شارع تمر به يقابلك بعضها ، يجرى خلفها الحمار ، وهى تقطع المسافة الطويلة فى وقت قصير (٤) . وكان المكاريون ( الحمارون ) تلك الكلمة التى تفنن الرحالة فى التلاعب بنطقها (موكارى . Moucari مولكر Moulcre وأحيانا موشيرون Moucheron والاخيرة تعنى البعوضة أو الذبابة الصغيرة ) ـ كانوا يتقاضون اجورهم حسب طول المشوار ومدته ، فكانوا يتقاضون من ٨ الى ١٠ بارة للذهاب من طرف المدينة الى طرفها

الاخر ومن ٣٠ ـ ٤٠ بارة اذا شاء العميل الاحتفاظ بالركوبة نهارا كاملا حسبما يذكر شابرول Chabrol . وكانت مكانتهم الاجتماعية ضئيلة ، وقد ضمهم Nicolas Turc الى صفوف الباعة ( المتسببين ) والشيالين والحرفيين والمومسات عندما كان يعدد ابناء الطبقة الدنيا ( الناس الدون أو الناس الادنياء ) . ويروى الجبرتى الكثير من الحكايات الطريفة التى تشهد على السلوك المشين الذى كان معتادا منهم وعن اسهامهم فى الخروج على التقاليد . وكان الرحالة الاوروبيون ـ الذين لم تفتهم طبيعة الدور الذى كان يلعبه هؤلاء فى معاقل الحريم . يطلقون عليهم اسم « ترجمان فينوس » Truchement de Vénus ( رسل الغرام ) .

ولم تكن الطوائف التى ينتظم فيها الحمارون تقل عن اربع طوائف ، ثلاث « لنقل النساء والرجال » ورابعة لنقل الاشياء والامتعة ، لكن الجمالين وعلى وجه الخصوص « الشواغرية » كانوا هم المتخصصين فى نقل الامتعة والبضائع وكانوا يشكلون طائفة واحدة هى طائفة الجمالين لنقل الامتعة ، ولم يكن يستخدم البغال والخيول الا الخاصة ، فكانت الخيول وقفا على استخدام المماليك أما المشايخ والتجار فكانوا يستخدمون البغال ، ولم يكن من حق الاوروبيين

وأبناء الاقليات اليهودية والمسيحية ان يستخدموا سوى الحمير .

وكانت الحيوانات التى تؤجر تقف جاهزة فى « محطات » بمعنى الكلمة ، تقع فى جوانب الشوارع الرئيسية والاسواق « ويستطيع المرء ان يجدها على جانبى معظم الشوارع حيث يمكنه ان يمتطى واحدة منها دون ان يكلف نفسه مشقة الحديث مع أى شخص وان يذهب الى حيث يشاء يتبعه أحد الاولاد الواقفين هناك لهذا الغرض » . وكانت أهم هذه المحطات « موقف الحمارة » و « موقف الجمال » . تقع بالقرب من مداخل المدينة كما يقتضى الامر ذلك . وكانت توجد عدة وكالات للحمير - « وكالة الحمير » حيث كانت تبيت الحمير - بالقرب من الابواب الشمالية للمدينة وهى نقط كان يمر بها الجزء الرئيسى من حركة المرور بين بولاق والمدينة . ويحدد كتاب وصف مصر خمساً من هذه النقط بالقرب من باب الناصرية وباب الفتوح وباب الشعرية ، وكان يوجد حول باب اللوق ثلاثة اسواق للحمير كانت وثيقة الصلة بطائفة « الحمارين لنقل الرجال والسيدات » والتى كان مركزها فى درب الحجر . وكذلك كانت توجد بالقرب من باب اللوق « محطة » هامة للجمال نشأت هناك بسبب وقوع المنطقة على مشارف

بولاق ، وكذا بسبب مرور التجـــارة من هنـــاك مواصلة طريقها الى باب الخرق وباب زويلة · وكان « مبرك النوق » هذا يقع بالقرب من « رحبة التبن » وسوق الغلال « رقعة القمح » وهى التى كانت أهم أسواق القش والحبوب ·

وفى القرن الثامن عشر كان يوجد بنفس هـــذا الحى « خط منزل النـــوق » و « درب المنـــاخ » · وكان فى تجمع دواب الحمل هنـــاك مايثير اغـــراء السلطات عندما كانت تحتاج الى وسائل للنقل ، وقد حاول ابراهيم بك امير الحج على سبيل المثـــال عام ١٧٨٦ مرتين ان يستولى ـ عند اقتراب موسم الحج ـ على جمال المناخ دون جدوى · وكان يوجد « مناخ للجمال » بالقرب من قناطر السباع واخر فى الرميلة التى كانت اهم مركز لتخزين الحبوب فى القاهرة · وكان بأحيائها طائفة لشيالى الحبوب كما كان بها بالاضافة للمناخ « وكالة للحمير » · وكان موقف الحمـــارة فى درب الاحمر يتاخم حى الاسواق بالقرب من مـــدخل القاهرة ( الفاطمية ) شـــأنه فى ذلك شـــأن كل محطـــات الركوب التى ذكرناها ، وأخيرا فاننا نجد فى نفس قلب القاهرة (الفاطمية) محطات يستخدمها المسافرون · ويذكر كتاب وصف مصر وكالتين للحمير كانت احداهما تقع فى نفس مكان « خان الحمير » الذى كانت تبيت

فيه ركوبات أولئك الذين لهم عمل بالسوق كما يذكر رونيه Rhoné ( القرن ١٩ )

أما المشاكل الصحية ، فيبدو انها قلما كانت تشغل بال السلطات العثمانية . لذا فلم تكن الصحة العامة فى المدينة فى حالة مرضية . واذا كان قد وجد فى زمن المماليك ـ على نحو ما ـ نظام للمجارى التى تتجمع لتصب فى الخليج ، فان هذه المجارى كانت قد انسدت كلية على وجه التقريب فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، دون أن يشغل أحد باله بعلاج الامر ، وهذا هو السبب فى أن شوارع القاهرة كانت تغرق بالمياه التى تنحدر اليها من المرتفعات الواقعة شرق المدينة لتتحول فورا الى برك وأوحال . وقد ذكر جومار Jomard أن شوارع القاهرة فى يناير ١٧٩٩ وبعد مطر طويل « كانت مليئة بالاوحال الكثيفة ، وقد بلغت الاوحال هذا الحد لان الشوارع ليست مرصوفة ، وكانت الدهشة تستولى على المرء وهويرى قطعة من الارض جافة ومتربة وهى تتحول فى لمح البصر الى أرض موحلة رخوة وغير متماسكة »

أما الخليج الذى كان يستخدم كترعة تعب منها المياه اثناء فيضان النيل ، أى من أغسطس الى أكتوبر ، فكان يصبح بقية العام مجرد مستنقع شبه جاف ، تفوح منه رائحة كريهة وتتجمع فيه

كل قاذورات المدينة وتتكدس حتى يجرفها فيضان العام التالى ، وكذلك كانت هناك بعض البرك التى تتحول فى بعض الفصول الى بحيرات حقيقيـــة ، وكان ثمة اماكن فسيحة وخاليـــة ، كانت تزرع احيانا أو تستخدم كمكان تتجمع فيه الفضلات التى تتحول الى اسمدة عضوية ، مثال ذلك البرك التى كانت تتجمع فيها الدماء من السلخانات والمدابـغ المجاورة · وكانت البرك ذات المياه الراكدة والتى تجلب البعوض تمتلىء بالذباب فى فصل الصيف · وثمة مصدر اخر للعدوى والاوبئة ، تلك هى تلال الانقاض التى نشأت على وجه الخصوص على الحافة الشرقية للمدينة والتى انتهى بها الامر بأن اصبحت جبالا حقيقية كريهة الرائحة ، وعندما كانت تهب من جهتها الرياح فى أوقات الجفاف كانت المدينـة تغطى بدوامات حقيقية من الاتربة الضارة ، ففى ٧ مايو عام ١٦٩٤ ــ على سبيل المثال ــ هبت زوبعة بالغــة العنف لحـــد غير عادى ، غطت القاهـــرة بموجات من الاتربة جعلت السماء مظلمة مما جعل الناس يعتقدون ــ وكانوا يؤدون صلاة الجمعة ــ ان نهاية الدنيا قد حلت ·

وبالرغم من أن المقـابر الكبرى كانت تمتد الى شرق المدينة وجنوبها فقد كان يوجد البعض منها وراء الخليج ، ادى اتســاع المدينة فى هذا الاتجاه

ان ادخاله - أى ادخال هذه المقابر - داخل اطار المدينة نفسها ، مثال ذلك مقابر ( ترب ) الجامع الاحمر ، والرويعى والازبكية والمقاصد . وقد خلق هذا الوضع بالطبع مشاكل صحية على جانب كبير من الخطورة بالرغم من ان هذه المقابر كانت أقل استعمالا من المقابر الاخرى ولم يكن الناس يستعملونها الا عندما لا يستطيعون - بسبب اضطراب الامن - ان يتوجهوا الى المقابر التى تقع خارج حدود المدينة . وهذا هو ما حدث مثلا اثناء « ثورة » ١٧١١ عندما اضطر السكان بسبب اقامة بدو أولاد حبيب فى باب النصر الى دفن موتاهم فى المقابر المجاورة لبركة الازبكية . ومنذ بدء احتلالهم لمصر ، منع الفرنسيون الذين اهتموا بمكافحة انتشار الاوبئة - منعوا دفن الموتى هناك وان كانوا قد لاقوا فى سبيل ذلك مقاومة جادة من الاهالى ، ولم يقدر لهذه المقابر أن تزال نهائيا الا فى القرن التاسع عشر .

واذا أخذنا فى الاعتبار كل هذه الظروف ، بالاضافة الى جهل سكان القاهرة لابسط القواعد الصحية وأكثرها بدائية ، فلن يدهشنا ان نعرف ان القاهرة قد تعرضت للعديد من الاوبئة المهلكة التى حدثت فى الغالب بعد فترات المجاعات والغلاء

ففى اثناء ( الوباء العظيم ) عام ١٦٩٢ بلغ عـــدد الموتى حدا وصل معه ثمن الكفـــن الى ٢٠ بل الى ٢٥ كيسا ، وقد قدر قنصل فرنسا عدد ضحايا وباء الطاعون عام ١٧١٨ بما بين خمسةالاف وستة الاف يوميا فى أشد أوقات الوباء ، كما قدر العدد الاجمالى للضحايا بحـــوالى ٣٠٠٫٠٠٠ ( ثلاثمائة ألف ) ، أما عدد ضحايا وباء عام ١٧٦٣ فقد بلغ خمسة الاف يوميا كان من بينهم عدد كبير مـــن الامراء والتجـار كانت تركاتهم سـببا فى اثراء الكثيرين • وبعد مدة طويلة نسبيا خلت فيهـا القاهرة من الاوبئة عاد الوباء يظهر من جديد اثناء سنوات الاضطرابات فى نهاية القرن ، وبالذات فى عامى ١٧٨٥ ـ ١٧٨٦ ، حين وصـــل رقم الموتى حسب تقدير فولنى Volney الى ١٫٥٠٠ يوميا وكذلك فى عام ١٧٩١ حين بلغ عدد حالات الوفاة مابين ١٫٥٠٠ و ٢٫٠٠٠ يوميا •

وكان بالقاهرة اثناء العصر المملوكى مؤسسات علاجية عظيمة بالنسبة لعصرها مثل مارســـتان قلاوون ،ومارستان المؤيد الذىكانهو الاخرعظيما وان كان قد تحول الى انقاض فى العصر العثمانى • وقد كان مارستان قلاوون ـ وربما كان هو الوحيد من بين هذه المؤسسات العلاجية التى قدر لها ان تبقى بالقاهرة ، عندما زاره دسجينت Desgenettes

بصحبة الشيخ عبد الله الشرقاوى عام ١٧٩٨ - كان فى حالة تدهور تام ، ففى هذا المبنى الواسع الذى يضم ثمانى غرف كبيرة يمكنها ان تضم مايقرب من مائةمريض ، لم يكن ثمة -ذلكالوقت- سوى ٢٧ مريضا واربعة مخبولين و ٢٥ سريرا خشبيا و ٥٠ سريرا حجريا ، هى كل أثاث المبنى وقت الزيارة • ولم يكن نزلاء المارستان يلقون اية رعاية • وكان يكتفى بتقديم الطعام لهم • وكان قسم الامراض العقلية يتكون من فناءين صغيرين واحد للنساء واخر للرجال ، وبكلفناءثمانية عشر كشكا • ومع ذلك « فانه اذا كان هذا البناء الرائع قد اصابه التدهور التام بسبب اهمال الاتراك والمماليك - حسب تعبير جومار Jomard - فانه يعد أحسن حظا من غيره فقد بقى منه على الاقل شىء ، بينما لم ير الفرنسيون من المارستان القديم ( المؤيد ) سوى أطلال وخرائب أهملت من زمن بعيد » • وفيما عدا مارستان قلاوونلم يكن بالقاهرة سوى بعض التكايا ( تكية ) يعود تاريخ انشاء معظمها الى العهد العثمانى ، لكنها كانت مجرد صوامع للدراويش وليست مستشفيات حقيقية • ويتفق هذا التدهور فى مجال المؤسسات العلاجية - بتدهور الطب العربى فى مصر الذى اقتصرت ممارسته فى الغالب - فى القرن الثامن

عشر – على الاجانب وابناء الاقليات المسيحيــــة واليهودية ٠

## ثالثا – التحضر والبنية الحضرية :

ان عدم وجـود ادارة مســـئولة ، نوعيــة ومتخصصة ، عن شـــئون ومشـــاكل البلديات والمرافق ، بالاضافة الى تلك العناية الضئيلة التى كان يوليها الحكام لهذه الامور ، لم يؤد الا الى نوع من التمزق الحضرى ٠ ودراسة شئون القاهرة اثناء فترة الحكم العثمانى تكشف لنا فى الواقع عــن ملامح لهذه الفوضى تبعث على القلق ٠

### ١ – فوضى المرافــق :

ازدادت خطورة هذا الاهمال الادارى بســبب تصرفات بعض الخاصة الذين كانت فكرة الصالح العام غريبة عليهم تماما ٠ ولم تكن السلطات لتهتم ولا كانت بقادرة – للتصدى لتلك الاعتداءات التى شوهت شبكة المرافق بالتدريج ، فلم تكن تتدخل الا عندما تحتم الضرورة ذلك ، حين يصبح الوضع بحيث لايمكن التساهل فيه ٠

والامثلة عديدة على تلك المخالفات التى ارتكبها اناس اساءوا استخدام سلطتهم للاستيلاء عــلى « الملكية العامة » ، فعلى سبيل المثال ، قرر الامير

يوسف بك ( المتوفى عام ١٧٧٧ ) - رغبة منه فى تجميل البيت الذى كان قد شيده فى بركة الفيل - أن يوسع درب الحمام فاشترى المنازل التى كانت تعوقه أو استولى عليها عنوة ، وشق شارعا واقام بوابة كبيرة ، ورغبة منه فى انشاء ميدان فسيح امام بيته فقد انتوى ان يهدم مسجد خير بك حديد الذى كان يحول دون تنفيذ هذه الرغبة ليشيده فى مكان اخر ، لكنه عدل عن ذلك فى النهاية استجابة للنصيحة التى أبداها له حسن الجبرتى حين استشاره هو فى هذا الامر ، ومع ذلك ، فربما كان الامير قد ساهم - باجراءاته تلك وعلى نحو ما - فى تحسين حال الطرق ( التنظيم ) ، بينما فعل الشيخ أحمد النفراوى ( المتوفى عام ١٧٩٢ ) العكس من ذلك حين استولى - وكان وقتها ذا نفوذ كبير استمده من تقدير على بك الكبير له - على قطعة ارض تدخل فى نطاق الطريق العام ليشيد عليها بيته فى الجيزة ، ولكن ما أن مات راعيه حتى زالت خطورته ولحق به العار وهدم منزله . وعندما ابتنى شيخ آخر - هو الشيخ حسن بن سالم الهوارى شيخ الصعايدة بالازهر والمتوفى عام ١٧٩٥ - لنفسه منزلا فى سوق القشاشين بالقرب من الجامع فانه اعتدى على الملكيات المجاورة ولم يتردد فى هدم مدرسة

السنانية كى يتخذ من انقاضها مواد لبناء **بيته** ، وعندما بحث حسن باشا عن « حوض » **ليجعل منه** نافورة فانه رنا الى الحـوض الموجــود **تحت تل** الكبش والذى كان يسمى « الحوض المرصود » **وأمر** باحضاره ولم يعدل عن ذلك الا لان وزن الحوض كان من الثقل بحيث استحال نقله ٠

ومن الواضح ان حوادث الاعتداءات على الملكيات العامة هذه لم تتوقف فى أية فترة ، ففى عام ١٨٠٠ اقترح المهندس لوبير Le Pére هدم كـل البيوت الموجودة فوق قنطرة الموسكى على يد فرقة **الحرس**، بل لقد كان من المعتاد ان يقوم سكان المدينة بفتح ثغرات اضافية فى الاسوار نفسـها لاســتعمالها الشخصى ، وقد كتب مينو فى ٢٥ يوليو ١٨٠٠ الى بليار Belliard قائد القاهـــرة يطلب اليه ان يتأكد من اغلاق هذه الفتحات ويؤكد عليــــه أن « احدا من سكان القاهرة لايجوز ان يكون له باب خاص به فى السور وتحت تصرفه » ٠ ان انشـاء المنازل والحوانيت فى ظهر المنشـئات العامة كان أمرا شائعا بالقاهـــرة ، وعندما تقرر عام ١٧٨٦ مثلا اعادة فتح باب مسجد السلطان حسن الذى ظل مغلقا منذ احداث عام ١١٤٩ هـ ( ٣٦ ـ ١٧٣٧ ) استوجب الامر هدم الحوانيت التى كانت قـــد بنيت هناك عند سـفح الباب وكـــذا « البناية »

الصغيرة والواطئة التى نشأت امامه ، ومع ذلك
فقد ظلت قائمة حول هذا المسجد الفخم تلك
« المنازل الضيقة » الصغيرة والشديدة الانخفاض
والتى كان يظن « انها مخصصة للحيوانات
الدنسة » كما وصفها جومار . وقد حدث نفس
الشيء بالنسبة لاغلب مساجد القاهرة الاخرى بل
وبالنسبة لاسوار المدينة التى قرر الفرنسيون ان
يخلصوها عام ١٨٠٠ من كل المبانى الطفيلية التى
تعوق الدفاع عنها .

ومما كان يعوق حركة المرور فى الشوارع
التجارية بالقاهرة تلك « المصاطب » الحجرية
والطينية التى كانت مبنية امام المحلات والتى كان
اصحاب هذه المحلات يجلسون عليها عادة ليصرفوا
شئونهم مع عملائهم ، فقد كان عرض المصطبة
يبلغ المتر بل المتر ونصف احيانا ، لذا فان الممر
الباقى من الشارع كان بالغ الضيق ، وعندما كان
الناس يضطرون أوقات الازمات ان يقضوا الليل
بالشوارع فانهم كانوا يستخدمونها كأسرة
للنوم ، وكان بامكانهم ان يستخدموها ايضا
كمتاريس ، لذا قرر الفرنسيون عام ١٨٠٠ ازالتها
من معظم الاسواق بحجة توسيع الشوارع بينما
كان القصد الحقيقى من وراء ذلك هو منع استخدامها
فى حالات التمرد ، لكن الوقت لم يسعفهم لتعميم

هذا الاجراء الذى سبب الضيق البالغ للتجار ، اذ كان عليهم ـ نتيجة لهذا ـ كما يذكر الجبرتى ان يظلوا داخل الدكاكين « مثل الفيران فى الشقوق » وفى الواقع فان هذه المصاطب التى طالما اثارت سخط الحكام المهتمين بشئون المرافق لم تتم ازالتها نهائيا الا على يد محمد على ٠

وفى مثل هذه الظروف ، فلن يكون من المدهش ان نجد شوارع القاهرة تتميز بضيقها الشديد وبعدم انتظام تخطيطها ، فيما عدا بعض الطرق الرئيسية الواسعة والمستقيمة نسبيا ٠ ويلاحظ جومار ان اتساع شوارع القاهرة كان يبلغ من ٥ الى ١٥ قدما ويصل احيانا الى ٢ أو ٢½ من الاقدام فقط ، ويؤكد دوجرو Doguereau ان بعضا من هذه الشوارع كانت لاتتسع لمرور رجلين متقابلين وعندما طلب محمد على مشورة العلماء عن العرض الذى يجب ان يكون عليه الشارع الجديد الذى اراد ان يشقه تجاه الموسكى افتوا بأنه ينبغى ان يكون بعرض يسمح بمرور جملين محملين وهذا مايقدم صورة واضحة عن « بساطة المفاهيم الحضرية » فى هذه الفترة ٠ وحيث ان منازل القاهرة كانت مرتفعة لحد ما وتتكون فى العادة من ثلاثة أو اربعة طوابق وحيث ان الشرفات ذات المشربيات كانت توشك ان تتلامس ، فلم تكن

ثمة حاجة لتغطية الشوارع بالسقوف ( سقيفة ) ، التى كانت تقام عادة لحماية الاسواق الكبرى من وهج الشمس • ومن جهة اخرى فان شوارع القاهرة ـ التى كانت تبنى بلا خطة وتتعرض لاعتداءات الخاصة كانت متعرجة لحد كبير ، ان المحاور الرئيسية للخطة المبدئية قد التهمها ذلك التوالد السرطانى للابنية الطفيلية ، كما ان الخطوط المتعرجة للشوارع تفضح ماتعرضت له تلك الشوارع الصغيره من انتهابات ، وقد نشأ كثير من الازقة نتيجة لذلك حين كانت تسد الشوارع ، كما يذكر وصف مصر • وعندما نتأمل خريطة القاهرة كما يقدمها وصف مصر فسنلاحظ أننا لوقمنا بتوصيل تلك الشرائح الصغيرة من الشوارع لظهر الخط الاصلى لهذه الشوارع والذى قطعته مثل هذه البنايات الى تلك الشرائح التى توضحها الخريطة • ويذكر تيفنو Thevenot انه « ليس هناك بالقاهرة شوارع بالمعنى المفهوم ، وانما هناك فقط مجموعة من الحوارى التى تشكل دوائر ومنعطفات مما يوضح جيدا ان كل شوارع القاهرة قد بنيت بدون أى تخطيط للمدينة فكل واحد كان يختار على هواه رقعة الارض التى سيبنى فوقها دون ان يعنيه ما ان كان بذلك يسد الشارع أو لا » •

وهكذا كانت حركة المرور فى شوارع القاهرة وبالذات فى احياء الاسواق ـ وهى أكثر حـــركة وزحاما ـ بالغة الصعوبة كما يذكر امبير Ampére عام ١٨٤٠ « فلا شىء يبدو أكثر حركة وزحاما من شوارع القاهرة ، ولك ان تتصور ثلاثين ألفا من من الناس يجرون او يخبون فـــوق حميرهم فى شوارع ضيقة ومتعرجة . انه ما ان تدخل هـــذه الدوامه حتى تصم اذنيك صرخات الحمارين والمارة ويكون عليك ان تأخذ حذرك من ان تدوس بقدميك أولئك السيدات والاطفال الجالسين فى هدوء تام وسط كل هذه الضجة كما عليك ان تأخذ حــذرك من أن تعرض جزءا من ملابسك أو حتى من جسمك لما قد يصطدم به فى اية لحظة . وكم يكون الغريب الذى يجد نفســه فى شـــوارع القاهرة لاول مرة ضحية لقلق مستمر » . وما ان كانت تحـــدث ظروف غير عادية لحد ما حتى يتضح عدم كفاية هذه الشبكة من الشـــوارع ، ففى اثنـــاء « الثورات » العديدة التى عرفتها القاهـــرة ايام العثمانيين كان ضيق هذه الشوارع يحول دون نقل المدافـــع الى مسرح العمليـــات . وفى عام ١٨١٤ عنـــدما قرر الباشا ان يمر موكب كبير لحد غير عادى احتفالا بزواج ابنته ، استوجب الامر ان يرسل جنودا من الشرطة قبل يومين من الاحتفال ، وبيدهم المقاييس

ليتأكدوا من امكان مرور العربات فى الطرق التى ينتظر ان يمر بها الموكب ولكى يزيلوا كل مايمكن ان يعوق حركة المرور ٠

## ٢ ـــ انجازات حضرية

عرفت القاهرة ايام الحكم العثمانى نشـــاطا معماريا مشرفا ، وان كان اى من تلك الانشاءات التى تمت فى تلك الفترة لايمكـــن له ان يقـــارن بالطبع بتلك البنايات الرائعة التى خلفها العهـد المملوكى سواء فيما يتصل برحابة الافق المعمارى أو فيمـا يختص بروعـــة التنفيذ ٠ لكـــن كثرة المنشئات ـ حتى على هذا المستوى المتواضـــع ـ نشهد بأن روح البناء فى هـــذا المجال لم تختف مطلقا مع الهزيمة ، بل ان الكثير من هذه المنشئات يكشف عن وعى واضح بالحاجات الحضرية ، ونحن اذا كنا سنعتبر عملية تشـــييد الحمامات ـ وهى عملية يتضح فيها الاهتمام بالصالح العام ـ مجرد شىء ثانوى بالقياس الى ما نرغب فيه من الحصول على منجزات حضرية أكثر جدوى ، فان تضـاعف عدد الاسبلة ( سبيل ) يشهد بلا شك عـلى تلك الرغبة فى العمل لصالح الجماعة وعـــلى الرغبـة فى سد احتياجات اجتماعية فى الحصول على مجد شخصى ٠ ان تلك الاسـبلة فى قاهـــرة اليوم ـ

وبعضها لايزال على روعته بينما تدهورت حالته ـ تنهض فى كل مكان شاهدا على تلك القرون الثلاثة من الحكم العثمانى ، كما ان الشئون الحضرية واحتياجاتها لم تكن غائبة تماما فى « الميزانية المعمارية » هذه : كاصلاح مشروع ترعة القلعة على يد على باشا ( ١٦٦٩ ) وحسن باشا عام ( ١٦٨٩ ) وعبدى باشا عام ( ١٧١٦ ) ومحمد باشا (١٧٢٢) وكترميم الجسر المسمى « القنطرة الجديدة » الواقع على الخليج على يد كتخدا قبل ( ١٧٢٦ ) وكذلك انشاء عبد الرحمن كتخدا ( المتوفى عام ١٧٧٦ ) لجسرين على الخليج هما بلا شك قنطرة الموسكى والقنطرة الجديدة ٠ ولكن هذه المشروعات الوثيقة الصلة بالصالح العام لاتمثل الا أقل الاشياء اذ نحن اخذنا فى اعتبارنا ان النصوص التاريخيه والاثار تضع ايدينا على مايقرب من ٤٠٠ بناء أو ترميم للمنشئات عامة فيما بين ١٥١٧ و ١٧٩٨ ٠ ولكن من جهة اخرى ، فان تلك المنشئات فى الفترة العثمانية بالقاهرة كانت ـ على وجه التقريب ـ مشروعات متفرقة ومنعزلة لا نرى فيها الا ـ لماما ـ دلالة على اهتمام بشئون التحضر أى على الرغبة فى التنظيم الحضرى بطريقة منطقية أو حتى على الاقل بطريقة معقولة ٠ لكن ثمة حالة ـ مع ذلك ـ تستحق وقفة خاصة تلك هى حال عبد الرحمن

كتخدا الذى يعتبر أكبر « بناء » فى القاهـــــرة العثمانية ٠ ان عدد المنشـــئات والترميمات التى تنسب اليه يقارب الاربعين ، ولو اننا حاولنا ان نوضح هذه الاعمال المعمارية على خريطة فسيبدو كما لو ان الامير قد غمر القاهرة بمنشئات بالغة التنوع دون ان يحاول رغم ذلك ان ينشىء وحـدة متكاملة مـــن البنايات ، بل وحتى دون أن يركز جهوده المعمارية المرموقة فى حى بذاته الشىء الذى كان يمكن ان يؤدى الى تغيير طراز هذا الحى ٠

اننا رغم ذلك لانعرف الا القليل النـــادر مـــن المشروعات ذات الصلة بشئون المرافق والبلديات ، ويعود الفضل فى انشاء اهم المشروعات التى هى من هذا النوع الى الامير المشهور رضوان بك الذى سيطر على الحياة السياسية فى مصر لمدة ربع قرن اى حتى وفاته عام ١٦٥٦ وان كنا للاسف لانعرف من هذا المشروع الذى تدلنا عليه مابقيت منـــه من بنايات الا القليل ٠ لقد بنى رضوان بك عام ١٦٥٠ ، كل الحى الواقع خارج باب زويله ـ ربما لانه كان قد شيد هناك قصرا لم تنل نوائب الدهر كلية من عظمته ٠ وعند طرف القصر مباشرة اقـام رضوان بك سوقا كاملة ـ « قصبة رضـوان » ـ وهى الان واحدة من أجمـل الاســـواق المغطـــاة المخصصـــة لايواء صـــناع وتجار الاحـــذية ـ

« القوافين » ــ وكانت القصبة بمثابة وقف تخصص دخوله للامور الدينيــة والخيرية • أما من حيث الغرض منها فقد كانت قبل كل شيء واحدة مــن المنشئات الحكومية ومع ذلك فان كونها رسميــة لم يمنع مطلقا الاهتمام بالتفاصيل ، بل لقد وصلت في مجموعها الى درجة من العظمة الحقيقية • وكان الحى جميعه يحمل بصمات رضوان بك الذى انشأ هناك أيضا زاويتين ( زاوية ) وسبيلا كان مقره شارع القربية •

واذا كانت معلوماتنا عن هذا المشروع ضئيلة فان مانعرفه عن الظروف التى انجز فيهــا الامير ابراهيم أغا ــ فى نفس الوقت تقريبا ــ مشروعا له صلة بشئون البلــديات ومــن نفس النوع فى المحجر • ان ما نعرفه عن هذا اقل بكثير • وربما كانت النواة هنا أيضــا ــ أى نواة تجــديد الحى بأكمله ــ هى وجود بيت لهذا الامير ابراهيم أغــا مستحفظان الذى قام بترميم المســجد المجــاور « مسجد اق سنقر » عــلى نمط تركى وخاصــة باستخدام المربعات الخزفية على نطاق واسع حتى اشتهر باسم « الجامع الازرق » وبنى هناك مقبرة له • وكل الشواهد تدل على ان الربع الذى شيد امام المسجد كان جزءا من مجمع كان يضــم كذلك العمارة السكنية الكبيرة التى كانت تقوم ابعــد

من ذلك قليلا جهة الشمال ، لكن هذه العمارة التى أنشئت عام ١٦٥١ على يد ابراهيم أغا كما تدل على ذلك الكتابة التى وجدت عليها قد اختفت للاسف منذ وقت قريب ، ولم يعد يبقى الان من هذا المجمع الذى كان – ان نحن حكمنا عليه بما تبقى من واجهة الربع – بالغ الروعة سوى بعض الانقاض .
ان الرغبة فى هذه « العملية العقارية » التى عادت بالخير على هذا الحى كان الهدف منها ولاريب هو الحصول على دخول مادية مضمونة لجامع آق سنقر عن طريق ايرادات الوقف ، لكن المنشئات التى أقامها محمد باشا فى ضواحى القلعة لاتعتبر مجهودات حضرية حقيقية ، لكننا نذكرها هنا بسبب عددها من جهة ومن جهة اخرى بسبب الاهتمام غير العادى لحد ما والذى أبداه هذا الحاكم تجاه هذه الامور كما سبق ان لمسناه ، فمن بين ماأنشأه جامع وحمام فى قراميدان ، وتكية للفقراء على نظام الخلوتية مزودة بمطبخ وبيت لاستقبال الفقراء ومدرسة للاطفال ومصاطب كبيرة الحجم لتخزين الملابس الخاصة بالاحتفالات ، ولاقامة احتفالات المحمل كما رمم حديقة الغورى وقاعة الغورى .

### ٣ – تحضر تلقائى :

اذا اهملنا التفاصيل واخذنا الامور فى مجموعها

فسوف نرى ان القاهرة العثمانية لم تكن مطلقا نهبا للفوضى فقد كان للظواهر الاقتصادية والاجتماعية اثرها التنظيمى على بنية القاهرة كنوع من « التنظيم الطبيعى » يؤدى الى أن تصلح المدينة نفسها بنفسها . واذا كان ما اكتشفناه من امثلة يدل على قلة الجهود التى اهتمت بالشئون الحضرية، فقد كان يحدث مع ذلك ان يجلب التطور الاقتصادى لحى ما الى هذا الحى تجديدا تلقائيا . وكمثال لتغير من هذا النوع نقول ان ازدهار حى الجمالية الواقع جنوب باب النصر عند نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر يعود ولاريب الى ازدياد واتساع النشاط الاقتصادى للتجار السوريين بالقاهرة والى تجارة البن والتوابل الرائجة . وقد كان هذا الازدهار احد الملامح البارزة فى التاريخ الحضرى للمدينة اثناء الحكم العثمانى . فقد ادى انشاء ذلك العدد الكبير من المنشئات الى تغيير مطرد فى بنية الحى . ومن بين هذه المنشئات على سبيل المثال : وكالة وسبيل اودا باشى ، سبيل وكتاب اودا باشى ، بوابة حارة المبيضة التى يرتبط انشاؤها على الارجح بتغيير فى نظام السكنى ، وكالة « ذو الفقار » كتخدا من طائفة المستحفظان والتى جعلتها ترميمات باسكال كوست تحتفظ بكامل روعتها ويعود ذلك كله الى

عام ١٦٧٣ . أما فى عام ١٦٩٤ فقد أنشىء : وكالة وسبيل عباس أغا ، وأنشئت فى تاريخ مقارب وكالة بازرعة ووكالة الكخيا التى ورد ذكرها فى كتاب وصف مصر والتى يمكن أن تعود اليها اليوم روعتها السابقة بقليل من الجهد ، وأنشىء فى عام ١٧٢٧ سبيل ، ووكالة الصابون ، وفى عام ١٧٤٤ أنشىء سبيل وكتاب عبد الرحمن وفى حوالى ١٧٤٥ أنشئت وكالة ومسقى وزاوية محسن رضوان .

وعندما تملى الحياة الاقتصادية ضرورة ذلك التقارب الجغرافى بين النشاطات المتكاملة أو المترابطة فانها بذلك تؤدى الى خلق تجمعات مترابطة الابنية تقدم القاهرة عليها الكثير من الامثلة ذات الدلالة ، ففى فترة كان باب زويلة فيها يمثل حد المدينة ، كان يوجد فى الجنوب الشرقى لهذا الباب سوق هامة للاغنام ( سوق الغنم ) تجاوره عدة سلخانات ، وعند الجنوب الغربى على نفس المسافة من باب زويلة وبركة الفيل والخليج كانت توجد المدابغ . وعندما كانت هذه النشاطات «الام» تغير مكانها بعد ذلك بسبب نمو المدينة فى هذا الاتجاه ، كانت الحرف « التابعة » التى نشأت فى هذه المناطق لارتباطها بوجود النشاطات السابقة تظل فى مكانها ، مثال ذلك تجار وصناع الجلود ( القوافين ) فى قصبة رضوان وصناع البرادع فى

سوق السروجية وتجار وصناع القرب الجلدية فى القربية • أما توطن بعض الحرف ـ جغـرافيا ـ بجوار القلعة مقر الحكومة وموطن سكنى عـدد عام من العسكريين والاوجـاقات فيمكن تفسـيره باسباب اجتماعية اكثر منها اقتصادية ، اذ كانت هذه الحرف تشبع احتياجات الطبقة الحاكمـة : كصنع وبيع الاسلحة فى سوق السلاح وصنع وبيع البارود فى البارودية بالقرب من الرميلة ، وسوق الخيل فى نفس ميدان الرميلة وصنع وبيع لوازم السفر ( صناع وتجار الخيام فى الخيامية ، وصناع البرادع في البرادعية فى الرميلة وصناع المهاميز فى الركبية ) •

ان البنية العامة للمدينـة تبدو كمـا لو كانت تسير وفق تنظيم منطقى هيأته تفاصـيل الحياة نفسها دون تدخل من جانب السلطات • ففى أحياء الوسط الواقعة بطول قصـبة رضـوان مخترقة القاهرة ( الفاطمية ) من الشمال الى الجنوب كانت تتجمع اغلب صناعات الترف واهم واكبر الانشطة التجارية والنقدية وحركة التوابل والبن ، وكانت تجارة المنسوجات تشغل قلب المدينة نفسها بين الحمزاوى والجامع الازهر وخان الخليلى والصاغة • وفى قلب المدينة ( الفاطمية ) كانت توجد ثلاثـة ارباع عدد الوكالات ( وكالة ) التى ورد ذكرها فى

قائمة وصف مصر ، وكذلك على وجه التقريب كل الخانات ( خان ) ، وفيما عـدا بعض صـناعات « الترف » وبعض الصناعات ذات الماضى العـريق فى هذه المنطقة كالاشياء النحاسـية التى كانت تحتل مكانة هامة فى الخريطـة الاقتصـادية للمدينة ـ فيما عدا هذا كانت كـل النشـاطات الحرفيـة مبعدة خارج القاهرة ( الفاطميـة ) ، أما تلك النشاطات « الصناعية » التى يمكنها ان تسبب الضيق للسكان فقد بعدت بوضـوح الى تخوم المدينة ، مثال ذلك مصانع الزيوت والفحامات والجيارات والجباسـات • وان اية دراسـة مقارنة تقارن بين قاهرة المقريزى وقاهرة الجبرتى سـوف تبين بوضوح كيف ان تدهور حـرف معينة يترجم جغرافيا بتباعدها المستمر عـن مركز التكدس الاقتصادى • ومن جهة اخرى فان ايـة دراسة عن التبدلات التى تمت فى قلب القاهرة ( الفاطمية ) منذ نشأتها سوف تكشف بوضوح عن التغيرات الاساسية فى الاهمية النسـبية لمختلف الحرف •

ويرتبط توزيع الاحياء السـكنية بتفـاوت اجتماعى صارم ، فأبناء « البورجوازية » من شيوخ وتجار ميسورين كانوا يفضلون سكنى القـاهرة ( الفاطمية ) على مشارف الاحياء التجارية وبجوار

الجامع الازهر ، وكذلك بركة الازبكية التى كانت فى ذلك الوقت مركزا مفضلا للاصطياف شأنها فى ذلك شأن شواطىء الخليج ٠ وكان ابناء الطبقة الحاكمة من ضباط الاوجاقات والبكوات قد بدأوا ينقلون مقر اقامتهم من حول القلعة الى ضواحى بركة الفيل وفى النهاية الى الاحياء الراقية فيما وراء الخليج مع تفضيل متزايد لضواحى بركة الازبكية التى كانت فى الطريق لكى تصبح حوالى ١٧٩٨ الحى الارستقراطى المفضل ٠ وكانت الاحياء الشعبية تنتشر فى المناطق المتاخمة غرب وجنوب وشرق وشمال المدينة اى فى المناطق التى كانت فيها النشاطات التجارية المختلفة اقل تطوار والتى كانت تستقر فيها تجارة الجملة للمنتجات الاولية المرتبطة بالريف والتى تحتاج لخلاء فسيح ، وكذا المهن او الحرف التى تحول دون سكنى الميسورين ٠

وكما كان للبنية الحضرية للقاهرة طابع منطقى اذا نظرنا اليها فى مجموعها فان التغيرات التى سجلت داخل هذا التفاعل التلقائى الناتج من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ترتبط بنظام منطقى محدد بالرغم من اننا نجهل الظروف الصحيحة التى تحققت فيها هذه التغييرات ، كما ان صمت المصادر التاريخية عن هذا الموضوع

علامة واضحة على قلة اهتمام الناس فى تلك الايام بالشئون الحضرية ، وابلغ الدلالة على ذلك هو حال المدابغ التى نشأت اول الامر فى منطقة حوارى تقع خارج القاهرة ( الفاطمية ) جنوب غرب باب زويلة وغير بعيد عن بركة الفيل ، وفى تاريخ لانعرفه على وجه الدقة ـ والذى يمكن تحديده على وجه التقريب فى حوالى منتصف القرن السابع عشر ـ حتم نمو المدينة المتزايد نحو الجنوب مع الزيادة المطردة فى عدد « الكبار » الذين بدأوا يتوطنون حول بركة الفيل ـ حتم ذلك كله انتقال الاعمال ـ وخاصة المقلقة للراحة منها ـ من هناك ، واتجهت حركة الدباغين تجاه الطرف الغربى للمدينة بالقرب من باب اللوق فى مكان يقدم فوائد متعددة : وجود السلخانات الكبيرة هناك ، وسهولة المواصلات مع بولاق مركز تجارة الجلود ، القرب من المياه حيث بركة السقايين وخليج المغربى والنيل ٠٠ وقد تم هذا الانتقال بلا شك على شكل موجات هجرة من الدباغين وليس نتيجة لوعى من سلطات « البلديات » ، لكن المؤرخين يلزمون الصمت التام عن مثل هذا الانتقال الذى يشكل ولا ريب حدثا هاما فى التاريخ الحضرى للقاهرة ٠

وفى مقابل ذلك فان انتقـال صـناع وتجـار البارود ( البارودية ) قد تم نتيجة لاحداث مدوية سجلها المؤرخـون ، ففى السـابع عشر كـان ( البارودية ) يقيمون غير بعيد من باب زويلـة وجامع المؤيد فى حى الباسطية وهى المنطقة التى كانت تقع على حدود المدينة لكنها الان تقـع فى القلب منها • ومن الواضح ان توطن مهنة كهذه ـ ـ مع ما لها من اخطار واضحة ـ فى منطقـة مزدحمة امر غير منطقى لحد بعيد • وفى عام ١٦٧١ شب حريق فى محلات سوق البارود تسبب فى خسائر فادحة وفى موت العديد من الضحايا كان من بينهم ابنة يوسف بك قائمقام ، وهنا امـر الباشا بنقل هذا السوق الى المحمـودية بجوار الرميلة وهى حى اقل ازدحاما وقريب من القلعة ، ولكن ما ان اعيد بناء محلات الباسطية حتى عاد تجار البارود ليقيموا فيها مما ادى لراحة سكان الرميلة الذين لم يكن فى مجاورة اولئك التجار لهم ما يمكن ان يبعث على الطمأنينة • ولكن بعد ذلك بسنوات ، فى عام ١٧٠٣ وبعد حريق ثان فى البارودية تقرر نقل تجار وصـناع البارود ـ نهائيا هذه المرة ـ الى الرميلة ولكنا لانعرف اية سلطة على وجه التحديد هى التى اتخـذت قرار الابعاد هذه المرة •

# خاتمـــة

ان ما يمكن ان نخرج به من دراسة المشـاكل الحضرية ـ عـلى وجـه الخصـوص ـ بالقـاهرة العثمانية هو قلة الاهتمام الذى كان يوليه حكام المدينة ومديرو البلديات بها بصفة عامة الا عندما يصل الامر حدا يهدد باضطراب النظـام • وفى الواقع ، فمن هذه الزاوية نفسـها ـ فى غالب الاحيان وعن طريق القمع عـلى الدوام ـ كـان من الواضح ان السلطات العثمانية لاتمس شـئون البلديات الا عندما يتهدد القاهرة خطر ملموس تفجر نتيجة لاهمال طويل وليس بدافع الاهتمام الحقيقى والجاد بهذه الامور •

ان هذا الخواء التام ، بالاضافة الى الغيبة التامة لاى تنظيم « محسوس » للبلـديات يفسران تلك

الفوضى التى تتضح فى تفاصيل مدينة القاهرة وعلى وجه الخصـوص فى تفتت شـبكة الطـرق والشوارع ، ومع نقص الاهتمام هـذا او بالأحرى فى هذا العجز البادى من السلطات السياسية فان اى تنظيم شعبى لم يكن فى حال تمكنه من القيام بهذا الدور فى شئون البلـديات : لا الطوائف الحرفية التى كان نشاطها المهنى يخضع لحد مـا لاشراف الحكام ولا الاحياء التى لم تكن لحياتهـا سمات الحياة العامة الحقة . لقد كانت الطوائف والاحياء ( الحارات ) تقوم فقط بدور الوسيط بين السلطة والرعية .

ومع ذلك ، فاذا نظرنا للامور فى مجموعها ، فان القاهرة تكشف عن نفسها كمدينة ذات بنية ملتحمة نسبيا . لقد فقـدت بصـفة عـامة ذلك التنظيم الصارم الذى كانت عليه عند نشـأتها ، لكن الامثلة على تدخل متحرر وواع من هذا النوع من جانب السلطات كانت تقل شيئا فشيئا اثناء الحكم العثمانى ، ومع ذلك فثمة توازن معين فى شئون البلديات كان يتحقق تدريجيا مع هذا بتأثير التفاعلات الذاتية للقوى المـادية والبشرية التى كانت تمارس تلقائيا فعلها المؤثر فى هذا المجال.

# هـــوامش :

(١) كتبت أسماء الاحياء حسبما ورد بقائمة وصف مصر ، أما وثائق الارشيف المشار اليها فهى وثائق المحكمة الشرعية وهى مودعة حاليا بمحكمة الاحوال الشخصية فى شـــبرا وكذلك وثائق دار المحفوظات بالقلعة .

(٢) على سبيل المثال الــ ١٠ بارات التى دفعت لبـــواب حارة درب الاحمر من تركة محمد العطار (وثائق المحكمـــة الشرعية) .

(٣) ثمة أمثلة كثيرة نذكر منها منزل الست وسيلة ومنزل الشبشيرى وزاوية عبد الرحمن كتخدا وبيت على كتخدا وقد أدى تراكم الاتربة أمام أبوابها وحتى بداية القـــوس الذى يعلوها اى سدها تماما .

(٤) ويذكر الجبرتى بهذا الخصوص بيتا من الشـــعر بالغ الخبث :

ان الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم

فى مصرنا ، بين حمـــار وخمـــــار

( جـ ٣ ــ ص ٤٤ )

# السقايين فى القاهرة

على مدار القرون العشرة التى انقضت منذ انشاء القاهرة ، وحياة المدينة رهن بالنيل ، اذ كانت تعتمد عليه كلية سواء فى الحصول على احتياجاتها المادية (كالمياه النقية والمواد الغذائية)، او فى مزاولة نشاطها الاقتصادى • وقد ظلت القاهرة تقاسى ـ وأحيانا بشدة ـ حتى القرن التاسع عشر ، من نتائج التناقض القائم بين ضرورة تكدس سكانها حول النيل ، وبين الحاجة للأمن التى تؤدى بالضرورة الى البحث عن مكان فى منأى عن المخاطر الناجمة عن الفيضانات ، او عن حوادث خروج النهر عن مجراه مع ضرورة توفير احتياجات سكانها •

وتاريخ المدينة فى العصور الوسطى شاهد على هذا الصراع الملموس بين الرغبة فى الاقتراب من النهر ، وبين الانجذاب نحو الهضبة • ولم يتيسر للمدينة ان تخرج من هذه المعضلة الا فى القرن التاسع عشر ، بعد ان امكن تنظيم الفيضانات واصلاح الطرق البرية •

ولم يكن يتهيأ لسكان القاهرة من مصدر للمياه سوى النيل ، وفى المنطقة المحصورة بين شاطىء النيل وجبل المقطم • حيث استقرت المدينة واخذت تنمو وتتطور مع بداية القرن العاشر ، كان بامكان الناس ان يحصلوا على المياه الجوفية ، لكن هذه المياه كانت تعتمد اساسا على النيل ، كما يبين ذلك تذبذب مستوى منسوبها تبعا لمستوى منسوب النيل ، بالاضافة الى أن هذه المياه كانت قليلة الاهمية من الناحية الغذائية بسبب مذاقها المالح ، فلم تكن تناسب الا الغسيل ورش الحدائق ، وسقاية الماشية •

ولذلك ، فان الآبار المنتشرة فى مختلف احياء القاهرة وفى القلعة ( خصوصا بئر يوسف الشهيرة ) وفى المناطق القريبة من المدينة ، لم تكن بقادرة الا على تقديم كمية محدودة من المياه

تتضح قيمتها الحقيقية وقت الازمات ، عندما لايمكن الوصول للنهر لسبب او لآخر . واصرار الشيخ حسن الحجازى على ان يعيد ويكرر أنه اضطر لشرب المياه المالحة فى عام ١٧١١ - تلك السنة المشئومة التى احتدم فيها الصراع بين طائفتى عزبان والانكشارية - هذا الاصرار يبين بوضوح انه كان لابد من البحث عن مخرج .

احاطوا بنا وقد منعونا
استقاء من نيلنا او نصوب
فعطشنا ، وماء ملح شربنا
ورمونا بكل ما كان يرعب

وكذلك :

فأحرقونا وأحصرونا
واعطشونا بالمنع قسرا
عن نيلنا ثم قد شربنا
ملحا فزاد الكبود حرا

ولهذا كله ، فليس من الغريب ان يكون للنيل ولمياهه فى نظر سكان القاهرة صفة شبه دينية ، فثمة أعياد موروثة من عصر ما قبل الاسلام ، تبين الرابطة الوثيقة بين حياة سكان القاهرة وبين نيلها . والترحيب والسرور بقدوم الفيضان لا حد

لهما ، لانه امارة ازدهار ، وعلى العكس من ذلك فانخفاضه لن يجلب للمدينة ولمصر كلها سوى نذر الجفاف ومصائب المجاعات ، فمياه النيل اذن تمثل الحياة نفسها . وكان المؤرخ المصرى ابن أبى السرور - ككثير ممن سبقوه يعتبر ان النيل هو اعجوبة مصر الاساسية ، كما كان يؤكد أن مياه النيل - لانها فريدة فى نوعها - تمنح القوة لشاربيها .

ومما لاجدال فيه ، فان لمياه النيل ، التى تحدث عنها كل المسافرين الاوربيين تقريبا ، ميزات غذائية اكدتها الدراسات العلمية . ولا يعنى لونها اى ضرر ، واذا كانت مياه الفيضان فى الصيف تحوى الكثير من البكتريا ، فالخطورة ليست فى طميه . وقد ابدى سكان القاهرة على الدوام الكثير من ضروب الحذق فى تنقية هذه المياه ، باللجوء الى طرق متفاوته الفاعلية ، وكان التقويم القبطى يوصى بغلى المياه ابتداء من ١٥ يونية أما المؤلفون العرب ، والرحالة الاوربيون فقد حبذوا استخدام المصافى ، كما اوصوا بعدد لا بأس به من المواد التى تجعل المياه صالحة ، بالاضافة الى انها تحسن من مذاقها عند خلطها بها، كالطباشير والخل وكذلك النوى الذى يقال ان من خاصيته ان ينقى المياه العكرة .

ولم يكن بامكان مؤسس الفسطاط فى القرن السابع ، ولا بامكان مؤسس القاهرة فى القرن العاشر ان يتجاهلا الفوائد التى ستعود عليهما من الاقتراب من النيل ، ولذا فقد بنيت المدينتان على الشاطىء نفسه . ومنذ ذلك الحين ، كان على حكام القاهرة وسكانها دوما ان يجابهوا مشكله جفاف شاطىء النهر الايمن ونقص المياه عنده نتيجة للتراجع المستمر للنهر نحو الغرب فى العصور الوسطى . وعندما انشأ جوهر القاهرة فى عام ٩٦٩ ، كان حدها الغربى مكان الخليج المصرى ، من باب الشعرية الى باب الفرج وكان النيل فى هذه الفترة يجرى غير بعيد من اسوارها ، وكان مجراه يشغل على وجه التقريب مناطق بركة الازبكية ، وبركة الغرائين وقناطر السباع . وفى خلال القرون التى تلت ذلك ظلت حركة النهر ـ التى بدأت منذ وفود العرب واستقرارهم ـ مستمرة متميزة بظاهرتين اساسيتين . فمن جهة ،شوهد تكوين عدة جزر نتيجة لترسب الطمى وتكدسه . وهذه الجزر لم تكن فى البداية الا كتلا بسيطة من الرمال لاتظهر الا وقت انخفاض منسوب المياه ، ثم اخذت تتقوى وتثبت حتى اصبحت جزرا حقيقية متفاوته الثبات ( ففى خلال القرن الثامن عشر وكذلك التاسع

عشر لوحظ ظهور بعض الجـــزر ، ثم لوحظ انتقالها ثم اختفاؤها تماما ) . ومن جهة أخرى، فبينما كان الشـــاطىء الايسر للنيـــل يتعـــرض للتآكل ، فان الشاطىء الايمن كان يمتـــد شـــيئا فشيئا بسبب تكدس كتل الطمى التى كان النيل يرسبها كل عام . وفى بادىء الامر ، كانت هذه الاراضى الجديدة تبقى غير متماسكة لمدة قصيرة من العام ، ثم لاتلبث ان تتماسك حتى يصـــبح فى الامكان استغلالها فى اغراض الزراعة والبنـــاء . وقد كان لهذا التكدس المستمر للطمى على الشاطىء الايمن ، والضعف المتواصل لفرع النيل الايسر ، بين مصر القديمة والروضة ـ اشد النتائج خطورة بالنسبة للقاهرة .

واذا اتخذنا من الفتح العربى نقطة بداية ، فاننا نلحظ ان ترسب الرمال كان ـ حتى منتصـــف القرن العاشر ـ بطيئا لحد ما ، فيما عدا منطقـــة الفسطاط ، التى كان فرعها فى هذه الفترة قد سد بالفعل الرمال ، وسرعان ما اصبح ميناء الفسطاط نفسه غير ذى نفع . ومع استمرار المشكلة ، انتهى الامر بفرع الروضة ان اقترب من حالة الجفاف التام فى القرن الثامن عشر . وفى اقصى القاهرة كـــان تراجع النيل نحو الغرب شديد الوضوح ففى هذه

المنطقة كان ترسب الطمى نشيطا بدرجة غير عادية، فى القرون الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر، واصبحت المقس ، وهى التى كانت لاتزال واقعة على شاطىء النيـــل فترة حكم الايوبيين ـ ممتلئة تماما بالرمال ولم تعد تلعب دورها كميناء . وعند الموقع الحالى لبولاق ، تكونت جزيرة وسط النيـل وفى عام ١٤٠٠ كانت هذه الجزيرة متصـــــلة بالشاطىء الايمن . وما لبث شاطىء النيل بعد عدة قرون ان انتقل لمسافة تقرب من كيلو مترين نحو الغرب .

وفى بعض الاحيـان ، كـــان هـــذا الترسب التدريجى المتواصل للطمى يحدث بسرعة ملحوظة كافية لازعاج السلطات الحاكمة ، التى كان يقلقها أمر امداد المدينة بالمياه الصـــالحة ، والذى كان تقهقر النيل يجعل منه مهمة تتزايد صعوبتها .

وفى عام ٩٤٧ ـ ٩٤٨ هجر المجرى شاطىء مصر القديمة ، ووجب على الناس والماشية ان يذهبـوا للتـزود بالميـاه من المجـرى الواقـع بين الجيـزة والروضة ولم تؤد الاعمال التى نفذت فى ذلك الحين لنتائج يمكن لها ان تســـتمر ، ففى عامى ١١٩٩ و ١٢٠٣ وجد ســكان القـــاهرة أنفسهم من جديد مضطرين للجوء الى فرع الجيزة ، وفى عام

١٢٣٠ ـ ١٢٣١ شعر الملك الكامل بالقلق عندما لاحظ أن المياه لم تعد تصل تقريبا من جهة الروضة ـ مصر القديمة حتى فى وقت الفيضان ، لذلك فقد امر باعادة حفر الفرع . وقد ساهم الناس جميعا فى هذا العمل المتصل بصالح الجميع ، وتم هذا العمل بعد ثلاثة اشهر . لكن ابتداء من عهد خليفة الملك الصالح ١٢٣٨ ـ ١٢٤٩ استوجب الامر ان تستمر هذه الاعمال لاعادة المجرى الى الشاطىء الشرقى . وفى بداية القرن الرابع عشر كانت فتحة الخليج الناصرى ، الذى كان يتفرع من النيل على بعد ٥٠٠ متر شمال الفتحه ومنذ فترة المقريزى حتى فترة الجبرتى لم يكن الوضع يكاد يتغير : فالشاطىء الشرقى للنيل ابتعد بما يزيد عن كيلو مترين غربى الخليج ، وبكيلو متر واحد من حدود المدينة فى القرن الثامن عشر ( باب الحديد . باب اللوق . باب الناصرية ) .

ولم يعد الخليج المصرى الذى كان يخترق وسط المدينة ، بقادر على ان يلعب دوره فى تزويد المدينة بالمياه الا لفترة محددة جدا فى السنة ، هى الثلاثة اشهر التى تلى الفيضان بعد قطع السد الطينى الذى كان يغلق فتحته تجاه الروضة . كما ان هذه المياه ( المنزوحة من « مستنقعات نتنة » كانت

شديدة ( السوء ) حسبما يقول Thevenot
الذى كان يقيم فى القاهرة حوالى عام ١٦٦٠ ٠
ومنذ شهر اكتوبر كان الخليج يكف عن التدفق ،
وتنخفض المياه فيه ٠ فيؤمر بالنداء فى الشوارع
بأن على « السقايين » ان يكفوا عن اخذ المياه منه
بسبب القاذورات التى تكدست فيه ٠ بل لقد
كانت تأتى سنوات ، يكون الفيضان فيها ضعيفا
جدا لدرجة يكون معها الخليج شبه جاف فى
منتصف الصيف ، وان كان ذلك لم يكن ليمنع
السقايين من أن يأخذوا منه مياها آسنة ملوثة
لم يكن القاهريون يجدون بدا من الرضى بها .

ولقد كان من الممكن علاج الامر ببناء مشروعات
هندسية يمكنها ان تجلب مياه النيل الى وسط
المدينة ٠ لكن غالبية الاعمال التى نفذت من هذا
النوع ، كان القصد منها خدمة الحكام والملوك فى
الاعتبار الاول ، وكانت فائدتها لاتعود على الشعب
الا بطريقة غير مباشرة ٠ مثال ذلك مشروع المجرى
الكبير الذى بنى على وجه التقريب منذ العهد
الطولونى لجلب مياه النيل الى القلعة ، ابتداء من
مصر القديمة بالقرب من فم الخليج حتى باب
القرافة ، ومثل هذه المنشئات التى أقيمت لصالح
اصحاب السلطة السياسية المقيمين بالقلعة ،

عانت من اهمال الحكام اثناء الحكم العثمانى وخاصة فى اواخر القرن الثامن عشر . وكان على محمد على ان يعمل منذ بداية عهده على ترميم مجرى القلعة ـ الذى ظل مهملا منذ عدد من السنين ـ لكى يجلب بهذه الطريقة مياها رخيصة السعر ، كان سكان الحى يفتقدونها منذ فترة طويلة .

اذن ، فقد كان الامر يستوجب على هذه الكتلة من السكان التى يتراوح عددها بين مائتى ألف وثلاثمائة ألف ان تذهب الى النيل نفسه لتتزود بالمياه ، اللهم الا اذاكان ثمة تنظيم قوى يستطيع ان يهيىء لها حاجتها من هذه المياه .

***

كانت احتياجات القاهرة للمياه كثيرة متعددة . فأولا : هناك الحاجة للمياه النقية اللازمة لاستهلاك سكان المدن سواء داخل بيوتهم او فى الشوارع . وقد اشار المقريزى وغيره كثير من الرحالة الاوروبيين ـ الى ان شوارع القاهرة كانت ترش يوميا بالمياه حرصا على نظافتها ، وخصوصا لانعاش جو الاسواق وتفادى الاتربة والغبار . وقد كان هناك ـ قبل فترة المقريزى على الاقل ـ امر من الحكام يلزم اصحاب الحوانيت فى الشارع التجارى الرئيسى فى القاهرة بأن يكون لديهم وتحت

تصرفهم دائما جرة مملوءة بالمياه ، يلجأ اليها كنجدة أولية ضد أى حريق يمكن أن يشب . وهناك اخيرا الحمامات العامة الكثيرة فى القاهرة ( حوالى المائة عام ١٨٠٠ ) والتى تستهلك مقادير كبيرة من المياه بالتأكيد . ولابد ان حركة الذهاب والمجىء التى لاتهدأ لجالبى المياه من النيل ( السقايين ) . لابد ان هذه الحركة كانت تثير دهشة الرحالة الاوربيين وتؤدى بهم لتقديرات غير دقيقة ، بل ومبالغ فيها دائما — عن عدد هؤلاء السقايين . كما ان الارقام التى اوردها ابن بطوطة ( ١٢ ألفا يستخدمون الجمال و ٣٠ ألفا يستخدمون البغال ) — هذه الارقام هى الاخرى محل مناقشة . وربما كان الاقرب الى الصواب ان نكتفى بما ذكره de Regny عام ١٨٧٠ ، اذ قدر عدد السقايين ب ٣٫٨٧٦ .

وفى مقابل ذلك ، فان الذى لاجدال فيه — والذى يهمنا اكثر بطبيعة الحال — هو أن مهنة السقاء — منذ فترة قديمة جدا — كانت منظمة حسب قواعد دقيقة ، كما تشهد بذلك الدفاتر السنوية التى حررتها « الحسبة » ( مراقبة الاسواق ) . ودفاتر الحسبة المحررة فيما بين القرن الثانى عشر والرابع عشر تعطى فكرة عن

العناية الفائقة التى كان على المحتسب ومساعديه ان يولوا بها تلك المهنة التى تتأثر بها الصحة العامة تأثرا مباشرا . فقد كان ينبغى على السقايين ان ينزلوا النهر بعيدا عن الشاطىء وعن الاماكن الملوثة لمجاورتها المراحيض او الحمامات ومساقى الحيوانات . كما كان ممنوعا عليهم - مع التهديد بالعقوبات الصارمة - ان يخلطوا مياه الابار بمياه النيل . وكذلك كان عليهم ان يجعلوا قربهم وجرارهم فى حالة نظافة تامة ، وان يتجنبوا استخدام القرب الجديدة لنقل مياه الشرب لانها تجعل طعمها غير مستساغ . وكان من واجب المحتسب ان يلاحظ الاسواق ، ولكى لايضايقوا حركة المرور ، فقد كان يطلب اليهم مثلا ان يعلقوا أجراسا صغيرة فى رقاب حيواناتهم لينبهوا الناس باقترابهم ، كما كان ينبغى عليهم ان يغطوا قربهم بسعف النخيل حرصا على ملابس المارة من الطين . بل لقد شمل التنظيم امر ملابسهم ، فقد تحتم ان تكون سراويل قصيرة ، زرقاء اللون ، مفصلة بطريقة لاتخدش الحياء .

وربما كانت الكثرة العددية لطائفة السقايين هى التى ادت سريعا الى انقسام فى هذه الهيئة المهنية يتجاوب مع التخصص الفنى للسقايين . فابن الاخوة ( فى بداية القرن الرابع عشر ) قد

ميز بين السقايين الذين يبيعون المياه فى قرب من الجلد ( اصحاب الروايا والقرب ) الذين سبق ان ذكرهم الشيرازى فى القرن الثانى عشر ، وبين أولئك الذين يبيعــون ميــاه الشرب فى أكواب ( سقايين الكيزان ) ومهما يكن الامر ، فان هــذا التميز داخل طائفة السقايين ، قد تحقق واقعيــا فى القرن الثامن عشر ٠ وفى قائمة الطوائف التى نشرها ايفليا افندى فى اسطنبول عام ١٦٣٨ ذكر الباحث فيما يختص بالسقايين طائفتين متميزين، « سقايين المدن اصحاب الخيول » ( رقم ٨٠ ) ـ ويصل عددهم الى ١٫٤٠٠ وكانوا ينتســبون الى سلمان الكوفى ٠ والسقايين المتجولين ( رقم ٨١ )

وهم الذين يحملون قربهم على ظهورهم ويبلــغ عددهم ٨٠٠٠ وكان الشيخ الذى ينتسبون اليـه هو ( ابو الكوثر ) وقد اقر كتاب الفتوة هــذا التقسـيم فيمـا يختص بمصر فى نهـاية القـرن السـابع عشر . وأشار الى طائفة السقايين (رقم٤) الذين كانوا ينتسبون ـ كما فى قائمة ايفليــا افندى ـ الى سليمان الكوفى ، كطائفة منفصــلة عن سقايين القرب ( السـقايين حاملين القرب ) والذين كانوا ينتسبون الى محمد بن عبد الله وهى تذكر تحت رقم ٤٦ فى مخطوط ١٣٧٥ وتحت رقم ٥٨ فى مخطوط ١٣٧٧ وشهادة الرحالة الانجليزى

موريسون تلقى بصيصا من الضوء على حقيقة نشاط نظام الطوائف عند السقايين فى القرن السابع عشر . وقد ذكر موريسون — وهو الذى عاش فى القاهرة فى عام ١٦٩٧ — ١٦٩٨ أن ثمة اختبارا مبدئيا كان يعقد عند التقدم للقبول فى هذه الطائفة المهنية . فلكى يقبل المتقدم ، عليه أن يستطيع حمل قربة او كيس ملىء بالرمل ، يزن ٦٧ رطلا ، لمدة ثلاثة ايام وثلاث ليالى ، دون ان يسمح له بالاستناد او الاتكاء او الاستراحة او النوم طيلة هذا الوقت وتفاصيل هذا الاختبار قد تكون محل مناقشة ، ولكن مما جدال فيه ان تقاليد مهنية معينة كانت قد تأصلت عند السقايين حتى ان مارتن Germain Martin تمكن من ان يجد آثارا لها فى بداية القرن العشرين .

وفى عصر الجبرتى والحملة الفرنسية ـ اى فى الفترة التى انهارت فيها السيطرة العثمانية على مصر كان النظام الطائفى للسقايين فى القاهرة قد بلغ غاية تطوره ، والاتجاه الى تفتيت وتقسيم هذه الطوائف المتخصصة ، والذى لوحظ هنا ، والذى ظهر أيضا فى طوائف مهنية أخرى ، قد يدل على محاولات لقبول نوع من التميز فى العمل أشد وضوحا ، يبدو كقاعدة فى القاهرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

وقائمة الطوائف المهنية التى نشرها علماء الجيش الفرنسى فى القاهرة عام ١٨٠١ ذكرت مالا يقل عن ثمانى طوائف للسقايين . وهذه الزيادة فى عدد الطوائف ترتبط من جهة بالحاجة الى التنظيم الفنى للعمل ، ومن جهة اخرى بتوطن السقايين فى احياء القاهرة . ومثل هذا التعدد — فى الحقيقة — لا مفر منه ، فى حالة طائفة مهنية كبيرة العدد لهذه الدرجة وتغطى منطقة جغرافية شديدة الاتساع .

كانت هناك خمس طوائف تقتسم السقايين الذين يعبون مياههم من النيل ، لينقلوه اما على ظهور الجمال ( طائفة فى باب اللوق ) واما على ظهور الحمير ( اربع طوائف فى احياء باب البحر ، باب اللوق : حارة السقايين ، قناطر السباع ) . وتوطن هذه الطوائف فى القسم الغربى من المدينة يرتبط بوضوح بالحرص على الاقتراب — ما امكن — من مصدر المياه ، الذى ادت حوادث تغيير النهر لمجراه — التى تكررت منذ انشاء القاهرة — الى ابعاده عن المدينة بطريقة مزعجة . وعند باب اللوق كانت طائفة السقايين اصحاب الجمال ، تعمل بالضبط وسط المدينة عند بداية شارع تحت الربع الكبير . اما الاربع طوائف الاخرى للسقايين أصحاب الحمير ، فان توزعها من الشمال الى الجنوب

قد سمح لكل منها ان تغطى قطاعا من قطـــاعات القاهرة .

وهكذا كان تجوال السقايين لمدة عدة قرون فى منطقة الحدائق الواقعة بين القاهرة والنيــل حتى الشاطىء الذى يأخذون منه مياههم ، وبين بولاق ومصر القديمــة . كـانوا يتجـولون ســاحبين حيواناتهم المحملة بقرب تفوق طاقتهـــا : قرب واسعة من جلد الجاموس ( روية ) على ظهـــور الجمال ، أو قربمن جلد الماعز فوق ظهـــور الحمير . لم يتغير فى نشاطهم شىء منـــذ فترة المقريزى حين وصف السهل الخالى على اليمين عند الخروج من باب زويلة مع الخليج والطريق المؤدى الى مورد السقايين لم يتغير شىء من هذه الفترة حتى نهاية القرن الثامن عشر ويحـــدد Niebuhr فى هذه المنطقة نفس الطريق الذى كان يسلكه القاهريون عند ذهابهم لجلب المياه من النيل على ظهور جمالهم .

وقد تأثرت طبوغرافية القاهرة ـــ فى هذا الحى بالتحديد تأثرا شـــديدا بســـبب ظهـور طائفـة السقايين فحسبما جاء فى كتاب « وصف مصر » سمى المكان الذى كانوا يسكنونه ( كفر الشـــيخ ريحان ) باسم حارة السقايين ـ هذا الاسم الذى بقى حتى نهاية القرن التاسع عشر . اما عن البركة المجاورة فلا يمكن الجزم بصفة قاطعة باسمها .

فنحن نتردد طويلا بين تسميتها بركة الناصرية أو بركة السقايين كما تشير اليها خريطة « وصف مصر » وكان الخليج المصرى يغنى عن النيل خلال العدة اشهر التى تلى الفيضان ، حيث انه أقرب الى المدينة مما يمكن السقايين القيام بجولات اكثر مما لو كان يتجه الى النيل نفسه فى نفس المدة .
وممارسة عملية نقل المياه من الخليج تعود لزمن قديم ، وسبق ان لاحظنا انها استمرت ، حتى عندما ادى انسداد فتحة الخليج الى تقصير المدة التى تستغل فيها الترعة قصرا ملحوظا وبرغم كل الاوامر الرسمية ، فان السقايين لم يكونوا ليترددوا فى العب منه حتى عندما تصبح مياهه ابعد ما تكون عن الاتفاق مع كل الشروط الصحية .

وبعد حصول السقايين على تموينهم من المياه ، كانوا يتوجهون الى عملائهم مع قربهم ، التى أصبحت فى القرن التاسع عشر - بفعل التقدم - مجرد براميل يجرها حصان او حمار . وعندما كان السقا يصل الى مقصده ، كان يصب المياه فى خزان أو زير عميله . ولكى يحصل السقا ثمن خدماته كان يلجأ الى عدة وسائل تختلف فى دقتها . فقد كان يكتفى احيانا بأن يسجل على باب

( المشترك ) خطوطا بعدد القرب التى احضرها له ·
واحيانا اخرى كان يستخدم عقـــودا من الخرز
الازرق ، يســـحب منها خـــرزة عن كل قـــربة
يحضرها له . وعندما تنتهى كل خرزات العقـــد
كان السقا يسوى حسابه مع عميله ·

ولم تكن كل كميات الميـــاه المأخوذة من النيل
تباع مباشرة الى سكان القاهرة · فجزء كبير منها
كان يوضع فى خزانات ( سبل ) المدينة ، حيث
يستطيع الفقراء الذين لا يمكنهم شراء الميـاه من
السقايين أن يحصلوا منها على حاجتهم بأنفسهم ،
وقائمة الجيش الفرنسى تذكر طائفة « لسقايين »
الحى المســمى بباب الزويلى ، ونحن نجهل ما ان
كان ثمة طوائف أخرى من هـــذا النـــوع فى
احياء القاهرة الاخرى ، او مـــا ان كانت هـــذه
الطائفة ـ التى كانت متوطنة فى وسط المدينة ـ
تضم كل « سقايين » خزانات القاهرة ( سبلها ) ·
وفى عام ١٨٠٦ كان يوجد بالقاهرة وحدها حوالى
٣٠٠ ( سبيل ) ، كان معظمها عبارة عن منشئات
خيرية اسســها بعض الامـراء والاغنيـاء لمنفعـة
السكان · وكانت هذه « السبل » وهى فى الغالب

مبـــان ذات زخرفات جميلة ــ تضم عادة ثلاثة طوابق فى الطابق الاعلى منها يوجد «كتاب» ــ وهو مدرسة ابتدائية يتعلم فيهـا الصبيان القـراءة والكتابة • اما فى الطابق السفلى ( تحت الارض ) فكان ثمة حوض يفرغ فيه جماعة السقايين قربهم التى يحضرونها على ظهـور الجمـــال • وكـانت المصاريف تدفع من دخل الوقف الذى اوقفـــه مؤسس السبيل عليه • وفى مستوى الشـــارع ، اعدت أحواض خارج السبيل تقصدها السيدات ليأخذن مايلزمهن من الميـــاه مجـانا ، كما كان هناك ايضا خراطيم ليشرب منها العطشى من المارة• بل لقد كان بعض السقايين أنفسهم ، يترددون على هذه السبل ليتزودوا بالمياه التى سيبيعونها للمارة « بالقطاعى » وهذا العدد الكبير من السبل الموزعة على احياء القاهرة كان يكفى حتى نهـــاية القرن التاسع عشر لضمان وجود المياه الصـــالحة فى متناول الاهالى ، اللهم الا اذا حالت الاحـــداث الخارجية دون تموين هذه السبل • وكـان يلحق بهذه السبل احواض جميلة المنظر ، خصـــصت لسقاية الماشية •

اما باعة المياه فى الشوارع « بالقطاعى » ، فقد كانوا يكونون عام ١٨٠١ الطائفة الســـابعة من السقايين وقد انتشرت هذه الطائفة فى القـاهرة

ومصر القديمة وبولاق . وهؤلاء الباعة هم بالتأكيد، الذين اثاروا انتباه الرحالة الاوربيين . فمن ليون الافـريقى Leon l'Africain حتى لين Lane يكاد لايوجد رحالة واحدة لم يتحدث عن « السقا شربة » الحامل تحت ابطة قربة من الجلـــد ، ذات خرطوم طويل من النحاس ، أو برميلا صـــغيرا ، والذى يعلن عن نفسه بنداء « يعوض الله » . وقد نقل الينا ايفليا افندى الصيغ الكلامية التى كان من عادة هؤلاء السقايين ان يشكروا بها عملاءهم ، جالبين البركة المقدسة على رءوسهم . وهذه الصيغ هى بعض آيات من القــرآن الكريم : « وســقاهم ربهم شرابا طهورا » « انا اعطيناك الكوثر » « من الماء كل شيء حى » . وكـــان دخـــل هـــؤلاء الباعة متواضعا جدا ، لايكاد يفى بضرورات حياتهم .

والطائفة الثانية التى تشير اليها قائمة ١٨٠١ ، أولئك الذين ينقلون المياه غير النقية ولعل مقر هذه الطائفة كان حى قاسم بك . ومن الارجـــح ان هؤلاء السقايين كانوا يتزودون بمياه الابار الملحة المذاق والتى لاتصـــلح للطعام وان كانت تصلح لبعض الاغراض المنزلية الاخـــرى ، كما كانت الحال فى بئر زويلة الذى استغله بعض السقايين زمن المقريزى ، بعد أن كان استغلاله فى زمن الفاطميين وقفا على حيوانات اصطبلات وحظائر الخلفاء

وقد ادت عملية نقل المياه الى نشأة وتطور حرف صناعة الآنية والقرب الجلدية والجرار الفخارية التى كانت تستعملها طائفة السقايين . وتوضح قائمة ١٨٠١ ان ثلاث طوائف كانت تقوم بصناعة وبيع واصلاح القرب . وحسبما ذكر de Regny فقد كان يوجد فى القاهرة فى عام ( ١٨٧١ ) ٨٣٤ صانع فخار و ١٨٣ تاجر قرب جلدية . ومراكز توطن هذه المهنة له صلة واضحة بمراكز نشاط السقايين . فقد كان الموطن الرئيسى لصناعة القرب الجلدية يوجد جنوبى باب زويلة فى العصور الوسطى احدى مناطق دخول السقايين الى المدينة ، وكان من المنطقى ان تنشأ مثل هذه الحرفة هناك . وقد سمى الحى كله باسم القربية . وكانت المنطقة الرئيسية لبيع القرب تقع بالقرب من حى السقايين نفسه ، فى سوق القرب . الذى كان يفتح كل ايام الجمع حتى الظهر . وقد ظهرت مصانع لعمل آنية الفخار فى الازبكية غير بعيد عن باب البحر وباب اللوق . على ان جزءا هاما من الآنية الفخارية كان يأتى من خارج القاهرة . واخيرا ، فقد كانت وكالة القرب تقع قريبا من باب النصر .

ولا يمكن ان نختم دراستنا عن نشاط ووظيفة

السقايين دون ان نذكر الدور الهام الذى عهد اليهم القيام به من اجل امن المدينة ٠٠ ففى فترة غـاب فيها اى تنظيم متخصص لمقاومة الحرائق ، كانت طائفة السقايين فى الواقع وطوال القرون الوسطى هم الذين يقومون بدور فرقة من جنود المطافىء ، متعاونين فى ذلك مع طوائف مهنية اخرى ٠ وقد اشار المقريزى الى ان الوالى كان يقوم بجـــولات ليلية منتظمة فى القاهرة « مع فرقة من جنـــود الشرطة والســقايين والنجـارين والقصـارين والهدادين » أولئك الذين كانت مهمتهم مكافحة الحرائق العارضة لكن هذا التنظيم الدورى لم يكن كافيا للوقاية من خطر الحرائق فاســتدعاء الوالى للسقايين والنجارين وعمال الانقاض والقصارين الذين يعملون على عزل المنزل المحترق كــان فى العادة اجراء كافيا لمنع امتـــداد الحرائق الا فى الحالات الشاذة ، كما حدث فى حريق القلعة عام ١٨٢٠ ، حين كان تدخل السقايين غير مجـــد بسبب نقص المياه فى القاهرة ٠ ويبدو ان الامور لم تتغير الا فى عام ١٨٣٨ بعد حادث الحريق الذى اتى عـلى جـزء من الحى الافـرنجى ٠ وفى اثنـاء هذا الحريق ، استدعى الوالى معظم السقايين كما جرت العادة ، وعرض عليهم ثمنا مغريا عن كل قربة تنقل الى مكان الكارثة لكن الترعـــة والآبار

لسوء الحظ كانت شبه جافة . وبعد عدة أيام اهتدى المسئولون أخيرا الى اللجوء لمضخات الحريق الاربع التى كانت موجودة فى بولاق ، والتى تم نقلها على ظهر جمل .

كانت جماعة السقايين فى القاهرة ـ كما فى كل مدينة اسلامية ـ عنصرا اساسيا من عناصر المظهر الاجتماعى . وبحكم ذهابهم من منزل لآخر ـ كما تقتضى وظيفتهم ـ هىء لهم أن ينفذوا الى « اعماق » البيوت حيث السيدات . وربما يكونون ـ لذلك ـ قد لعبوا دورا هاما فى نقل الاخبار ونشرها ، او ساهموا بطريقة مباشرة فى الحياة اليومية لاهالى القاهرة . وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، قرر الرحالة الاوربيون ، الشغوفون بالوقوف على هذا النوع من التفاصيل، ان السقايين كانوا يستخدمون كوسطاء فى المغامرات العاطفية التى افترض وجودها فى معاقل الحريم . وربما يكونون قد لعبوا دور « رسل الغرام » متنافسين فى ذلك مع الحمارين ، الذين كانوا ـ هم أيضا ـ على صلة بالعنصر النسائى والذين كانت شهرتهم السيئة فى هذا الامر حقيقة مسجلة . ويذكر المؤلفون الجادون لكتاب وصف مصر أن الامر كان ينتهى بالسقايين بأن يكونوا ذوى حظ طيب مع السيدات .

اما اذا نظرنا الى هذه المهنة من الناحيـــة الاقتصـــادية فاننا نجدها أقل بريقاً من غيرها ٠ وكان ثمن المياه يختلف تبعا لوفرتها أو ندرتها ٠ وقد قرر لين E. Lane حوالى عام ١٨٣٠ أن السقا

لم يكن يتقاضى مقابل قربة مياه محمولة من بعـد يقــرب من ثلاثة كيلو مترات أكثر من ١٠ ــ ٢٠ فضة ( أى حوالى بنسا واحدا ) فالمهنة ــ كما هو واضح ــ غير مجزية وخاصـــة فيما يتعلق ببائعى المياه بالقطاعى ــ وهى بلاشك اكثرها مشقة . ومع ذلك فعلى تواضع دخل السقايين هذا ، فانهم لم يستثنوا من الدفع للباشا فى العصر العثمانى ، ولا من دفع العوائد الشخصية ( الفردة ) فى القرن

التاسع عشر ٠ ولذا فثمة ما يؤكد أن الوضـــع الاجتماعى للســـــقايين لم يكن يحظى بالاحترام فحمار الحكايات ــ الذى كان يعرف ما ينتظره فى نهاية حياته ــ كان يشكو قائلا : عندما لا أعـــود أستطيع الجرى ، فســـــوف يغطون ظهرى بسرج خشبى ويسلموننى الى سقا ، يجعلنى أحمل المياه فى القرب أو فى الجرار ، وياله من نهاية حقيرة ! كما ان الشاعر الذى كان يشكو ميل الزمن الذى لا علاج له ، والذى كان يحزنه تراكم ســـحب الجهل ، كان ينهى نشيده بقوله :

من آجـــرى يومى مثـل أيلى فى الاسى
فدهرى وطرفى أســـــود ومســـــهد

وليس أخـــو مجـــد طـــريف وتالد
كمن فى ذراعيه ســـــــــقاء ومزود

ومع ذلك ، فربما كان ينعكس على السقا شىء من الصفة الدينية التى يتخذها — عادة — جلب المياه فى البلاد الاسلامية ٠٠ فقد كان يلعب دورا هاما فى كل المنشآت المخصصة لغاية دينية ومن بين الخدمات التى اخذتها الحكومة على عاتقها كانت عملية جلب المياه فى جنـــازة الموتى ٠ وقد بلغ ماكان يدفع للسقايين الذين عهد اليهم القيام بهذه المهمة ٧٫٨٠٠ بارة كل عام ٠ ولم يكن من العجيب أن نرى السقايين فى فترة الحج يتصدرون موكب المحمـل حيث يؤمنون للعطشى من جمهوره مياه الشرب العذبة على حساب المنشئات الخيرية ٠ وقد سبق أن لاحظنا ان لنداءات السقايين على مياههم فى الشوارع طابعا دينيا يؤكد الصبغة الدينية لهذه المهنة ٠ وكان الحمليون ( المفرد حملى ) الذين يحدثنا عنهم ( لين ) يجمعون بين هذه المهنة وبين النشاط الدينى ، بشكل يبدو فيه الاثنان شيئا واحدا . فقد كان « دراويش » طريقتى الرفاعية أو البيومية ينقلون الجرار الفخارية ويقدمونهـــا

للمـارة أيام الاعيـــاد الدينية وموالد الاولياء ، مقابل مبلغ زهيد • ولهذا السبب وحده ، كانوا يستثنون من العوائد الشخصـــية ( الفردة ) • وكان من المعتـــاد ان يدفع زوار أضرحة الاولياء لهؤلاء المحمليين ( التســبيل ) لكى يوزعوا المياه مجانا على العطشى • كما كان يصرح المحمليين أن يأخذوا مياههم من الاماكن العامة • وقد أوضح لين أن كثيرا من الدراويش الذين انقطعوا تماما للدين ( كانوا يسمون : الفقرا ) كانوا يتخذون من مهنة السقاية وسيلة لكسب قوتهم • ولابد ان الورع الدينى كان شديدا عند السقايين خاصة • ومن الطريف ان نذكر ان الســــــقايين كانوا ينتسبون لاثنين من الاولياء هما سلمان الكوفى ومحمد بن عبد الله • ومن بين الرؤساء السبعة لطوائف السقايين الذين وصلتنا اسماؤهم ، نجد خمسة يحملون لقب ( حاج ) وهى نسبة كبيرة بدرجة غير عادية • وقد برز من بين الســـقايين عدة شخصــــيات دينية لفتت الانظار • ويذكر السخاوى أن على بن محمد ، وهو سقا وابن سقا قد توصل لمصافحة الرسول فى المنام ، وأنه قد عاش ومات تفوح منه رائحة ذكية ـ ومع ذلك فلم يكن كل السقايين من المسلمين ، فحسب قائمة ١٨٠١ كان يدير احدى الطوائف الثمانى قبطى .

ومن جهة اخرى ، فان الاهمية الحقيقية لدور السقايين لم تكن تظهر جلية لســـكان القاهرة الا اثناء الازمات . ففى فترات الاضـــطرابات السياسية ، كان الامر يســتوجب ـ حتى تحيق الهزيمة بالعدو المتمركز فى القاهرة ـ منع تزويد المدينة بالماء النقى ، بقطع السهل الممتد بين المدينة والنيل ، وايقاف نشاط السقايين . وهذا ماحدث عام ١٧١١ . اثناء المعارك التى دارت بين طائفتى عزبان والانكشارية عندما ظهرت « استراتيجية حقيقية » للمياه ، فقد كان الفريقان يتصـــارعان لامتلاك منطقة القصر العينى والروضـــة . ولكى يضطر الباشا طائفة عزبان الى التسليم ، عهـــد الى أيوب بك ومحمد بك بمهمة الاســـتيلاء على جمال وحمير السقايين ، وايقاف وصول المياه الى المدينة . وعندئذ ارتفع ثمن قربة المياه الى خمسة فضة ، وأعاد خصـــومهم النظر فى خطتهم . ثم أرسلوا وصيلة من جهة القصر العينى ليستردوا الدواب ، ثم عســـكروا فى المنطقة التى كانت طائفة الســقايين يقصـدونها ليأخذوا المياه وهنا جمع محمد بك بعض الهوارة ـ وهم أفراد قبيلة عربية من صـــعيد مصر كانت متحالفـــة مع الانكشـــارية ـ وهاجم العزبان على غـــرة ،

واضطرهم للهرب . وكثيرا ما قاسى سكان القاهرة من انقطاع المياه بسبب هذه المشاحنات . وقد سبق ان لاحظنا ان الشيخ حسن الحجازى قد قال فى ذكرى هذه السنة المرة أشعارا عدة .

وكان الامر دائما يحدث على هذا النحو فى كل مرة يتعرض فيها الامن للاضطراب ، وهذا ما لم يتكرر حدوثه الا فى نهاية القرن الثامن عشر . وفى أثناء هذه الفترات التى أخذت فيها السيطرة العثمانية تتعرض للاهتزاز ، كان على السقايين أن يقاسوا الكثير من عمليات السلب والنهب التى امتدت حتى الضواحى القريبة من مشارف القاهرة . وفى حوادث النزاع والصراع التى بدأت تدور بين الامراء والجنود والباشوات ، كانت طائفة السقايين بجمالهم وحميرهم فريسة سهلة للمتحاربين . وقد لجأ الفرنسيون ـ كذلك ـ أثناء حملتهم على سوريا الى اجراء مماثل ، اذ جندوا فى خدمتهم دواب السقايين ، وهنا كف معظم السقايين الذين تعلموا بما فيه الكفاية من التجارب السابقة ، عن الخروج والذهاب الى النيل مسببين بذلك متاعب جمة لشعب القاهرة . وفى عام ١٨٠٦ لجأ محمد على الى اجراء شبيه بما فعله بونابرت . ولذلك ، فعندما بدأ الجنود فى العام

التالى يستولون على الجمال والحمير والبغال بحجة وضــــع القاهرة فى حالة دفاع ، لجأت طائفة السقايين ـ الذين أصبحوا أكثر حذرا ـ الى سلاح الاضراب ، حتى أصبحت المياه فى القاهرة نادرة باهظة الثمن • ويبدو أن وصـــول محمد على الى الســـلطة قد فتح « عهدا جديدا » بالنســـبة بتحامله على محمد على ـ لم يكن يفكر ، بالنسبة للسقايين ، لانه اذا ما صدقنا Hamont المعروف لهم ، فى أقل من انشـــاء « التزام للنيـــل » ، وتحصيل مقابل لاستهلاك المياه • على ان الامر لم يتعد مرحلة التفكير •

وهكذا وجب الانتظـار الى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، حتى تتمكن السلطات الحاكمة من ان تعثر على وسيلة اكثر تطورا واكثر ضمانا • ومنذ عهد محمد على وضعت على بســاط البحث عدة مشروعات لحفر الخليج أو لانشاء ترعة لنقل المياه الى مناطق القاهرة المرتفعـــة • وقد واجه عباس باشا ـ هو أيضا ـ مشكلة جلب المياه الى منطقة العباسية • وأخيرا انشئت « شركة المياه » فى عام ١٨٦٥ برءوس أموال وبادارة أوربية بموجب عقد امتياز ينتهى فى عام ١٩٦٩ وأخذت الشركة تقيم ماكينات الضخ ومواسير المياه داخل المدينة • وقد كان العمل شاقا يتطلب الصبر والمثابرة وفى

عام ١٨٩١ لم يكن هناك من المشتركين الا ٢٠٠ر٤ مشترك أدخلوا المياه الى منازلهم ٠

وقد اقتصر الامر ـ لمـــدة طويلة ـ على جلب المياه الى قلب المدينة عن طريق شــــــبكة من الحنفيـــات ، التى حلت ـ على نحو ما ـ محــل السبيل ٠ وقد وضعت الشركة صاحبة الامتياز ، عند هذه الحنفيات ـ موظفين مهمتهم الاشراف على توزيع المياه وتحصـــيل الثمن من المستهلكين ، لكن ذلك لم يغن ســـكان القاهرة عن اللجوء الى الســـقايين لجلب المياه الى منازلهم ٠ وظل بعض « السقايين » يلعبون دورهم التقليدى فى تموين الاحياء القديمة بعد أن اضطرهم امتداد القاهــرة نحو النهر الى « الانســـحاب » من منطقة القصر العينى ٠

وأخيرا ، اخذ الفن الشعبى يتناول موضوعهم ٠ وقد حاول الكاتب يوسف السباعى ـ عندما اتخذ الحياة اليومية لحى الحسينية الشعبى عام ١٩٢٠ كموضـــوع لروايته « السقا مات » ـ حاول ان يســـتعرض جزءا هاما من احداث قصته حول صنبور المياه حيث تذهب السيدات لملء جرارهن وصفائحهن ٠ وفى هذه القصة ، يعرض بطله ، السقا الخالد ، الذى كان يجر عربته وقربته من

منزل لآخر ـ مشهدا آتيا من أعماق العصور :

« وتوقفت العـــربة أمام الدار الاولى ٠٠ دار « أم عبد الله » القائمة فى مواجهة احـــدى الازقة المســدودة التى يمتلىء بها الدرب ٠٠ وتقــدم « شوشــــة » الى الباب الخشبى المغلـــق فدق « سقاطته » الحديدية بضع دقات متوالية ٠٠ وبعد برهة سـمع صـوتا نســائيا من وراء الشـبكة الخشبية لنافذة سفلية تجاور الباب وهو يصيح بلهجة ممدودة منغمة :

ـ مين ؟

وأجاب « شوشة » بصوته الاجش :

ـ السقا ٠٠

## الحمامات العامة بالقاهرة

## عند نهاية القرن الثامن عشر

**أولا : ـ عدد الحمامات العامة وأماكنها :**

يمكننا أن نعرف بطريقة تقرب من الدقة عدد الحمامات العامة التى كانت توجد بالقاهرة حتى نهاية القرن الثامن عشر . وكذلك اماكن توزيعها عن طريق كتاب « وصف مصر » Description de l'Egypt الذى تتفق المعلومات التى يقدمها فى جوهرها مع تلك المعلومات التى يمكن الحصول عليها من المصادر الشرقية .

وقد قدر الرحالة التركى ايفليا جلبى فى حوالى عام ١٦٦٠ عدد الحمامات العامة بالقاهرة بـ ٥٥ حماما . لكن هذاالتقدير فى الحقيقة بالغ التواضع كما يمكن ان نستنتج ذلك من الأرقام التى نستند

اليها عن القرن الثامن عشر وحسبما يذكر المؤرخ المصرى أحمد شلبى ابن عبد الغنى · كانت توجد بالقاهرة عام ١٧٢٣ م ٧٣ حماما « بما فيها الثلاث حمامات التى أنشئت حديثا » وحسب توضيح ذكر بالهامش يضيف المؤلف لهـذا الرقم حمامى عثمان كتخدا وابراهيم جاويش ، فيصل المجموع بذلك الى ٧٥ حماما لا تتضمن الحمامات الكائنة ببولاق ( ٦ حمامات ) وتلك الموجـودة بمصر القـديمة ( اثنين ) ويقدر الرحالة فورمون Fourmont الذى زار القـاهرة حـوالى عام ١٧٥٥ عدد الحمامات بالقاهرة ـ فى ذلك الوقت ـ بثمانين ·

ويمكننا كتاب وصف مصر من أن نصل الى رقم قريب من ذلك ، وان كان شابرول Chabrol وجومار Jomard يؤكدان أن عدد الحمامات العامة بالقاهرة كان يتجاوز المائة ، ويضيف جومار بأن القوائم التى عملت « لا تقدم لنا الا ٩١ فقط » وان كنا فى الواقع لم نجد فى قوائم شرح خريطة القـاهرة Explication du plan du Caire

الا ٦٩ حماما تضاف اليها ثلاث حمامات ذكرها بعد ذلك جومار بين الحمامات « الاكثر فخـامة » وبذلك يصل المجموع الى ٧٢ حماما · واذا أخذنا فى اعتبارنا ـ بالمثل ـ تلك الحمـامات التى ورد

ذكرها فى وثائق كل من دار المحفوظات بالقلعة والمحكمة الشرعية وهى تختلف دون شك عن تلك التى يذكرها وصف مصر فسوف نصل الى مجموع ٧٧ حماما تأكد وجودها فى مدينة القاهرة وحدها فى القرن الثامن عشر · ويبدو هذا الرقم فى دراستنا الوثائقية هذه قريبا من الصحة كما انه فى حد ذاته رقم يبعث على الرضا كما توضح ذلك المقارنات التى يمكن ان نلجأ اليها · ففى القرن الخامس عشر لم يذكر المقريزى فى الفصل الذى خصصه لحمامات القاهرة سوى ٤٧ حماما موزعة — وهذا صحيح — فى منطقة أقل اتساعا من القاهرة العثمانية · أما عن استانبول فى القرن السابع عشر حين كان عدد سكانها يقترب من ثلاثة أمثال تعداد القاهرة ( ٧٠٠ ألف الى ٨٠٠ ألف فى مقابل ٢٥٠ الى ألف ) فان روبير مونتر Robert Mantran يقدر عدد الحمامات العامة بها بـ ١٥٠ — ٢٠٠ حمام أى أكبر من عدد الحمامات بالقاهرة بمرتين او مرتين ونصف · ومع ذلك فلابد ان عدد الحمامات العامة بالقاهرة قد انخفض بعد ذلك · وقد قدر ادواردلين Lane حوالى ١٨٣٠ — ٥٥ حماما بمدينة القاهرة بالاضافة الى ٦ حمامات فى بولاق ·

ويؤدى بنا فحص توزيع الحمامات العامة على خريطة القاهرة الى تبين الملامح الآتية :

* وجود مناطق تتركز فيها الحمامات بدرجة كبيرة هى :

١ ـ منطقة القصبة وهى الشريان التجارى الكبير الذى يمتد مخترقا المدينة الفاطمية ( التى كان يطلق عليها دائما فى المؤلفات العربية اسم : القاهرة ) ابتداء من باب زويلة حتى باب الفتوح وهى المنطقة التى ظلت فى القرن الثامن عشر اكثر مناطق المدينة نشاطا فى المجال الاقتصادى ٠

٢ ـ ضواحى القلعة ، حيث مقر العسكريين والفرق العسكرية وحيث توجد كذلك بعض الاسواق الكبرى ( سوق السلاح وسوق الرميلة )

٣ ـ ضواحى جامع ابن طولون ٠

ففى هذه المناطق كانت توجد المراكز الاقتصادية الكبرى لمدينة القاهرة وكذا الاحياء الاكثر ازدحاما بالسكان والاكثر ثراء فى نفس الوقت ٠

* وجود مناطق تكاد تكون محرومة كلية من الحمامات وهى المناطق الواقعة عند تخوم القاهرة وكان يسكن هذه المناطق عادة أناس فقراء لايلعبون فى الحياة الاقتصادية الا دورا ضئيلا ٠ ويبدو أن

التردد على الحمامات العامة كان ملمحا من تقاليد « الطبقات الوسطى » فى حين كان للأغنياء حماماتهم الخاصة ٠

* كان هنــاك بصفة عامة نســق معين فى التوزيع الجغرافى للحمامات ، فقد كانت ٢٨ منها تقع فى القــاهرة ( الفاطميــة ) وحمـامان فى الحسينية وهى قرية صغيرة فى شمال المدينـة كما كان يوجد ٣٠ حماما آخـر بالحى الجنوبى ( على الشاطىء الأيمن للخليج ) و ١٧ فى الحى الغربى ( على الشــاطىء الأيسر للخليج ) حيث كانت كثافة السكان ـ بسبب انتشار البـرك والحدائق ـ متواضعة بالنسبة للكثافة السكانية فى بقية المدينة ٠ وهذا التوزيع يوضح بجلاء حقيقة ان القاهرة العثمانية كانت تحتل بالفعل المنطقة الواقعة الى الجنوب والى الغرب من القاهرة الفاطمية اما فى زمن المقريزى فكــان العكس من ذلك ، اذ كانت غالبية الحمامات التى ورد ذكرها تقع داخل القاهرة الفاطمية مما يؤكد اســتمرار التكـدس المملوكى هناك ٠ وعلى كل حال فانه لم يكن ثمـة مركز للتكدس السكانى ـ فى القرن الثامن عشر ـ لا يقع بالقرب منه بمسافة معقولة حمام عام ٠ ان توزيع الحمامات فى كل مناطق التجمع السكانى

له صلة مباشرة ـ كما هو طبيعى ـ بتوزيع السكان كما ان تركز الحمامات فى منطقة القصبة ليست له سوى صلة واهية بالتفوق الاقتصادى الساحق والتاريخى لقلب المدينة حيث نجد على سبيل المثال ١٤١ وكالة من مجموع ٢٥٠ وكالة بالمدينة كلها يوضح أماكنها كتاب وصف مصر كما كان بها ١٢ من مجموع ١٣ خانا .

ان اماكن توطن الحمامات العامة فى العصر العثمانى سواء المنشأة منها أو المرممة لا يسمح لنا بالوصول الى نتائج ذات مغزى فيما يتصل بالتطور الحضرى للقاهرة خلال فترة امتدت لثلاثة قرون . فمن مجموع ١٧ حماما شيدت أو حولت ابتداء من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر نجد أن ستة منها تقع داخل القاهرة ( الفاطمية ) و ٧ فى الحى الجنوبى و ٤ فى المنطقة الغربية وهذا ما يعود بنا على وجه التقريب الى نفس نسب التوزيع التى سبق ذكرها . أما الذى له أهمية نسبية ، فهو عدد الحمامات التى أنشئت فى ضواحى باب الخرق فى السنوات الاخيرة من القرن السابع عشر والسنوات الاولى من القرن الثامن عشر ، اذ يرتبط ذلك بلاشك بحركة الاسكان المتزايدة بحى المدابغ بعد هجرة الدباغين من هذه المنطقة من القاهرة ليستقروا بعد ذلك

فى ذلك الحى النائى : حى باب اللوق على مدار القرن السابع عشر ٠

**ثانيا : ــ قائمة بحمامات القاهرة عند نهـــاية القرن الثامن عشر (١)**

١ ــ حمام عابدين : وصف مصر II 0 67 (٨) ويذكــر بوتى Pauty (هامش ١ ص ٥٩ ) أن هذا الحمام قد اختفى ٠

٢ ــ حمام أبوحلوة : لم يرد ذكر لهذا الحمام فى شرح خريطة وصف مصر ، ويحدد جومار مكانه بالقرب من القنطرة الجديدة ( وصف مصر ، ص ٢٣٠ ) أما بوتى الذى يورده فى قائمة برقم ( ٩ ) فيذكر ان هذا الحمام قد ذكر فى قائمة وصـــف مصر ج ٦ ، لكنه أخطأ بعد ذلك كما ورد ذكـــر هذا الحمام كذلك فى خطط على باشا مبارك ، ج ٤ ص ٦٥ ٠ وقد اندثر الآن هذا الحمام ٠

٣ ــ حمام العربى : ذكر فى وصف مصر تحت اسـم « حمام » bain فقط لكن بوتى الذى يورده فى قائمة برقم ( ٤ ) يذكره باسـمه الحالى ٠ ولا يزال هذا الحمام موجـودا لليـــوم ( ١٠٤ ) شارع جامع الاحمر ) ٠

٤ ــ حمام البابا : وصف مصر 9 U 18 ويذكربوتى أن بوابة هذا الحمام فى القـــرن ١٨

كانت بوابة حجرية وتغلق من أعلى الى أسفل ويرد ذكره فى خطط على باشا ح ٤ ، ص ٦٦ . وقد اختفى هذا الحمام الآن .

٥ ـ حمام البابين : وصف مصر 7 E 210
لكن لم يرد ذكره عند بوتى . وقد اندثر هذا الحمام .

٦ ـ حمام باب الوزير : ورد ذكره في أرشيف المحكمة الشرعية عن عام ١٦٩٢ ( عسكرية . دفتر ٨٥ . ص ٤٨٥ ) ، وذكر بخطط على باشا ح ٤ ص ٦ ، برقم ٣٤ فى قائمة بوتى . ولم يعد هذا الحمام صالحا للاستعمال .

٧ ـ حمام بيبرس : وصف مصر 15 G 346
ويرد فى قائمة بوتى برقم ٥٩ كما يذكر بوتى فى هامش (١) أن هذا الحمام قد اختفى .

٨ ـ حمام لم يرد له اسم معين فى شرح خريطة وصف مصر ج ٦ . وقد اختفى هذا الحمام .

٩ ـ حمامات لم ترد لها أسماء معينة فى شرح خريطة وصف مصر ح ٦ 7 L 378 وقد اختفت كل هذه الحمامات .

١٠ ـ حمام البيسرى : وصف مصر H 308
ويرد ذكره فى خطط على باشا ج ٤ ص ٦٦ وتذكر الخطط ان موقعه كان فى بداية سوق السمك كما

تذكر نقلا عن المقريزى انه قد انشىء قبل ١٢٩٩/٦٩٨ • وقد اندثر هذا الحمام •

١١ ـ حمام الباروديه : وصف 10 N 17

ويرد ذكره فى خطط على مبارك باشا ج ٤ ص ٦٦ ويرد فى قائمة بوتى برقم ( ١١٥٠ هـ/١٧٣٧ ـ ١٧٣٨ م ؟ ) ويذكر الدمرداشى فىمخطوطه ( الدرر المصانة) أن زوجة ابراهيم كتخدا المتوفى سنة ١٧٥٤ ابنة البارودى قد أنشأت هذا الحمام فى باب الخرق بالقرب من بيتها •

ومايزال هذا الحمام قائما لليوم •

١٢ ـ حمام بشتك : وصف مصر
وهو خاص بالسيدات • ويذكر بوتى ( ص ٥٨ هامش ١ ) أن هذا الحمام قد اختفى •

١٣ ـ حمام بشتك ( للرجال ) وصف مصر 6 S 11 وحسبما يذكر على باشا ( الخطط ج ٤ ، ص ٦٦ ) فان هذا الحمام والحمام السابق كانا يعرفان باسم حمام مصطفى كتخدا ، ويشير بوتى ( ص ٥٨ هامش ١ ) الى اختفاء هذا الحمام •

١٤ ـ حمام الذهبى : وصف مصر 6 D 356
خطط على باشا ( ج ٤ ص ٦٨ ) ، قائمة بوتى

( رقم ٥ ) . وقد هدم هذا الحمام منذ عدة سنوات عند نقل أسوار القاهرة .

١٥ ـ حمام الدرب الأحمر : وصف مصر 6 N 247 ، خطط علي باشا ( ج ٤ ص ٦٧ ) قائمة بوتي ( رقم ٢٧ ) . وما يزال هذا الحمام موجودا لليوم .

١٦ ـ حمام درب الجماميز : وصف مصر 10 R 48 ، خطط علي مبارك ( ج ٤ ص ٦٧ ) ويشير بوتي ( ص ٥٩ هامش ١ ) الى اختفاء هذا الحمام .

١٧ ـ حمام درب السعادة : وصف مصر 9 M 1 ، وهو على وجه التقريب الحمام الذى بناه حوالى عام ١١٤٠/٢٧ ـ ١٧٢٨ م أحمد شوربجى ابن يوسف فى درب السعادة بالقرب من المحكمة ( وصف مصر 9 M 2 ) فى درب السلطانى (أحمد شلبى ص ٢١٠) . وقد اختفى هذا الحمام .

١٨ ـ حمام الدود : وصف مصر 7 Q 93 خطط على باشا ( ج ٤ ص ٦٨ قائمة بوتى ( رقم ٣١) . ويشير بوتى الى بوابة هذا الحمام المبينة على الطراز العثمانى ( ص ٥٨ ) التى تشهد على حدوث ترميمات لهذا الحمام فى هذه الفترة اذ ورد ذكر لهذا الحمام عند المقريزى ( ج ٢ ص ٨٥ ) ولا يزال هذا الحمام قائما حتى اليوم .

١٩ ــ حمام الافندى : وصف مصر 5 H 266
خطط على مبارك (جـ ٤ ص ٦٥ ) ، قائمة بوتى (رقم ١٥) . وبشير على مبارك الى أن هذا الحمام هو نفسه حمام القاضى الذى ذكره المقريزى (جـ٢ ص ٨٣) ، وقد وردت اشارات كثيرة الى هذا الحمام باسم حمام القاضى (أحمد شلبى ص ١٧٢ ، الجبرتى ، جـ ١ ، ص ١٣٠) وأحيانا كان يشار اليه باسم حمام سادتنا القضاة (المحكمة الشرعية، عربى ، دفتر رقم ٧٠ ، ص ٨٧ ، عام ١٦٩٤ ) . وقد اختفى الآن هذا الحمام .

٢٠ ــ الحمام الجديد : وصف مصر 5 Q 164
ويذكر بونى (ص ٥٧ هامش ١) أن هذا الحمام قد اختفى .

٢١ ــ الحمام الجديد : وصف مصر **8 K** 221
ويشير بونى (ص ٥٩ هامش ١) الى اختفاء هذا الحمام . ولعله يشير الى الحمام الجديد الذى بنى فى بداية القرن ١٨ (قبل عام ١٧٣٦) على يد بيك زاده فى درب السعادة بباب الخرق ( اقبنالى ، مجموع لطيف ، مخطوط بفينا) وهو نفسه حمام التلات الذى يذكره على باشا (الخطط جـ ٤ ص ٦٦) والذى يرى على باشا انه هو نفسه حمام الصاحب الذى ذكره المقريزى (جـ ٢ ص ٨١) .

٢٢ ــ الحمام الجديد : ولا يذكر وصف مصر

سوى كلمة bain«حمام» . 13 E 333 فى نفس المكان الذى يحدد فيه بوتى «الحمام الجديد» ويورده فى قائمته برقم (١) ويورده على باشا فى خططه (ج ٤ ص ٦٧) . ولا يزال هذا الحمام موجودا الى اليوم ويعرف باسم حمام باب البحر (١٠٥ شارع باب البحر ) .

**٢٣ ـ الحمام الجديد : وصف مصر 12** T 178 قائمة بوتى (رقم ٣٥) . ويطلق عليه كل من بوتى وعلى باشا اسم حمام الدرب الجديد . وهو الحمام الذى بناه محرم أفندى فى سويقة اللالا حوالى عام ١٧٢٧ (أحمد شلبى ١٢٧ ، ٢١٠ ) ، وقد ورد ذكره فى خطط على باشا (ج ٤ ص ٦٧) . ولا يزال هذا الحمام موجودا لليوم .

**٢٤ ـ حمام الجبالة : وصف مصر** 6 L 291 ويرد فى قائمة بوتى برقم ٢١ وباسم حمام الجبلى ، وحسبما يذكر على باشا فانه هو نفسه حمام الجوينى الذى ذكره المقريزى . ولم يعد هذا الحمام صالحا للاستعمال .

**٢٥ ـ حمام الجميزة : وصف مصر** M 78 وقد اختفى هذا الحمام .

**٢٦ ـ حمام الغورية : وصف مصر** 6 L 403

وتذكر احدى وثاق المحكمة الشرعية (عسكرية ، دفتر ٦٨ ص ١٩١) أن حمام الغورية كان يعرف باسم حمام الأفندى • وحسبما يذكر على مبارك فقد بنى هذا الحمام فى زمن السلطان الغورى وأطلق عليه أولا اسم حمام العرايس • ويشير بوتى فى مؤلفه أن هذا الحمام قد أصبح مجرد خرائب • وقد اختفى هذا الحمام الآن •

٢٧ ـ حمام خان الخليلى الصغير : وصف مصر 5 K 201 وقد اختفى هذا الحمام اليوم •

٢٨ ـ حمام الحريف : وصف مصر 8 T 130 وقد يقع فى نفس موقع الحمام رقم ٣٧ فى قائمة بوتى الذى يسميه باسم حمام الألفى • ومع ذلك يذكر بوتى (ص ٦١ هامش ١) ان حمام الحريف قد اختفى • ويرد ذكر حمام الألفى فى خطط على مبارك (جـ ٤ ، ص ٦٦) . وهذا الحمام الآن مجرد خرائب •

٢٩ ـ حمام الخراطين : وصف مصر 6 K 169 خطط على مبارك (جـ ٤ ، ص ٦٩ ) ، قائمة بوتى (رقم ١٧) ، ويذكره بوتى باسم حمام الصنادقية، وحسبما يذكر على باشا فانه هو نفس الحمام الذى تحدث عنه المقريزى (جـ ٢ ص ٨٣) . وقد اختفى اليوم هذا الحمام .

٣٠ ـ حمام الخراطين : وصف مصر 8 F 286 خطط على باشا (ج ٤ ، ص ٦٧) ، قائمة بوتى ( رقم ٦ ) . وهذا الحمام هو أحد الحمامات التى يكثر ترديد ذكرها فى حجج دار المحفوظات . وفى احدى هذه الحجج التى يعود تاريخها الى عام

١٧٩٦ ( محفظة ٨ ، ٧٠١ ) ورد ذكره باسم « حمام ابن خليل المعروف حاليا باسم حمام الخراطين » لكن كل الحجج الاخرى والتى تعود أقدم واحدة منها إلى عام ١٦٨٠ ( المحكمة الشرعية ، عسكرية ، دفتر ٧٦ ، ص ٥٣ ) تذكره باسم حمام الخراطين وقد اختفى الآن هذا الحمام .

٣١ ـ حمام الخربطلى : وصف مصر 13 S 262 ويذكره بوتى فى قائمة برقم ٣٣ وباسم حمام الناصرية ، ويسميه على باشا فى خططه (ج٤ص ٧١ ) بنفس الاسم وهو الاسم الذى صار يعرف به حتى اليوم . وهذا الحمام مغلق حاليا .

٣٢ ـ حمام الحسينية : لم يرد ذكر هذا الحمام فى شرح خريطة وصف مصر ، لكنه ورد مرات كثيرة فى حجج المحكمة الشرعية (وخصوصا دفتر ٨٠ ص ٦٧ ، عسكرية ، ١٦٨٦ وكذلك دفتر ٨٥ ص ٤٨٥ ، عسكرية ، ١٦٩٢ ) . وقد ذكره جومار ( ص ٦٨٤ ) باسم حمام الحسينية ولعله يقصد

حمام البشرى الذى يرد برقم ( ٣ ) فى قائمة بوتى وحسبما يذكر على باشا فى خططه (جـ٢ ، ص٦) فان حمام البشرى هذا هـو حمام الحبالين الذى ذكره ابن اياس (بدائع الزهور ، استانبول ، ١٩٣٢ ، جـ ٥ ، ص ١٥ ، عام ١٥١٦ ) ولايـزال هذا الحمام قائما لليوم ( ٨ شارع الحسينية ) .

٣٣ ـ حمام الحصرية : ورد ذكر هذا الحمام عنـد القبنالى ( ص ١٤٨ ، عام ١٧٢٦ ) الـذى يستخدم كذلك اسم حمام الحصرى ( ص ١٤٧ ، كما ذكره الدمرداشى فى ص ٣١٥) ويذكره على باشا فى خططه ( جـ ٤ ، ص ٦٧ ) ويورده بوتى فى قائمته برقم (٤٠) ، ويشير اليه كلاهما باسـم حمام درب الحصر ، وكما يذكر على باشا ، فقد بنى هذا الحمام خوشقدم الاحمدى فى القـرن الرابع عشر (الخطط جـ ٤ ، ص ٦٧) ولم يعـد هذا الحمام صالحا للاستعمال .

٣٤ ـ حمام ابراهيم بك : وصف مصر 8 Q 91 ولم يعد هذا الحمام موجودا .

٣٥ ـ حمام ابراهيم جاويش : بنى هذا الحمام بعد عام ١٧٣٣ فى باب الخرق (أحمـد شلبى ص ١٢٧) ولم نعثر على أثر لهذا الحمام فى الحى المشار اليه .

٣٦ ـ حمام الكخية : وصف مص 13 K 292

ويذكره على مبارك باسم حمام الكخيا ( الخطط ، ج ٤ ، ص ٧٠ ) ويسـميه الجبرتى ( ج ٣ ، ص ٢٣٠ ) باسم أقرب الى الصـواب هو حمام عثمان كتخدا . وقد بنى هـذا الحمام قبل عام ١٧٣٦ على يد عثمان كتخدا القـازدغلى الذى شيد كذلك المسجد الذى لايزال قائما فى الطرف الجنوبى الغربى للازبكية . وقد ورد ذكر لهـذا الحمام عند القبنالى وأحمد شلبى فى اضـافات هامشـية ( ص ١٨٤ ، ١٢٧ على الترتيب ) . وقد ذكر بوتى ( ص ٥٩ هامش ١ ) أن هـذا الحمام قد اختفى .

٣٧ ـ حمام الكلاب : وصف مصر 9 L 13 ولعله هو نفس حمـام الامير حسين الذى ذكره احمد شلبى ( ١٧٢ ) والجبرتى ( عجائب الآثار ، بولاق ، ١٢٩٧ ، ج ١ ص ١٣٠ ) وقد ذكـر الجبرتى أيضا اسم حمام الكلاب بمناسبة الكلام عن احداث متأخرة جدا ( ١٢٩٧ / ١٨٠١ ) ولكن دون ان يحدد مكانه ( ج ٣ ، ص ١٤٥ ) وحسبما يذكر على باشا الذى يورده باسم حمام البنات ويشير الى اختفائه ، فان الذى بنى هذا الحمام هو نفس الشخص الذى بنى جامع الفخرى .

٣٨ ـ حمام كولوغلى: وصف مصر 9 S II
ويذكر بوتى ( ص ٦١ هامش ١ ) ان هذا الحمام قد اختفى .

٣٩ ـ حمام المقاصيص : وصف مصر 6 I 37
خطط على باشا ( ج ٤ ، ص ٧٠ ) ، قائمة بوتى ( رقم ١٦ ) ، وكما يذكر على باشا فهو نفس حمام الخشبية الذى ذكره المقريزى ( ج ٢ ص ٨٣ ) ولا يزال هذا الحمام موجودا لليوم ويقع عند مدخل شارع المقاصيص .

٤٠ ـ حمام مرجوش : وصف مصر 7 F 185
ومرجوش هو الاسم الشعبى للسوق الذى يوجد به هذا الحمام . وفى بعض الحجج يسمى هذا الحمام باسم اقرب الى الصواب هو حمام أمير الجيوش ، ( على سبيل المثال حجج المحكمة الشرعية ، دفتر ٨٠ ، ص ٧٦ ، عسكرية ) ويرد ذكره فى خطط على باشا ( ج ٤ ، ص ٧١ ) ويورده بوتى فى قائمته برقم ٨ ويذكر انه كان يسمى باسم حمام الملاطيلى . وكما يذكر على باشا فانه هو نفسه حمام سويد الذى يذكره المقريزى ( ج ٢ ، ص ٨٣ ) . وقد رمم هذا الحمام قرب نهاية القرن ١٨ ( ١٧٨٠ / ١١٩٨ ) ، ولايزال هذا الحمام قائما لليوم .

٤١ ـ حمام مرزوق : وصف مصر 7 57 دون

تحديد للمربع وان كان يرجح انه مربع T II
وفى احدى حجج دار المحفوظات سمى باسم
حمام الشيخ مرزوق ( محفظة ٤ ، حجة ٣٧٩ ،
عام ١٧٧٧ ) ويذكر على باشا مبارك فى خططه
( ج ٤ ص ٧٠ ) ان الذى بنى هذا الحمام هو
الشيخ حسين أغا النجاتى ، ويذكر بوتى ( ص ٦١
هامش ١ ) أن هذا الحمام قد اختفى فى أيامه
( أى فى زمن بوتى ) .

٤٢ ـ حمام المصبغة : وصف مصر 5 K 222
الجبرتى ( ج ٣ ،ص ٣١٤ ) ، قائمة بوتى ( رقم
٢٢ ) وحسبما يذكر على باشا فان هذا الحمام هو
نفس حمام القفاصين الذى ذكره المقريزى ( ج ٢
ص ٨٤ ) . وهذا الحمام مايزال موجودا لليوم .
٤٣ ـ حمام المؤيد ( للرجال ) : وصف مصر
7 M 353 .كر فى خطط على باشا ( ج ٤ ،
ص ٧١ ) وفى قائمة بوتى برقم ٢٤ . ويذكر على
باشا ان هذا الحمام ( والحمام الذى يليه ) قد
شيدهما السلطان المؤيد بعد أن انتهى من بناء
مسجده . ولم يعد باقيا منه اليوم سوى حجرة
تقع الى الغرب من جامع المؤيد .
٤٤ ـ حمام المؤيد ( للسيدات ) : وصف مصر
ويرد ذكره فى خطط على مبارك ( ج ٤ ،
ص ٧١ ) ، وفى قائمة بوتى برقم ٢٤ .

٤٥ ـــ حمام المجاورين: وصف مصر 5 K 179
ويرد فى خطط على باشا ( ج ٤ ، ص ٦٧ ) وفى قائمة بوتى برقم ٢٠ · ويسمى عندهما باســـم حمام الحلوجى · وقد اختفى هذا الحمام ·

٤٦ ـ حمام الموسكى : وصف مصر 9 L 236
انظر كذلك الجبرتى ( ج ١ ، ص ١٣٠ و ج ٣ ، ص ١٦٠ ) ·· ولم يعد هذا الحمام موجودا ·
٤٧ ـ حمام مصطفى بك : وصف مصر 9 T 186
٤٨ ـ حمام مصطفى بك : وصف مصر 9 T 195

ويشـــير بوتى ( ص ٦١ هامش ) الى اختفاء هذين الحمامين ·

٤٩ ـ حمام النحاسين : وصف مصر 6 I 248
ويشير اليه على مبارك باشا ( الخطط ، ج ٤ ، ص ٧٠ ) بأسم حمـــام قلاوون ويورده بوتى فى قائمته برقم ١٣ ويشير اليه باسم قلاوون المسمى باسم حمام النحاسين · وهو كما يذكر على باشا مبارك نفس حمام الساباط الذى ذكره المقريزى ( ج ٢ ، ص ٨٠ ) · ولايزال هذا الحمام موجودا لليوم ·

٥٠ ـ حمام قيسون ( للسيدات ) : وصف مصر 6 R 17 ولم يعد هذا الحمام موجودا ·

٥١ ـ حمام قيسون ( للرجال ) : فى جميع حجج المحكمة الشرعية ، حيث عثرنا على اسم هذا الحمام وجدناه يسمى بأسم حمام قوصون ، عام ١٦٨٦ « عسكرية ، دفتر ٨٠ ، ص ٧٦ » وعام ١٧٩٨ ( دفتر ٢٢٨ ، ص ١٠٢ ) وفى قائمة بوتى ( برقم ٢٩ ) يسمى حمام السروجية المسمى باسم حمام الجارية ، ويذكر على باشا « الخطط ج ٤ ، ص ٦٨ » أن حمام السروجية هذا هو نفسه حمام قنال السباع الذى ذكره المقريزى والذى كان يقع بجانب مسجد قوصون ( ج ٢، ص ٨٥ ) . ويذكر جومار ( ص ٦٨٥ ) حمام السروجية كواحد من الحمامات الذائعة الصيت فى القاهرة . وهذا الحمام الذى تركته جمعية المحافظة على الاثار ١٩٤٠ لمصيره ( نشرة جمعية المحافظة على الاثار ، ٣٨ ، ص ٢٧٧ ) قد اختفى اليوم .

٥٢ ـ حمام قيسون ( للرجال ) وصف مصر 6 Q 23 وكان هذا الحمام يقع حسب شرح خريطة وصف مصر غير بعيد من الحمام رقم ٣٠ فى قائمة بوتى ( حمام بشتك ) . ويسجل بوتى ( ص ٥٩ هامش ١ ) أن حمام قيسون هذا قد اختفى .

٥٣ ـ حمام القلعة : وصف مصر 3 S 65
لم يرد ذكر لهذا الحمام فى قائمة بوتى .

٥٤ ـ حمام قنال السباع : وصف مصر I2 M 99 وقد اختفى هذا الحمام .

٥٥ ـ حمام قراميدان : وصف مصر 5 U 80
بناه محمد باشا سنة ١١١٢ هـ ـ ١٧٠٠ ـ ١٧٠١ م ( كتاب تراجم الصواعق ، مخطوط ، دار الكتب ، القاهرة برقم ٢٢٦٩ ، ص ٩٦٩ ) ، ويرد ذكر لهذا الحمام عند احمد شلبى ( ص ٤٠ ج ١ ، ص ١٢٧ ج ٢ ) وكذلك عند الجبرتى ( ج ١ ، ص ٣٠ ) . وقد أورد وصف مصر تصميم هذا الحمام ( لوحة رقم ٤٩ ) وقد أشار اليه جومار ( ص ٦٨٥ ) وقد اختفى هذا الحمام .

٥٦ ـ حمام القزازين : وصف مصر 9 L 37
وهو يشغل نفس المكان الذى يشغله الحمام رقم ١٨ فى قائمة بوتى ، أى حمام القزازين « الذى ورد ذكره فى قائمة وصف مصر » قد تهدم وقد ذكره على باشا ( الخطط ج ٤ ، ص ٧٠ ) ولم يعد هذا الحمام صالحا للاستعمال .

٥٧ ـ حمام القبطان : وصف مصر 7 G I77
وفى احدى حجج المحكمة الشرعية التى يعود

تاريخها الى ١٦٨٦ يرد ذكره باسم حمام قابودان « عسكرية ٨٠ ، ص ٧٦ » ، وقد اختفى هذا الحمام .

٥٨ ـ حمام الرميلة : ويذكر احمد شلبى اثناء كلامه عن حادث يعود تاريخه الى عام ١٧٢٣ ان هذا الحمام « قد انشىء حديثا » ( ص ١٢٧ ) ، ولابد ان هذا الحمام كان قريبا من مربع 5 T لكننا لم نعثر له على أثر .

٥٩ حمام السبع قاعات : وصف مصر K7 118 وحسبما يذكر على باشا (الخطط ، ج ٤ ، ص ٦٨ ) فهو نفسه حمام ابن عبود الذى ذكره المقريزى ( ج ٢ ص ٦٨ ) ، وربما كان هو نفس حمام السجاعى الذى ورد ذكره فى احدى حجج دار المحفوظات التى يعود تاريخها الى عام ١٧٦٠ ( محفظة ٧ ، حجة ٥٨٣ ) ، ويقال انه كان يقع خارج السبع قاعات وعند بداية حارة اليهود ، وهو موقع يتفق على وجه التقريب مع موقع حمام السبع قاعات .

٦٠ ـ حمام الصليبة : وصف مصر خطط على باشا ( ج ٤ ، ص ٦٩ ) ، قائمة بوتى ( رقم ٣٨ ) وحسبما يذكر على باشا ، فقد بناه

الامير شيخو حوالى عام ١٣٥٥ ، ولايزال هـذا الحمام يعمل للان .

٦١ ـ حمام الصليبة ( للسيدات ) : وصف مصر 7 U 116 وقد بناه كذلك ، كما يذكر على باشا الامير شيخو ، وقد اختفى هذا الحمام .

**٦٢ ـ حمام الصليبة : وصف مصر 7 U 117** وقد اختفى هذا الحمام .

٦٣ ـ حمام الشرايبى : وصف مصر 6 K 314 وحول هذا الحمـام يكتب جومار ( ص ٦٨٤ ) يقول : « هو حمـام ضخم ، بناه تاجر مغربى ثرى ، هو نفس الرجـل الذى بنى الحمزاوى » ومشيد هذا الحمام هو بلا شك التاجر محمد دادا الشرايبى الذى شـيد قبل عام ١٧٢٥ وكالة الشرايبى . ويرد ذكر هذا الحمام فى خطط على باشا ، فان هذا الحمام قد انشىء بعد عام ٩٠٦ ـ ١٥٠١ على يد السلطان الغورى ، وعلى هذا فان ما تم قبل عام ١٧٢٥ بقليـل لا يعدو أن يكون مجرد ترميم أو اعادة لبنائه ولايزال هذا الحمام يعمل لليوم .

٦٤ ـ حمام الشعراوى : وصف مصر 8 F 268 وعند على باشـا « الخطط ، جـ ٤ ، ص ٦٩ »

وكذلك فى قائمة بوتى « رقم ٧ » نجد اسم حمام الشعرانى وهو ما وجدناه ايضا فى حجج المحكمة الشرعية التى ترجع الى عام ١٦٦٣ « عربيـــة ، دفتر ٤٩ ، ص ٢٨٨ » . وقد اختفى هذا الحمام .

٦٥ ـ حمام الصـــوافة : وصف وصف مصر 5 G 320 وهو يقع فى نفس المكان الذى يوجد فيه الحمام رقم ١٠ فى قائمة بوتى والذى يحمل اسم حمام سـعيد السـعادة . ويذكر على باشـا ( الخطط ، ج ٤ ، ص ٦٨ ) حمام سعيد السعادة هذا ويشير الى انه هو نفس حمام الصوفية الذى ذكره المقريزى « ج ٢ ص ٨٥ » . وفى زمن على باشا كان هذا الحمام يسمى حمام الجمالية ، ويرد هذا الاسم نفســـه عند القبنالى « ١٩٩ ج ٢ » بمناسبة تعرضه لبعض حوادث ١٧٢٣ . ولايزال هذا الحمام موجودا لليوم .

٦٦ ـ حمام الست سكينة : وصف مصر

وكان هذا الحمـام يقع فى نفس مكان الحمـام الذى يسـميه بوتى حمام الخليفة « رقم ٤٢ فى قائمته » . ويشير اليه على باشا كذلك بهـــذا الاسم ويعده من بين الحمامات القديمة فى القاهرة « الخطط ، ج ٤ ، ص ٦٧ » وقد توقف استخدام هذا الحمام .

٦٧ ـ حمام الشكالبة : وصف مصر 6 T 3 .
وهو بلا شك نفس الحمام الذى يذكره بوتى فى قائمته برقم ٣٩ باسم حمام العطارين والذى كان يقع فى نفس المكان ، ويرد ذكره فى خطط على باشا ( ج ٤ ، ص ٧٠ ) . ولايزال هذا الحمام قائما لليوم .

٦٨ ـ حمام الشكالبة : وصف مصر 6 T 7
اختفى هذا الحمام .

٦٩ ـ حمام السكرية : وصف مصر 6 M 253
خطط على باشا ( ج ٤ ، ص ٦٩ ) قائمة بوتى ( رقم ٢٣ ) . ويوضع هذا الحمام فى قائمة الاثار الاسلامية تحت رقم ٥٩٦ ، ويعود تاريخه الى القرن الثانى عشر الهجرى ( السابع عشر الميلادى ) ويلاحظ على باشا أن المقريزى كان يشير اليه على الدوام باسم حمام الفاضل . وقد ورد ذكر هذا الحمام عند احمد شلبى ( ١٢٧ مجلد ٢ ) بمناسبة حديثه عن بعض حوادث ١٧٢٣ . ولايزال هذا الحمام يعمل لليوم .

٧٠ ـ حمام السلطان الكبير : وصف مصر 6 H 282 فى حجج المحكمة الشرعية ( عسكرية ، دفتر ٨٠ ، ص ٧٦ ، عام ١٦٨٦ ) اسم حمام السلطان اينال ( دار المحفوظات ،

محفظة ٩ ، حجة ٧٥٠ ، عام ١٧٩٩ ) • ويعود تاريخه الى عام ٨٦١ / ١٤٥٦ م • ويورده بوتى فى قائمته برقم ( ١١ ) باسم « حمام البيسرى المسمى باسم حمام السلطان » خالطا على ما يبدو بينه وبين الحمام الذى أوردناه برقم ( ١٠ ) فى قائمتنا هذه • وفى الواقع فان بوتى يشير لهذا باسم « حمام البيسرى أو السلطان الوارد فى وصف مصر ( ج ٧ برقم ٢٨٢ ) » • لكن وصف مصر يذكر على حدة كلا من حمام السلطان الكبير ( برقم ٢٨٢ ) وحمام البيسرى ( برقم ٣٠٨ ) • ولايزال الحمام موجودا لليوم •

٧١ ــ حمام سنقر : وصف مصر 10 P 70 خطط على باشا ( ج ٤ ص ٦٩ ) ، قائمة بوتى ( رقم ٢٨ ) • وقد اختفى هذا الحمام •

٧٢ ــ حمام سوق السلاح : لم يرد اسمه فى شرح خريطة وصف مصر : لكن جومار يذكره ( ص ٦٨٤ ) كواحد من أهم حمامات القاهرة ( للرجال ) • وقد ورد ذكره فى احدى حجج المحكمة الشرعية التى يعود تاريخها الى عام ١٦٩٢ ( عسكرية ، دفتر رقم ٨٥ ، ص ٤٨٥ ) • وربما كان هو الحمام الذى انشأه مصطفى باشا ( ١٥٦٠ ــ ١٥٦٣ ) كما يذكر أحمد شلبى ( ص ٥ مجلد ٢

٢ ) . ولابد انه كان يقـــع فى مربع R 6
ذكره على باشا كذلك باسم ســوق الســلاح
( الخطط ، ج ٤ ، ص ٦٩ ) .

٧٣ ـ حمام الطنبلى : وصف مصر 8 D 318
وهذا الحمام « البالغ الضخامة والخاص بالرجــال
فقط » ( جــومار ، ص ٦٨١ ) يتردد ذكره كثيرا
فى أرشيف القرن الســابع عشر والقرن الثامن
عشر . وقد كتب عنه باسكال كوست Pasca.
Coste ملخصا ضافيا ، وورد فى خطط عــلى
باشا ( ج ٤ص ٧٠ ) وفى قائمة بوتى ( برقم ٢ )
ولايزال هذا الحمام موجودا لليوم .

٧٤ ـ حمام طولون : لم يرد ذكره فى كتــاب
وصف مصر ، وهو بالتأكيد « الحمام الموجود بخط
طولون » كمــا تذكر احــدى حجج عام ١٧١٣
( المحكمة الشرعية ، عســكرية ، دفتر ١٠٤ ،
ص ٢٢٩ ) ويرد فى خطط على باشــا ( ج ٤ ،
ص ٧٠ ) وفى قائمة بوتى ( برقم ٤١ ) ويشــير
بوتى الى بوابته الحجرية التى تغلق من أعلى لاسفل
والتى تعود الى العهد العثمانى . ولاتزال بوابته
موجودة لليوم وان كان الحمام نفسه مهجورا .

٧٥ ـ حمام الوالى : يذكر فى أحــد هوامش

شرح خريطة وصف مصر أن هذا الحمـــام يقع بالقرب من رقم 7 N 340 ( وهو رقم لم يسجل على خريطة وصف مصر عن القاهرة ) ، ويحــدد الجبرتى ( ج ١ ، ص ١٨٢ ) موقعـه عنـد طرف قصبة رضوان ، الشارع الذى يبدأ من باب زويله متجها نحو الجنوب • ويذكره جومار ( ص ٦٨٤ ) « كحمام ضخم للرجال » • ومن الواضح أنه هو حمام القربية الذى يذكره بوتى فى قائمته برقم ٢٦ والذى يشــغل نفس الموقع • وقد ذكره على باشـا بهذا الاسم ( الخطط ، ج ٤ ، ص ٧٠ ) • ولايزال الحمام موجودا لليوم •

٧٦ ـ حمام اليهود : وصف مصر 7 H 255
وفى قائمة بوتى ( رقم ١٢ ) نجد اســم حمام حارة اليهود • وحسبما يذكر على مبارك باشــا

فان حمام حارة اليهود هذا قد بناه الامير عثمـان كتخدا ، مشيد جامع الكتخدا ( قبل عام ١٧٣٦ ) ( انظر ما سبق ان قلناه عن الحمام رقم ٣٦ الوارد فى قائمتنا هذه ) • وقد اختفى هذا الحمام •

٧٧ ـ حمام يزيك : وصف مصر II I 170
بلا شــك حمام العتبة الخضراء الذى يذكره على باشا ( الخطط ، ج ٤ ، ص ٧٠ ) والذى شـيده الامير أزبكّ الذى بنى بالقرب منه مسجدا • وقد

اختفى هذا الحمـــام عند اعادة تخطيط الازبكية ( على باشا مبارك ، الخطط ج ٤ ، ص ٧٠ ) (٢)

## ثالثا ــ استغلال الحمامات :

من طبيعة الامور ان تختلف القيمة التجـارية للحمامات تبعا لاهميتها وتبعا لموقعها ، ولذا فان تلك الارقام القليلة التى استطعنا الحصول عليها من أرشيف القاهرة والتى نقدمها فيما يلى ليست لها سوى قيمة استدلالية ٠

| السنة | اسم الحمام | قيمة الحمام التجارية |
| --- | --- | --- |
| ١٧١٣ | حمام فى حى طولـــون | ٠٠٠ر١٠٠ بارة |
| ١٧٣٦ | حمـــام فى حى عابدين | ٠٠٠ر١٢٥ بارة |
| ١٧٨٧ | حمام فى حى مصر القديمة | ٠٠٠ر١٧٦ |
| ١٧٩٤ | حمام جمدار بمصر القديمـة | ٦٠٠ر٩٣ |
| ١٧٩٧ | حمام فى حى الصـليبة | ٠٠٠ر٧٨ بارة |

فمتوسط قيمة الحمـام اذن كانت لا تزيد عن ٠٠٠ر١٠٠ بارة الا بقليـــل وهو رقم ليس بالغ الدلالة اذا ما أخذنا فى الاعتبـــار التدهور الذى كانت تعانيه قيمة البارة طوال القرن ١٨ ٠ أمـا

اذا نحن قدرنا القيمة التجارية للحمـــامات التى سبق ذكرها حسب قيمة « بارة ١٧٩٨ » فاننـا نحصل على متوســـط ١٩٥٠٠٠ بارة ٠ وهذا السعر يفوق أسعار معظم المحال ذات النشـاط الاقتصادى فى القاهرة فى القرن ١٨ فيما عـدا الوكالات ( وكالة ) فقط ٠ واذا اخذنا فى اعتبارنا قيمة المبانى التى كانت تضـــمها الحمامات حتى « المتواضعة » منها ، مثل حمام قراميـدان الذى يصفه جومار بذلك ، فان هذا الســـعر لا يبدو مبالغا فيه ٠ فقد كانت القيمة التجارية لأى محل متواضع تساوى فى المتوسط ٦٠٠٠ بارة حوالى عام ١٧٩١ ـ ١٧٩٨ ٠ وهذا الثمن المرتفع نسبيا للحمامات هو الذى يفسر لنا لماذا كانت ملكيـــة الحمام فى الغالب موزعة بين عدة اشـــخاص كانت حصة كل منهم لا تتجاوز عدة قراريط م مجموع ٢٤ قيراطا ٠

وحسبما تذكره وثائق الأرشيف فانه يبدو أن الحمامات لم تكن تدار فى الغالب بواسطة ملاكها أنفسهم ، وانما كانت توكل عادة الى مستأجرين يديرونها ويدفع كل منهم ما يخصه من الايجار ٠ وكان الايجار شهريا فى العادة ، وان كانت مـدة العقد احيانا أطول من ذلك ، وكان من الممكن ان

تصل لمدة ثلاثة أعوام . وكان المستأجر يأخذ على عاتقه الاصلاحات الطارئة ، وكذلك كان عليه ان يدفع ايجار الوقف المقام عليه الحمام فى الغالب كما كان يمتلك معدات الحمام ( الحيوانات ، الاثاث أى بالدرجة الاولى السجاجيد والفوط والمحازم ( محزم ) .. ) وقد تمكنا من العثور على بعض المعلومات عن القيمة الايجارية فى وثائق الارشيف :

٢١ر٦٠٠ بارة سنويا عام ١٦٦٨ لحمام الغورية .
١٢ر٦٩٠ بارة ١٦٩٢ لحمام درب الجماميز .

٢٢ر٦٦٦ بارة عام ١٦٧١ لحمام الخراطين فى باب الشعرية ـ ٣٦ر٠٠٠ بارة عام ١٧٩٥ لحمام الخواجة فى بولاق وهذه الارقام قريبة من تلك التى يذكرها شابرول فى وصف مصر « أن أيجار مبنى الحمام ، بدون أثاث من أى نوع ، يكلف المستأجر يوميا من ٦٠ ـ ١٨٠ بارة حسب موقع ومظهر وفخامة المبنى ، وهذا ما يعطى ايجارا سنويا يقدر بـ ٢١ر٠٠٠ الى ٦٣ر٠٠٠ بارة عام ١٧٩٨ . وكانت الايجارات التى تدفع عن الحمامات ترتفع نسبيا فى بعض الاحيان اذا نحن قارناها بمتوسط القيمة التجارية للحمامات ، واذا حولنا قيمة الايجارات التى ذكرناها على التوالى

بارات حسب قيمة البارة عام ١٧٩٨ ، فاننا نحصل على ارقام تبين أن متوسط الايجار السنوى كان يصل الى ٤٩٫٠٠٠ بارة وهو ما يعادل ١/٤ متوسط القيمة التجارية للحمام . فتأجير الحمامات كان اذن عملا مدرا للربح الى حد كبير لمالكه الذى كان يحصل خلال مدة قصيرة على تكاليف انشاء حمامه .

وكانت التجهيزات الداخلية للحمام فى العادة متواضعة لحد لاتسبب معه متاعب كبيرة للمستأجر وفى هذا الخصوص كتب شابرول يقول : لا يلزم لتجهيز حمام بسيط سوى تسعمائة بارة أما اذا اردنا تاثيثه بطريقة طيبة ، أى بطريقة تجعله فى نفس مستوى اكبر عدد من حمامات المدينة فان ١٨٫٠٠٠ الى ٢٧٫٠٠٠ بارة تعتبر كافية ، ولاتصل تكاليف أفخم الحمامات تأثيثا لأكثر من ٢٫٠٠٠ الى ٩٠٫٠٠٠ بارة .

وهنا أيضا نجد تقديرات شابرول تتفق مع البيانات التى وجدناها فى وثائق الارشيف أما ما يلزم لتشغيل الحمام فكان كما يلى : ماشية لجر السواقى ( أطوار ــ جمع طور « ثور » ) ولنقل الوقود المستخدم فى تسخين الماء ، أوان نحاسية ( وقد بلغ ما كان يوجد من هذه الآنية فى حمام

الكلاب أحد عشر اناء يساوى الواحـد منها ١٣٠ بارة ٠ )

مفارش وسجاجيد وصناديق ٠

وأخيرا فوط ومحازم ( محزم ) لرواد الحمام ، وكانت توجد بأعداد محدودة جدا فقد كان عدد الفوط فى حمام الغورية ٣٠ فوطة ، والمحازم ٣٨ محزما تبلغ قيمتها جميعا ٤٣٩ بارة ٠ ولم يكن ما يوجد بحمام الكلاب يزيد على ٤٠ فوطة و ٨٣ محزما تساوى كلها ١ر٥٣٧ بارة ، وأخيرا فقد كان بحمام الخواجة فى بولاق ٨١ فوطة قيمتها ٣٢٤ بارة ٠

وكانت القيمة الاجمالية للادوات الموجـــودة بالحمام ـ كما أمكننا تقديرها من دراسة العـديد من تركات الحمامية ( جمع حمامى ) ضئيلة لحد ما : ١٣ر٠٠٠ بارة ( حمام درب الجماميز سـنة ١٦٩٠ م ) ـ ١٦ر٩٣٧ بارة ( حمام الكلاب سنة ١٦٩٢ م ) ـ ١٢ر٧١٣ بارة ( حمام المصبغة سنة ١٦٩٦ ) ٠

ان تلك البيانات التى قدمها شابرول هى التى تفسر لنا التغيير الـــذى كان يتناول مستأجرى الحمامات المتواضعة وهى نوع الحمامات المنتشر بالقاهرة ٠

وحين نتعرض لعدد رواد الحمام فى اليـوم

الواحد فان رقم ٥٠ — ٦٠ يبدو قريبا من الصحة اذا وضعنا فى اعتبارنا ما سبق أن عرفنـــاه عن كمية وعدد الفوط والمحازم المستعملة داخـــــل الحمامات المختلفة . ويتراوح ما كان يدفعـــــه العميل فى هذا النوع من الحمامات بين ٨ ، ١٠ ، ١٥ بارة أى بمتوسط قدره ١١ بارة . وعلى هذا فان الدخل اليومى الناتج عن تردد ٥٥ عميـــلا كان يصل اذن الى ٦٠٥ بارة .. ويذكر شابرول أن صيانة الاثاث تتكلفيوميا من ١٠ — ٤٠ مدينى كما يتكلف اطعام الماشية ٢٠ مدينى وتسخين المياه من ١٢٠ — ١٨٠ مدينى يوميا . ومن الارجح أن عدد العاملين بالحمام كان كبيرا لحد ما ، وقـــد قدر ايفليا جلبى عدد العاملين بـ ٥٥ حمـــــاما بـ ١٫٠٠٠ خادم و ١٫٢٠٠ مدلك ( دلاكين ) ، أى بمتوسط ٤٠ عاملا للحمام الواحد . وعلى هـــذا فرقم ١٢ — ١٣ خادما الذى يقدمه شابرول هو فى الحقيقة بالغ التواضع اذا أخذنا فى الاعتبار تعدد العلميات الضرورية فى الحمـــام ( كالادارة الفنية ، والعنـــاية بالزبائن ) وفيما عدا حارس الحمام الذى كان يتقاضى وحده ٣٠ بارة يوميا ، فقد كان العاملون يحصلون على اجورهم عـــلى هيئة « بقشيش » ( صبيان الحجرة الاولى ) أو يحصلون على ١/٤ متوسط ما كان يدفعه العميل

عادة « العمال القائمون بالخدمة الداخلية » ..
وفى المثال الذى اخترناه فان مصاريف العاملين
كانت تصل الى اكثر من ٣٠٢/٢ بارة ٠٠ وحيث ان
الايجار السنوى كان يصل الى ٢١٫٠٠٠ بارة ،
فان ايجار الحمام فى اليوم يقدر بـ ٦٠ بارة ، وحيث
أن من الصعب تقدير استهلاك الادوات ، وحيث
أن هذه الادوات ـ وزيادة على ذلك ـ كانت
عرضة للاهمال الناتج عن حركة الاستعمال
اليومى ـ لذا فاننا لن نلقى لهذا الامر بالا فى
الميزانية العامة التى توصلنا اليها .

| | | |
|---|---|---|
| دخل يومى | ٦٥٠ | بارة |
| مصاريف يومية : | | |
| صيانة الاثاث | ١٠٫٠ | بارات |
| تغذية الماشية | ٢٠٫٠ | بارة |
| وقود | ١٢٠٫٠ | بارة |
| مرتب الحارس | ٣٠٫٠ | بارة |
| أجور العاملين | ٣٠٢٫٥ | بارة |
| ايجار | ٦٠٫٠ | بارة |
| مجموع المصروفات اليومية | ٤٥٢٫٥ | بارة |
| الربح اليومى | ٦٢٫٥ | بارة |

وعلى هذا فان الربح اليومى للمتعهد القائم

باستغلال حمام من النوع الصغير لم يكن ليتجاوز كثيرا ٦٠ بارة وهو دخل شديد التواضع ، اذ كان العامل البسيط يتقاضى ٢٠ بارة يوميا عام ١٧٩٨ وحيث كان حارس الحمام نفسه يتقاضى ٣٠ بارة فى اليوم الواحد .

ولذا فليس ثمة ما يدعو للدهشة من أن نجد مستغل « مدير » الحمام الذى يدفع ايجارا لحمامه والذى كان تطلق عليه الحجج اسم « الحمامى » وأحيانا المدولب ، أن نجده هو وأمثاله فى الغالب أناسا محدودى الثراء .. وبالتأكيد فالحالات هنا تختلف ابتداء من المعلم شرف الدين الذى ترك بعد وفاته عام ١٦٦٤ تركة ضئيلة قدرت بـ ١٫٨٠٠ بارة الى حالة مدولب حمام الكلاب حجازى ابن عمارة الذى قدرت تركته عام ١٦٩٢ بـ ١٤٦٫١٩٨ بارة والذى كان يعد من اغنياء القاهرة . ومع ذلك فان متوسط تركات الـ ١٣ « حمامى ومدولب » التى وجدناها فى أرشيف المحكمة الشرعية بين عام ١٦٣٢ و ١٧٩٨ لم يتجاوز ٢٥٫٢٩٢ بارة « حسب السعر الثابت » وهى لاتزيد الا بنسبة ضئيلة عن متوسط تركات الحرفيين ، تلك الطائفة غير المحظوظة بالقاهرة ، كما أنه — أى متوسط

تركات الحامية ــ شديد التواضع بالنسبة لمتوسط تركات تجار القاهرة.

وفى هذه الحالة التى تشغل فيها الحمامات تلك المنزلة التى حددنا للتو مبلغ ما تعود به من نفع ، فقد يكون من المفيد أن نتعرف على اولئك الذين كانوا يمتلكون رءوس الاموال اللازمة لشراء الحمامات ويحصلون بالتالى على نصيب الاسد من أرباحها . ولكن ليس لدينا للاسف الا القليل من المعلومات عن ملاك الحمامات فى نفس الوقت الذى تقدم فيه وثائق الارشيف التى لدينا المزيد من المعلومات عن مستغلى « مستأجرى » هذه الحمامات : الحمامى أو المدولب .

ومن جهة أخرى فان بناء الحمامات كان يتم استجابة لدوافع أبعد من ان تكون بقصد الربح وحده ، فالدوافع الدينية الخالصة تفسر نشأة الكثير منها ، كالرغبة فى أن يلحق بالمسجد ذلك المرفق الذى يعتبر مكملا طبيعيا له ، أو كالحرص على ضمان دخول ثابتة لمؤسسة دينية أو خيرية عن طريق ايقاف ريع بناء ما عليها ، وفى أحيان اخرى قد نجد فى ذلك ــ أى فى الاهتمام بانشاء الحمامات دليلا على إهتمام عقلية ما بالشئون الحضرية « شئون البلديات » ، كأن

يسعى أحد الباشوات على سـبيل المثال — بانشائه أحد الحمامات — الى أن يربط اسـمه بانجازات نافعة للعامة .

بعد تلك الملاحظات ، فان المرء ليصدم حقيقة بذلك العدد الكبير نسبيا من الحمامات التى أنشأها أو تملكها الكبار « الطبقة الارستقراطية » . فمن بين ١١ حماما نعرف أسماء ملاكها الاصليين فاننا لا نجد من بين هؤلاء الملاك سـوى اثنين من المدنيين « هما : تاجر البن محمد دادا الشرايبى « حمام رقم ٦٣ » ، والحاج ابراهيم الملاطيلى « حمام رقم ٤٠ » ، مقابل ٣ باشوات « مصطفى باشا ، حمام رقم ٢٢ ، سنان باشا ، حمام فى بولاق ، محمد باشا ، حمام رقـم ٥٥ » و ٥ شخصيات تنتمى للفرق العسكرية الحاكمة : بيك زادة الذى تزوجت ابنته من حسن كتخدا القزدغلى ثم عثمان كتخدا القزدغلى ، حمام رقم ٢١ وابراهيم جاويش ، حمام رقم ٣٥ ، ومحرم أفندى ، حمام رقم ٢٣ ، واحمد جوريجى ابن يوسف حمـام رقم ١٧ ، وعثمان كتخدا القزدغلى ، حمامان رقم ٣٦ ، ٣٧ .

وتذكر وثائق الارشيف أسماء لملاك للحمامات العامة تتفق مع ما ذكرنا ، فقد كان من ممتلكات

يوسف أغا البنات التى عرضت للبيع عام ١٦٨٧ حمام كائن فى حى الحبانية ، كما كانت تركة سليمان كورجى كتخدا من طائفة مستحفظان « الانكشارية » تشمل من بين ما تشمل من عقارات حماما كان يقع هو الآخر فى حى الحبانية « ١٦٩٠ م » ، كما كان حسين كتخدا الدمياطى الذى صفيت تركته عام ١٧٣٦ مالكا لحمام فى حى عابدين ، وفى عام ١٧٩٤ اشترت محبوبة بنت الامير سليمان شوربجى تفنكجيان « ابن محمد بك الفقارى » من سليم الشربتلى ٣ قراريط فى حمام بحى مصر القديمة ، وكذلك كان ابراهيم كتخدا مذاو الذى توفى عام ١٧٩٧ مالكا ل : ٣ قراريط فى حمامين فى خط الصليبة ، وأخيرا فان احدى وثائق الارشيف بفينا تشير الى أن الست نفيسة زوجة مراد بك كانت فى عام ١٨٠٠ مالكة لاحد الحمامات .

## رابعا : التنظيم الطائفى عند الحمامية :

يبدو أن التقاليد الطائفية « النقابية » عند الحمامية كانت قوية لحد كبير اذ أنهم وحتى نهاية القرن ١٩ ، فى وقت كانت الروابط الطائفية فى كثير من الحرف قد ضعفت فيه ، ظلوا يقومون باحتفالات « الشد » (٣) ، وكان يمارس هذا

التقليد بالاضافة اليهم : الحذاءون والحلاقون .
ويفترض ج . باير الذى اكتشف هذه الظاهرة أن متانة العادات الطائفية تلك كانت تعود على الارجح الى أن سليمان باك الفارسى رئيس رؤساء الطوائف بعد على (٤) ، كان فى نفس الوقت رئيسا خاصا لطائفتى الحلاقين والحمامية كما ورد ذكره فى واحد من أهم النصوص التى تتحدث عن العادات الطائفية : كتاب الذخائر .. الا أن المقارنة بين مختلف النصوص التى تتعرض للفتوة ، التى تصور على أنها أساس لتنظيم الطوائف الحرفية فى العهد العثمانى بمصر هذه المقارنة تؤدى مع ذلك الى الظن بأن السبب كان أكثر تعقيدا والى الظن كذلك بأن التقاليد الطائفية لم تكن تستمر فى طريقها دون أن تعترضها بعض الاضطرابات والتناقضات .

وفى الواقع فان المخطوط الموجود بمكتبة جوتة برقم ٩٠٣ يبين أن سليمان باك الفارسى أول شيخ نصبه على كان رئيسا لطائفة الحلاقين وأنه كان يرتبط به « كل من يمارسون فن الحلاقة بما فيهم الحمامية » ومع ذلك فانه يبدو أن من المشكوك فيه أن تكون طائفة الحمامية مرتبطة على الدوام بشيخ بمثل هذا النفوذ ، ذلك أن أيا من النصوص الاخرى التى تتعرض لمسألة الفتوة

والتى تجمع كلها على وصف سليمان بأنه شيخ الحلاقين لم توضح أن الحمامية كانوا يشاركون الحلاقين فى الزعامة الطائفية ، بل أن هـــذه المخطوطات جميعا — على العكس من ذلك — تتفق على أن تجعل من محسن بن عثمان . وهو شخص مات فيما يقال عن ١١٧ أو ١٧٠ عـــاما ودفن فى بغداد ، شيخا لنواطير « حـــراس » الحمام . وهنا نجد ما يغرينا على أن نفترض أن محسن بن عثمان هذا كان فى الواقع هو شـــيخ الحمامية وهذا ما يوضحه مخطوط مكتبة جوته رقم ٩٠٣ كتاب الذخائر فى نص آخر ، وهـــذا أيضا ما ذكره ايفليا جلبى الذى كان على علـم تام بهـــذه المسائل سواء ما يتعلق بحمـــامية « حمامسيان » استانبول أو حمامية القاهرة .. وحسبما يقول ايفليا جلبى فان النواطير «ناطيران» كانوا تحت امرة منصور بن قاسم .. ومهمـــا يكن الامر ، فمما لا جدال فيه أن ثمة صـــلات طائفية وثيقة كانت قائمة بين الحمامية والحلاقين فقد كان الحمامية يســـيرون ضمن الحلاقين فى المواكب التى كانت تنظمها الطوائف الحرفية فى القاهرة والتى نقل الينا ايفليا جلبى نظام ترتيب الطوائف فيها .

وتبين بعض النصوص التى أطلعنا عليهـــا

مؤخرا أنه كان ثمة طائفتان متميزتان ، واحدة للحمامية وأخرى للنواطير . ومع ذلك فان وثائق الارشيف التى أطلعنا عليها والتى يعود الجزء الاكبر منها الى القرن ١٧ والقرن ١٨ لا تشير الا الى طائفة واحدة فقط هى الحمامية ، وان كان من الصحيح أيضا أنه اذا كانت حجج المحكمة الشرعية لم تورد ذكرا الا لطائفةالحمامية « حمامى أو مدولب » فقد كان النواطير على درجة من الفقر لا يمكن معها أن تكون تركاتهم موضوعا للتصفية أمام القاضى .. وأخيرا فلايذكر أهم المؤرخين « أحمد شلبى والجبرتى » سوى طائفة الحمامية . وربما كان ثمة خلط فى بعض الأوقات بين الحمامية وممثلى الحرف الأخرى فى داخل نفس السياج النقابى ، فقد وجدنا على سبيل المثال ذكرا « لطائفة الفراشين والحمامين بمصر » باحدى حجج دار المحفوظات بالقلعة يعود تاريخها الى عام ١٨٠٠ ، كما وجدنا ذكرا لطائفة القهوجية والحمامين « بالقاهرة ومصر القديمة وبولاق والجيزة فى قائمة Vincennes ( برقم ١ ) عام ١٨٠١ . لكن هذه الشواهد تعود الى تاريخ جد قريب ، اذ تعود الى فترة الحملة الفرنسية على مصر ، كما يمكن لذلك أن تكون ناتجة عن تعديلات

أدخلها الفرنسيون المحتلون لتبسيط ادارة الحرف بالقاهرة ·

ان المعلومات التى استطعنا ان نجمعها عن مشايخ طائفة الحمامية من واقع ما جاء بحجج المحكمة الشرعية غامضة وجزئية لحد كبير ، حد لا يمكن معه استخلاص نتائج دقيقة · وهاهى اسماء مشايخ هذه الطائفة التى امكننا ان « نلملمها » أثناء تنقيبنا فى الوثائق: الشمسى محمد (١٦٦٣م) أحمد ( ١٦٨٦ ) ، الحاج رمضان ( ١٦٩٠ ) احمد بن احمد ( ١٦٩٢ ) ، الحاج محمد ( ١٦٩٦ ) الحاج رمضان ( ١٦٩٩ ) الحاج أحمد الركبدار ابن المرحوم الحاج محمد الركبدار ( ١٧٦٠ و ١٧٦١ ) ، الحاج بدوى ابن المرحوم الشيخ موسى الأجهورى ( ١٧٨٧ ) ، أحمد ابن المرحوم الحاج بدوى ( ١٧٩١ ) ، الحاج عثمان فراش الامير ابراهيم بك ( ١٧٩٤ ) ، الحاج على حسن ابن المرحوم حسن ( ١٩٧٤ ) · والملاحظات الوحيدة التى تدعمها هذه القائمة ، تقدم لنا فائدة جمة عند دراسة مشايخ الطائفة ، لكن هذه البيانات ليست على الدوام خاصيات مميزة لطائفة الحمامية اذ أن مهام شيخ الطائفة لم يكن لها على الدوام شكل مطلق ، كما توضح ذلك حالة الحاج رمضان

شيخ الطائفة عام ١٦٩٠ . وكانت هذه الوظيفة فى بعض الاحيان وراثية كما نلمس ذلك بوضوح فى حالة الحاج بدوى شيخ الطائفة عام ١٧٨٧ وابنه احمد شيخ الطائفة عام ١٧٩١ وان كنا لا نعرف ماان كان الاخير قد خلف أباه مباشرة أم لا .

ولم تكن طائفة الحمامية فى تنظيمها الداخلى ، تختلف فى شىء عن بقية الطوائف ، فكان شيخها - كما فى معظم الطوائف - يعاونه نقيب ، كما كانت ممارسة الحرفة تخضع لعادات محددة ، فبخلاف ما كان على الحمامية أن يدفعوه لشيخ الطائفة عند تنصيبهم فى مرتبة الأسطى ، ذلك التنصيب الذى كان يتم فى حفلة الشد ، فقد كان عليهم ان يدفعوا « الجدك » أو « الخلو » الذى يسمح لهم بممارسة المهنة فى محل معين (٥) . وكان الجدك ضمانا لحائزه ضد أى ابطال لصلاحية محله فى الاستخدام المهنى . وحيث انه كان قابلا للأيلولة ، وكذلك للتنازل عنه ، فقد كان يسجل ضمن موجودات التركات وتوضح ذلك البيانات التى عثرنا عليها فى بعض تركات الحمامية ، حيث كان الجدك بمثابة راس مال مهنى هام ، يجعل من الدخول الى الحرفة امرا عسيرا على غير ابنائها ففى تركة مدولب حمام الكلاب ( ١٦٩٢ ) التى

بلغت ١٤٦ر١٩٨ بارة ، كان الخلو يمثل وحده
٥٦٢ر٦٨ بارة اى ما يساوى حوالى نصف موجودات
التركة ، ولذا فقد كان من الممكن تقسيم الخلو الى
حصص كما كان يحدث بالنسبة لملكية الحمام
نفسها ، فعلى سبيل المثال كان متعهد حمام درب
الجماميز المتوفى عام ١٦٩٢ يمتلك ١/٤ خلو الحمام
فقط أى ما يساوى ٦٧٨ر١٩ بارة من قيمة الخلو
الاجمالية التى تبلغ ٧١٢ر٨٧ بارة ، وبعد ذلك
بعدة سنوات ، فى عام ١٦٩٩ ، لم تعد قيمة ١/٤
الخلو فى هذا الحمام تساوى اكثر من ٥٠٠ر١٥
بارة ، ويمكن تقدير قيمة الخلو الاجمالية فى هذه
الحال بـ ٠٠٠ر٦٢ بارة . والمقارنة بين هاتين
القيمتين توضح ان ثمن الخلو يمكن ان يتغير ،
لكننا للاسف لسنا فى وضع يسمح لنا بأن نصل
الى كيفية تحديد هذه القيمة ، وتبعا لأية ظروف
كانت تتغير قيمة الجدك .

ومن جهة أخرى ، فاننا لم نجد فى أى مؤلف
ما يتطابق مع قدمه شابرول بخصوص السلطة
القضائية التى كان شيخ الحمامية يمارسها على
« ٢٤ شيخا من شيوخ بعض الحرف الأخرى مثل
الخيامية والجمالين والمغنين والحمارين .. »
وحسبما يذكر شابرول فقد كان رئيس طائفة

الحمامية « يقضى فى الخلافات البسيطة التى تنشأ بين هذه الفئة من الناس فيما يختص بموضوع مهنتهم » كما كان يتوجه اليه عند الحاجة للحصول على كثير من دواب الحمل لغرض ما . وكان يفرض على تابعيه عديدا من الضرائب الصغيرة بعضها ثابت وبعضها الآخر طارىء ، ولكى يحصل على هذا الامتياز ، فقد كان لزاما عليه ان يدفع لمختلف ضباط الأوجاقات اتاوة ثابته ، نقدا او عيناً .

وحسبما جاء باحدى حجج المحكمة الشرعية التى يعود تاريخها الى عام ١٦٩٢ ، والتى تذكر بخلاف العوائد التى كان يجبيها الشيخ عادة من طائفته ، الحقوق الممنوحة لل « مهترباشى » . ومن الممكن ان نفترض ان هذا الضابط ، ذا الرتبة المتواضعة ، كان قد مارس فى زمن ما على الأقل سلطة الاشراف على الحمامية (٦) ، لكن الأمر المؤكد هو أن الحمامية ، شأنهم فى ذلك شأن غالبية الطوائف ، كانوا خاضعين لسلطة أغا الانكشارية الذى كانت السلطات البوليسية التى فى حوزته واسعة لحد كبير فى القرن الثامن عشر .

ويقدم لنا مؤلف أحمد شلبى مثالا محسوسا على الحد الذى وصلت اليه تلك الولاية البوليسية حين تحولت الى نظام للابتزاز المالى ، ففى عام

١٧٢٣ وعقب حادث نشب بين « متعمم » وصراف امر أغا الانكشارية بأن ينادى فى المدينة بأن على اليهود والنصارى الذين يريدون الذهاب الى الحمامات أن يعلقوا فى رقابهم جرسا صغيرا حتى « يتبين الكافر من المؤمن » وهنا تجمع الحماميون خوفا من أن يلحق هذا الاجراء العنصرى خسارة بحرفتهم ، حيث سيفضل « الذميون » بلاشك الامتناع عن الذهاب الى الحمامات بدلا من الخضوع لهذا الاجراء ، وقرروا أن يكتتبوا ليقدموا « هدية » قدرها ٨٠٠٠٠ر٨ نصف فضة ( بارة ) الى أغا الانكشارية ، وعندئذ تراجع الاخير عن قراره .

وفى حوالى نهاية القرن الثامن عشر أصبحت طائفة الحمامية تخضع للوصاية المالية والادارية للبكوات الحكام ، كما يوضح ذلك بجلاء حقيقة أن شيخها عام ١٧٩٤ كان هو نفسه فراش ابراهيم بك .

# هــوامش :

(١) الأرقام الواردة بعد كلمة وصف مصر تدل على موقع الحمام على خريطة وصف مصر فعندما نجد مثلا 67 S II فانه يعنى الحمـــام رقم ٦٧ الواقع فى مربـــع S II

(١) نجد عند الجبرتى ذكرا لحمامين لم نوردهما فى قائمته هذه . وفيما يتصل بحمـام القيصرلى الذى لم يورده الجبرتى سوى مره واحده (ج ٣ من ٢٧١) فان المؤرخ لم يقـــدم

اية معلومات تسمح بتحديد موقعه . وفى مقابل ذلك فنحن نعلم أن حمام السكران الذى أشير اليه عند ذكر حوادث وقعت فى بداية القرن ١٨ (من ص ٣١ ، ١٠١) كان يقــع على طرف بركة الفيل من جهة طولون ، وعلى ذلك فربمــا يكون هذا الحمام اما واحدا من الحمامات التى وردت بأرقام ٢٨ ، ٤٧ ، ٤٨ والتى يحتمل أن يكون اسمها قد تغيــر على مدى القرن ، واماأنه حمام آخركانيقع فى مربع T 8 أو T 6 على خريطة وصف مصر .

(٣) كان قبول عضو جديد باحدى الطوائف الحرفية يتم على مراحل ، تبدأ كل مرحلة بحفل معين :

(أ) حفل الالتحام : ويتم عند انضمام الصبى الى الطائفة وفى ختامه يصبح الطفل صبيا لدى الاسطى .

ب ــ حفل العهد ، وفيه يلقى الاسطى باسئلة يجيب عليها ثم يلقى عليه بعض النصائح ثم يتلو عليه القسم .

(جـ) حفل الشد : وفيه يدخل العامل سياج الطائفة ويصبح صنايعى أو مشدود وعند نهايته يناشد الطالب الحشد بأن يطلبوا من الشيخ أن يستجيب لطلبه ويقبله عضوا بالطائفة ، بعد قراءة الفاتحة الكبيرة ثم يتوضا ويصلى ثم يعقد فى حزامه أربع عقد : واحدة لكبيره هو ، وواحدة لكبير كبيره (الجد) ، وثالثة للطائفة والرابعة لامام العلوم على بن أبى طالب .

(د) حفل الاذن وبعده يحصل الصنايعى على ترخيص بمزاولة تعليم الحرفة ويصبح بذلك أسطى . ثم تقام حفلات شد أخرى يترقى بعدها فى مراتب الطائفة وهى مرتبة البيشرويش ، ثم مرتبة النقيب الثانى أو الوسطانى ، ثم مرحلة النقيب أو النقيب الكبير وأخيرا مرتبة الشيخ . أنظر رءوف عباس ، تطور الحركة العمالية فى مصر ، ١٩٦٨ .

(٤) المقصود هو الامام على بن ابى طالب ( المترجم ) .

المترجم

(٥) فى وثائق الارشيف المصرى تبدو كلمة جدك مرادفة لكلمة خلو وكانت الكلمتان تستخدمان بالتناوب مع اطراد استخدام كلمة خلو .

(٦) كان المهترباشى رئيسا لفرقة الموسيقى التى كان يعين من أفرادها ستة أو سبعة أشخاص للعزف فى كل كل أوجاق فى كل حصن ( قلعة ) ، وعند كل باب له حارسان (طوبجيان ــ طوبجى) .

# جغرافية الاحيـــاء الارستقراطية في القاهرة فى القــــرن الثامن عشر

## من الغزو العثمـــانى حتى منتصف القرن الثامن عشر ·

### (أ) فى بداية القرن السادس عشر :

ان اية دراســة عن الاحياء التى أقامت بهـا الطبقة الارستقراطية (١) فى القاهرة ، فى القرن الثامن عشر ، لابد أن تتخـذ كنقطة بداية لها عام ١٥١٧ ، وهو تاريخ سـقوط الاسرة المملوكيـة الثانية ، وبدء استقرار السيطرة العثمانية عـلى مصر :

ويمكننا ــ استنادا الى النصـوص التاريخية والى المعلومات التى نستقيها من الآثار ــ (٢) أن

نقدم ملخصا عن اماكن اقامة كبـــار الشخصيات المملوكية فى السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر والسنوات الاولى من القرن السادس عشر ٠ ومثل هذا الملخص ، سوف يسمح برسم الخطوط العامة الجغرافية الاماكن التى أقام فيهـــا هؤلاء « الكبار » ٠

جدول رقم ١ يبين توزيع مناطق اقامة الطبقـة الارستقراطية فى المدينة فى بداية القرن السادس عشر ٠

| | | |
|---|---|---|
| القاهرة ( ٦ ) | ٩ | ١٧٪ |
| حى القلعة | ١٩ | ٣٦٪ |
| بقية الشط الأيمن للخليج بما فى ذلك قناطر السباع وبركة الفيل | ١٤ | ٢٦٪ |
| الشط الأيسر للخليج بما فيه الأزبكية | ١٠ | ١٩٪ |

ومع نهاية حكم الفاطميين ، كفت المدينـة التى أسسوها عن أن تكون مركزا للسلطة السياسية ، اذ قام الايوبيون بنقل مقر الحكومة الى القلعـة ، وأمتدت الانشطة التجارية والصناعية ( الحرفية ) لتشغل الاماكن التى كانت تشغلها ـ فيما سبق قصور الفاطميين ٠

وفى عهد الأسرات المملوكيـــة ، تجاوز نمـو

المدنية كثيرا ، تلك الحدود المبدئية للقاهرة (٣) التى كان يحدها شمالا باب النصر وباب الفتوح وغربا على الخليج ، باب الشعرية وباب الخرق ( باب الخلق حاليا ) ، وجنوبا ، شارع تحت الربع وباب زويلة ، أما شرقا فكان يحدها السور وبالرغم من كثافة الانشطة التجارية والحرفية فى الشمال عند الحسينية وفى الحى الجنوبى : قوصون ( قيسون حاليا ) ، ابن طولون ، مصر القديمة وعلى الشط الغربى للخليج المصرى ، فقد ظل مركز الثقل للحياة الاقتصادية بالقاهرة ، وخاصة فيما يتعلق بالمنتجات الفاخرة ، وبضائع الترف ، التى كانت سببا فى ازدهار وشهرة المدينة • وبالقرب من أهم أحياء الاسواق ، فى القصة ( بين باب الفتوح وباب زويلة ) ، وقريبا من الأزهر ، كان يقيم التجار والمشايخ • ومع ذلك فقد ظل عدد كبير من بيوت « الكبار ينشأ فى المكان الذى كان – فى زمن الفاطميين – الحى الرئيسى للطبقة الارستقراطية ، ومنطقة لقصور الخلفاء •

وقد ادى انتقال مركز السلطة السياسية الى القلعة ، تلقائيا ، الى اقامة عدد من كبار الشخصيات بالقرب من « القصر » ، فى نفس الوقت الذى هجرت فيه القاهرة كثير من الانشطة

الحرفية والتجارية المتصلة بالأغراض العسكرية وجاءت لتستقر حول ميــدان الرميلة : ســوق السلاح ، وسوق للخيــول والجمال فى الرميلة ، وسوق للخيام ٠ كما ان ازدهار المنشئات الحضرية والدينية فى الحى الواقع جنوب باب زويلة ـ فى زمن المماليك ـ دليل على نمو هذا الحى واتساعه ٠

وفى بداية القرن الســادس عشر ، انتشرت قصور « الكبار » بطول الشوارع المؤدية الى الرميلة فى سفح القلعة : حوالى ٢٠ قصرا ( بنســبة تزيد على ١/٣ المجموع الكلى ) ، منها ١٠ شــمال الرميلة ( سوق الغنم ، سويقة العزى ، سوق الســلاح ، سوق القبو ) وثلاثة فى الغرب تجاه حى قوصون ( حدرة البقر ) ، وأربعة فى الجنوب : ( حــدرة الكماجين ) (٤) ٠ وهذا التوطن الارستقراطى ، وما صحبه من انتقال الانشطة المختلفة وعملائها ، هو الذى يفسر لنا ازدهار ونمو هذه الاحيـــاء ، وتضـــاعف عدد السويقات والاســواق غير المتخصصة ، التى لم تتجاوز خمسة اسواق فى القرن الخامس عشر : سوق جامع قوصون ، سوق ابن هنس ، سوق ربع طفجى ، ســويقة العزى ، سويقة منعم ٠

أما بركة الفيل ، فقــد أصــبحت أحــد أحياء المدينـــة « الراقية » بعد أن قام بها حوال ١/٥

عدد افراد الطبقة الارستقراطية ، فى بداية القرن السادس عشر • وقد بدأت اقامة هؤلاء على الشط الشرقى للبركة ، الذى كانت توجـد فيـه زمن المقريزى ببيوت وشوارع بينما كان الشط الغربى لايزال مجرد حدائق ، كما ان عدم وجود اسواق فى الجنوب الغربى لسويقة العصفور ، يؤكد ان هذا القطاع كان قليل المساكن فى هذه الفترة • ومع ذلك ، فان تشييد العديد من المساجد خلال القرن الخامس عشر ، فى المنطقة الواقعة بين البركة والخليج ، يدل على بداية حركة عمران متنامية •

وفى أقصى الشمال ، بين الحد الجنوبى للقاهرة ( باب زويلة ) وأحياء القلعة وبركة الفيل ، كانت تمتد منطقة شبه خالية من أى مسكن أرستقراطى، ويرجع ذلك بلا شك ، الى وجود المدابغ التى تبعث بطبيعتها على الضـيق ، والتى كانت قد استقرت بطريقـة طبيعية ، عنـد أبواب القـاهرة ، لكنها شيدت هناك بعض المساجد فى القرن الخامس عشر ـ ولكن على مسافة كافية من المدابغ ـ فى قصـبة رضوان ، وتحت الربع ، وبطول بركة الفيل •

أما المنطقة الغربية ، على الشط الايسر للخليج المصرى ، فقـد كانت لا تزال ـ حتى بداية القرن السادس عشر ـ خاليـة الا من « طلائع » الطبقة الارستقراطية ، اذ لم يكن ما تضـمه من « بيوت

كبيرة » يصل لنسبة الخمس وقد أشار المقريزى الى وجود عدة سويقات فى هذ المنطقة ، وان كان أغلبها ظل بالقرب من الخليج : سويقة الخادم ، سويقة العجمى ، سويقة صفية ، سويقة القيمرى وسويقة السباعين · وهذا هو نفس الحال مع المساجد التى أقيمت فى هذه المنطقة ، فى القرن الخامس عشر · أما ضواحى البرك المتفرقة فى هذه المنطقة ـ وكانت مليئة بالحدائق والاعشاب ـ فقد كانت بالفعل مقرا مشهورا لاحتفالاتالاعياد الهامة فى الصيف ، حين كان فيضان النيل يملأ بمياهه هذه البرك ، وحيث يعود اتساعه الى القرن الرابع عشر ـ وكذلك بركة الرطلى (٦) وعند نهاية القرن الخامس عشر ، كان الامير أزبك قد « اقتحم » الازبكية نفسها ، وان ظل عدد الامراء الذين أقاموا بها خلال السنوات الاولى من القرن السادس عشر ، قليلا · وكانت هذه الضاحية من المدينة ـ فى هذه الفترة ـ لا تزال منطقة ريفية سيئة السمعة (٧) ·

## ( ب ) « الاحياء الراقية » من منتصف القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر :

تحول ندرة المصادر التاريخية وضحالتها ، دون أن نتابع بدقة تطور « الاحياء الراقية » للمدينة

طوال الفترة الممتدة من زمن وصـــول العثمانيين ، وحتى منتصف القرن الســـابع عشر ، ولهذا فان القيام بدراسة مفصلة عن هذه الاحياء ، لا يصبح ممكنا الا ابتـداء من عام ١٦٥٠ ، عنـدما نجد فى متناول أيدينا من جـديد ، مؤلفات أكثر تفصيلا ( وبخاصـة مؤلفات الدمرداشى والجبرتى ) تكملها الوثائق القنصلية .

## توزيع المساكن الاذرستقراطية على أحياء المدينة من عام ١٦٥٠ الى ١٧٥٥

| | بكوات | ضباط | كشاف | – المجموع |
|---|---|---|---|---|
| القاهرة | – | ٥ يمثلون ١١٪ | – ٥ | يمثلون ٦٪ |
| حى القلعة | ٥ يمثلون ١٣٪ | ٩ يمثلون ٢٠٪ | – ١٤ | يمثلون ١٧٪ |
| بقية الشط الايمن للخليج | ٢٧ يمثلون ٧٢٪ | ٢٠ يمثلون ٤٥٪ | – ٤٧ | يمثلون ٥٧٪ |
| الشط الايسر للخليج | ٥ يمثلون ١٣٪ | ١٠ يمثلون ٢٢٪ | – ١٦١ | يمثلون ١٩٪ |
| المجموع | ٣٧ | ٤٤ | – ٨٢١ | |

مع ملاحظة أن الشط الايمن للخليج كان يضم قناطر السباع وقوصون وبركة الفيل (٨) كما أن الشط الايسر كان يشمل الازبكية ·

وتكشف مقارنة هذا الجدول بالجدول السابق عن تغييرات محسوسة فى توزيع أماكن الشخصيات الكبيرة فى المدينة ، فيما بين بداية القرن السادس عشر ومنتصف القرن الثامن عشر ·

## اضمحلال دور القاهرة كحى

## لسكنى الطبقة الارستقراطية

فقدت المدينة الفاطمية فى القرن الثامن عشر جاذبيتها وأصبحت على وجه التقريب خالية تماما من أفراد الطبقة الارستقراطية الذين ظل عدد لا بأس به منهم يقيم بها حتى حوالى عام ١٧١٥ ، وعند هذا التاريخ لم يعد بها أحد من البكوات ، كما أن عدد ضباط الفرق العسكرية بها قد تضاءل لحد بلغ ٦٪ فقط من المجموع الكلى ، فى مقابل ١٧ ٪ فيما سبق .

ويعود السبب الرئيسى لذلك بلا شك ، الى تكدس الانشطة الصناعية والتجارية فى قلب القاهرة فى العهد العثمانى ، فى نفس الاماكن التى سبق ان وصفها المقريزى قبل ذلك بثلاثة قرون ، فى الفصل الذى خصصه للحديث عن الاسواق ، فقد اصبح بها ٣١ سوقا من بين ٧٧ ورد ذكرها بكتاب وصف مصر ، و ١٢ من ١٣ خانا ، ١٣٩ من ٢٠ وكالة ، متجمعة كلها فى القصبة القديمة ، بين باب الفتوح وباب زويلة والاحياء المجاورة مرجوش (٩) ، الخرنفش ، الحمزاوى ـ الصنادقية خان الخليلى ، الجمالية .. الخ ) ناسجة بذلك شبكة بالغة الكثافة من الانشطة والاعمال

الاقتصادية التى من شأنها ـ كما حدث بالنسبة لمدينة لندن ـ أن « تطرد » المساكن الخاصة . وغير بعيد من تلك المنطقة ، كانت تقوم مصانع السكر والمناسج والمغازل والمصانع وورش النجارة ، واذا كانت هذه المدينة القديمة ( القاهرة ) ، بحكم كونها مركزا للاعمال الاقتصادية ، ومركزا دينيا وجامعيا هاماً ، اذا كانت لهذه الاعتبارات مزدحمة بمساكن الصناع والتجار والمشايخ ، فان هذا الازدحام المحموم ـ بالاضافة لضجيج الشوارع ـ قد جعل منها منطقة طرد ، بالنسبة لافراد الطبقة الحاكمة من البكوات . أما بيوت الماضى الكبيرة ، فلم يعد يتبقى منها ـ فى غالب الاحيان ـ سوى الاسم أو مجرد الذكرى . (١٠) .

ومع ذلك ، فان وجود عدد لا بأس به من مساكن ضباط الاوجاقات فى القاهرة ، يمكن أن يرجع الى تلك العلاقات الوثيقة التى كانت قائمة بين الطبقات المدنية والعساكر ، وخاصة الانكشارية والعزبان . فعلى سبيل المثال ، كان الامير على الخربوطلى كتخدا ـ مستحفظان ( المتوفى عام ١٧٦٩ ) والذى كان يسكن خوشقدم ينتسب لاسرة تربطها بهذا الحى ـ وبالذات بطائفة « عقادين الرومى » (١١) ( أى

صناع الخيوط والحبال الحريرية ) ـ صلات قديمة وو ثيقة : فقد سبق أن قام الامير سليمان بك الخربوطلى بترميم جامع يحيى بن عقب ، وكذلك عندما قام احمد كتخدا الخربوطلى ( الذى كان على مملوكا له ) ببناء مسجد الفكهانى عام ١٧٣٥ ـ عند مدخل خوشقدم ـ كان يقوم بالاشراف على العمل شيخ طائفة العقادين ، الذين انشئت لهم بهذه المناسبة ـ حوانيت حول المسجد ٠ ولكننا ـ من جهة اخرى ـ نلمس عند بعض العائلات العسكرية الاخرى ، التى كانت تقيم فى قلب القاهرة ، بداية حركة هجرة ، فقد كان لابراهيم الصابونجى شوربجى العزبان ( توفى عام ١٧١٩ ) ـ وهو احد الشخصيات الهامة فى عصره ـ بيت فى حى الضببية (١٢) التجارى خلف جامع الحاكم وبيت آخر فى الازبكية ، وبعد موته اختار ابنه محمد شلبى ـ وكان كأبيه شوربجى العزبان ـ أن يذهب ليقيم فى الازبكية ، بينما ترك المنزل الموجود بالضببية لخازنداره وصهره ٠ وفى هذا ما يدل على بداية اضمحلال المكانة الاجتماعية للحى ٠ وكذلك كان لاسرة الجلفية بيت بالقاهرة (فى الخرنفش) (١٣) لكن على الجلفى كتخدا العزبان ( المتوفى ١٧٤٠ ) ، كان يمتلك كذلك بيتا فى حى قوصون على بركة الفيل ـ المكان المفضل لسكنى الارستقراطية فى

ذلك الوقت ـ وكان الكتخدا ـ فيما يبدو ـ يفضل الاقامة فيه قبل موته ، حتى ان الدمرداش وصف هذا البيت « بالدار الجديدة » بينما لم يعد البيت الكائن بالخرنفش سوى « الدار القديمة » (١٤) .

## هجر « الكبار » لمنطقة حي القلعة

لعل من أبرز الظواهر التي نلحظها في تطور أحياء السكنى الارستقراطية ، فيما بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر ، كان هجر « الكبار » لضواحي القلعة . فها نحن نحصر فيها ١٤ بيتا من ٨٢ ، أي بنسبة ١٨٪ بدلا من ٣٦٪ فيما مضى ، أي السدس في مقابل الثلث . وكذلك نرى هناك فقط ٥ بكوات من ٣٧ ـ وقد كانوا فيما سبق مكدسين بحي الصليبة . ولعله من الممكن أن نتخذ دلالة على ذلك ما فعله يوسف كتخدا العزبان ، حين حول بيته الى « وكالة » للاعمال التجارية ، بدلا من مقر للسكنى . في بداية القرن الثامن عشر ـ وهو البيت الذى عاش فيه والده محمد كتخدا البيرقي ( الذى توفى عام ١٦٩٤ ) . ومع ذلك فها نحن نجد مساكن لضباط في أحياء سوق السلاح ، وسويقة العزى ، حيث ظل عدد العسكريين هناك كبيرا حتى نهاية القرن .

ولكي نفسر مثل هذه الحركة التي تتناقض في

ظاهرها مع الجاذبيـــــة التى كان من المفروض أن تواصل تاثيرها على الصـــــفوة الممتازة - جاذبية وجود الباشا ، والحكومة ، ومعســـكرات العزبان والانكشـــارية فى القلعة - فيكفى ان نشير الى « الثورات » التى لا تنقطع ، والتى كانت تحدث فى المدينة طوال القرنين الســـابع عشر والثامن عشر ، والتى كان قصف القلعة هدفا رئيسيا لكل « ثورة » منها كما كانت المنطقة القريبة من ميدان الرميلة مسرحا لاحداثها • وأثناء هذه الثورات كان يتفجر الصراع على أشـــده بين المتنازعين لامتلاك مسجد السلطان حسن ، اما لاســـتخدامه كموقع أمامى لتغطية القلعة ، واما كموقع متقدم لصـــب النيران عليها •• هكـــذا كانت الحال فى معظم الاحيان فى زمن سلاطين المماليك •

وســـوف يطول بنا الامر ، اذا نحن حاولنا أن نعدد كل هذه الازمات ، ولكن يكفى ان نشـــير لبعض من اكثرها خطورة ، فى المصف الاول من القرن الثامن عشر • ففى حـــوالى عام ١٦٩٨ ، بلغت الاضطرابات فى القلعة حدا اضطر معه معظم سكان الحى الى مغادرة مســـاكنهم مع عائلاتهم ، والتوجه للاقامة بالمدينة • وفى عام ١٧٠٩ تصدى أوجاق الانكشـــارية للســـتة أوجاقات الاخرى

وللسناجق ، وحوصرت القلعة ، وأمر ايوب بك باحتلال النقاط الاستراتيجية ( المحجر وجامع المحمودية ) وبات على الانكشارية ان يتراجعوا ٠ وفى عام ١٧١١ ، انتهى الشقاق الذى دب بين افرنج احمد وأوجاق الانكشارية والباشا خليل من جهة ، والستة أوجاقات الباقية من جهة اخرى ، الى صراع مسلح قصف فيه معسكر العزبان ٠ ومن ابريل حتى يونية ، دارت معارك بالغة العنف حول مسجد السلطان حسن ، وفى الاحياء الواقعة بين الرميلة وباب زويلة ، واتخذت مساجد المنطقة كنقاط ارتكاز ، وعندما لم يعد ممكنا السيطرة على الموقف ، ترك كثير من سكان منطقة القلعة مساكنهم ( فى احياء الرميلة والحطابة والمحجر ) ، وتحطم عدد كبير من المنازل حول الرميلة نتيجة للقصف أو للحرائق ٠ وفى عام ١٧١٥ ـ وبعد اغتيال قابطاس بك ـ دخل الباشا فى صراع ضد محمد بك وجزء من الفرق العسكرية ، ودارت العمليات العسكرية قرب الرميلة وفى عام ١٧١٩ وقع الصدام بين محمد بك جركس واسماعيل بك ابن ايواظ ٠ وكانت المنطقة الواقعة بين الرميلة وبركة الفيل مسرحا لمعارك عنيفة ٠ وفى فبراير عام ١٧٢٦ حسم ذو لفقار بك ـ متحالفا مع محمد باشا ـ خلافه مع محمد بك جركس ، وأثناء المعارك التى

دارت حول الرميلة ، اتخذ المتخاصمون ، من أهم منشئات المنطقة ، كجامع السلطان حسن ومسجد المحمودية والحصرية وسبيل المؤمنين ، حصونا لهم . وفى عام ١٧٣٦ - بعد اغتيال محمد بك على يد صالح الكاشف - التجأ مدبرو المؤامرة الى مسجد السلطان حسن ، ولم يتيسر طردهم الا بعد معارك طاحنة كان من نتيجتها اغلاق باب المسجد المطل على سوق السلاح لمدة تقرب من نصف قرن ، وفى عام ١٧٤٧ ، عندما قام الباشا - مدعوما من ابراهيم كتخدا ورضوان كتخدا - بالتخلص من القطامشية والدمياطية ، دارت المعارك بالقرب من قوصون وقناطر سنقر . وفى العام التالى حاول الباشا - مدعوما هذه المرة بحسين بك - اسقاط « الاميرين الحاكمين » ، دارت المعارك هذه المرة فى حى الصليبة واستولى العزبان على جامع السلطان حسن ، فحالوا بذلك بين الباشا وبين النزول من القلعة والانضمام الى حسين بك ، الذى هوجم بيته فى النهاية . وأخيرا ، ففى عام ١٧٥٥ - وأثناء الازمة التى انتهت بسقوطه - قام رضوان كتخدا - على سبيل الاحتياط - باحتلال مسجدى المحمودية والسلطان حسن ، وعندما انسحب الى بيته ، فى قوصون ، احدق به اعداؤه وأطلقوا عليه الرصاص .

اذن فليس من العجيب أن بدأ « الكبـــار » يهجرون شـيئا فشـيئا تلك الاحيـاء التى كانت مسرحا لهذه الاضطرابات ، ووجدوا ضـالتهم فى تلك المنطقة الواقعة فى الشمال الغربى حول بركة الفيل - وهى المنطقة التى يحدها شرقا الشـــارع الكبير المؤدى من باب زويلة الى درب الخليفـة مارا بقوصـون ، وشـمالا شـارع تحت الربع وغربا الخليج المصرى .

## بركة الفيل كحى اسكنى الارستقراطية :

سبق ان لاحظنا ان ظهور المدابغ فى الشـمال الغربى لباب زويلة ، قد حـال دون سـكنى الارستقراطية هناك ، ولكن عندما أملى اتسـاع المدينة ضرورة نقل هذه المدابغ الى باب اللوق ، لم يعد ثمةما يعترض نشأة البيوت الارستقراطية فى هذه الجهة . وأثناء الفترة من ١٦٥٠ الى ١٧٥٥ فى المنطقة الواقعة بين قصبة رضـوان وباب الخرق لا نجد سـوى ٤ بيوت لسـكنى البكوات ، و ٥ لسكنى ضباط الاوجاقات (١٥) . لكن شـواطئ بركة الفيل كانت - على وجه الخصوص - هى التى اصبحت ، فى هذه الفترة ، الحى الرئيسى لسكنى الارستقراطية ، فقد اصبح يقيم فيها ٤٠ ٪ من عدد كبار الشخصـيات ( فى مقابل ١٧٪ عند بداية

القرن السادس عشر ) ، أما عدد البكوات ، فكان يمثل نسبة أكبر ( ١٨ من ٣٧ أى ما يعادل ٤٨ ٪ ) • وقد لمس ذلك ابن ابى السرور فيعام ١٦٥٠ حين يذكر أن اغلب سناجق المدينة كانت لهم مبان فخمة ومنشئات جميلة فى المنطقة • وبعد ذلك بحوالى خمسين عاما ، وصف احد الاوربيين الذين أقاموا بالمدينة هذه البركة بهذه الكلمات :

« ان اكثر هذه البحيرات ( البرك ) شهرة هى اكثرهن اقترابا من « القصر » ، وتحيط بهذه البركة أجمل بيوت المدينة • وهى تمتلىء بالمياه ثمانية أشهر فى العام ، وفى الاربعة شهور الباقية ، تصبح حديقة دائمة • وعند الفيضان ، نرى عددا كبيرا من المراكب الذهبية اللون ، يتنزه فيها كبار الشخصيات مع زوجاتهم عند قدوم الليل ، ولا يمضى يوم دون ان تطلق فيه الالعاب النارية أو دون ان يسمع فيه عزف الموسيقى ، وتفتح المشربيات والستائر ، ويرى فى النوافذ أعداد لا تحصى من السيدات الراقيات ، لم يكن يتاح لعين أن تلمح واحدة منهن فى الاوقات العادية وتبرق الاضواء فى السماء ، وتضاء كل البيوت •• ان هذا فى الحقيقة ، واحد من أجمل المناظر التى يمكن لليل أن يهبه للعيون » •

وكان حى قوصون هو أكثر احياء البركة جاذبية بالنسبة لكبار الشخصـيات • فقد كان لكل من ابراهيم كتخدا القازدغلى ورضوان كتخدا الجالفى ـ وهما الاميران المسيطران عام ١٧٥٠ ـ كان لكل منهما بيت فى هذا الحى • بل ان الشـط الغربى نفسه ، والذى بدىء فى سكناه فى فترة متأخرة ، قد حاز نجاحا كبيرا فى بداية القرن الثامن عشر ، اذ أقام به سبعة من البكوات فى درب الجماميز فيما بين ١٦٦٠ و ١٧٢٥ •

وعلى العموم ، فان هذا الجزء من « الشـط الايمن » للخليج ، الواقع بين القاهرة فى الشمال وحى القلعـة فى الشرق ، كان فيما بين ١٦٥٠ و ١٧٥٥ ، المكان المفضل لسكنى الغالبية الكبيرة من الامراء ، وبخاصـة البكوات ، اذ أقام فيه من كبار الشخصيات ٤٧ من مجموع ٨٢ ( أى بنسبة ٥٧ ٪ ) من بينهم ٢٧ من البكوات من مجموع ٣٧ ( أى بنسبة ٧٢ ٪ ) •

## الشط الايسر للخليج :

بدأ تغيير المناطق التى يقيم بهـا الامراء منذ انتقالها ـ أى المناطق ـ من القلعـة الى الخليج ، يتوقف فى حوالى عام ١٧٥٠ ، فنسـبة عدد « الكبار » المقيمين فيما وراء « ترعة المدينة » لاتكاد

تتغير عما كانت عليه عند مجىء العثمانيين : ١٩ ٪ فى بداية القرن السادس عشر و ١٩ ٪ كذلك فيما بين ١٦٥٠ و ١٧٥٥ وفى هذه المنطقة المليئة بالحدائق والبحيرات ، كانت البيوت الارستقراطية تتكدس قريبا من باب الخرق ، حيث كان عدد الضباط ( ومن بينهم الان ضباط أوجاق العزبان ) كبيرا لحد ما ، لكن هذه البيوت الارستقراطية ، قلما كانت تجتاز الحدود الغربية التى وصلت اليها فى القرن السادس عشر .

ويمكن ان يقال ان مكانة بركة الازبكية ، كمنطقة مفضلة لدى الارستقراطيين ، قد أصابها بعض التدهور فى القرن السادس عشر ، ولكن يبدو انها عادت من جديد لتصبح ــ عند بداية القرن السابع عشر ــ منطقة جذب ، فها هو شيخ الاسلام زين العابدين الصديقى يبنى لنفسه فيها بيتا وسرعان ماحذا الكثيرون حذوه . وهكذا ظلت الازبكية لوقت طويل ، الحى المفضل لسكنى « البورجوازية » من الشيوخ وكبار التجار ، الذين كانت أعمالهم ــ وفى غالب الاحيان بيوتهم الاصلية ــ تقع قريبا من هناك ، فى القاهرة . ومن بين الاسر التى كانت تمثل البيوت البورجوازية فى الازبكية ، كانت أسرة البكرى ، وتلك الاسرة الضخمة من التجار ــ أسرة الشرايبى (١٦)

ولايحدث أن نجد ذكرا لاسم لاحد البكوات هناك ، الا فى نهاية القرن ، عندما نجد اسم سـالم بك (سابقا سالم أفندى من ضباط الانكشـارية ) ، والذى كان بيتـه قريبا من بيت آل الشرايبى ، والذى اشتراه بعد موته عـام ١٦٩٢ القاضى مواهب ، شوربجى العزبان •

ولاسباب تغيب عنا ، كان عدد ضباط العزبان الذين يقطنون القطاع الممتد بين الخليج والازبكية فى بداية القرن الثامن عشر كبيرا • ويشير قناصل فرنسا ـ الذين عانوا منهم بعض المتاعب ـ الى ظهورهم بالقرب من الحى الافرنجى : أحمد كتخدا ( المتوفى عام ١٧٠٧ ) ثم عثمان أوداباشى حوالى ١٧٢٠ ، ثم على أداباشى ، وقيصرلى احمد كتخدا • وفى بداية القرن ، كان ابراهيم اغا العزبان «المتوفى ١٧٠٤/٣ ) ، قد شيد بالقرب من الازبكية مسجدا فى كوم الشيخ سلامة ، وسبيلا ألحق به كتـاب فى العتبة الزرقاء نفسها ( ميدان العتبة حاليا ) ، أما أول امير بارز يقيم هناك فهو ـ حسب معلوماتنا ـ ابراهيم الصابونجى شوربجى العزبان ، الذى اشترى فى العتبة الزرقاء بيت مصطفى أغا المزين ، وذلك بعـد أن كان ـ أى الامير ـ بالفعل قد تملك بيتا فى الضببية •

وبعد ذلك بعدة سنوات — عام ١٧٣٤ — شيد عثمان كتخدا القاذودوغلى بالقرب من رصيف الخشاب ، مسجدا الحق به حماما وسبيلا وكتابا ويدل تزاحم الجمهور عند افتتاحه ، وكذا سكنى الكتخدا عثمان وسليمان الكاشف على تقدم ملموس فى عمران البركة فيما وراء حى الرويعى والعتبة الزرقاء ، المزدحمين منذ زمن بعيد • ومع ذلك ، فقد ظلت المنطقة الاكثر بعدا — منطقة قناطر الدكة — فيما يبدو بمنأى عن هذه الحركة ، كما كان على حى الساكت (١٧) نفسه ان يظل منطقة خلاء شبه ريفية حتى عهد على بك ، ويبدو أن اختيار حى الازبكية لسكنى الارستقراطية ، يعود الى الوقت الذى أسس فيه رضوان الجلفى كتخدا العزبان بيته الشهير فى العتبة الزرقاء ، وهو الذى كان يعرف باسم « ثلاثة ولية » ، والذى كانت فخامته وبذخ اثاثه موضوعا للشعراء • وكما كان ابراهيم كتخدا الانكشارية شريكا لرضوان فى ممارسة السلطة ، فقد استقر هو الاخر — المثل — فى الازبكية ، فى المنزل المجاور والذى حصل عليه من محمد شلبى ابن ابراهيم الصابونجى • وقد أعطى وجود الاميرين — فى نفس الوقت وحوالى ١٧٥٠ — لهذا الحى مكانة اجتماعية ، تكاد تكون مساوية لتلك المكانة التى كانت تتمتع بها بركة الفيل منذ قرن (١٨) •

## الاحياء الارستقراطية

## فى الفترة من ١٧٥٥ الى ١٧٩٨

سوف تتيح لنا وفرة ودقة المصادر التى لدينا من الان فصاعدا ، ليس فقط ان نتابع التطور العام لاحياء التوطن الارستقراطى ، ووصف الحالة التى كانت عليها عام ١٧٩٨ - وقت مجىء الحملة الفرنسية على مصر (١٩) ، بل وأن نتابع كذلك تفاصيل المشاحنات والخلافات المبدئية التى تشكل الاساس لهذه الارستقراطية . ومنذ الان ، سوف توجد فى القمة أوليجاركية من البكوات تخسف بجانبها - وبشكل حاسم - سلطة الاوجاقات بعد موت ابراهيم كتخدا ( ١٧٥٤ ) ، ورضوان كتخدا ( ١٧٥٥ ) ، وسوف تعود السلطة السياسية والنفوذ الاجتماعى ليصبحا فى حوزتهم دون منازع حيث لم تعد الطبقة العسكرية تلعب دورا مستقلا وذاتيا ، بل انها سوف تتحطم على يد على بك ثم ينتهى بها الامر ان تتضاءل لحد تلعب معه دورا ثانويا تابعا داخل النظام المملوكى . لقد أصبحت الفرق العسكرية - منذ الان - خاضعة لاشراف البكوات ، الذين سوف يبثون فيها عملاءهم . وفى هذه الهيرارشية المملوكية ، كانت وظيفة كاشف تمثل مرحلة وسيطة قبل الحصول على رتبة بك .

## جدول يبين توزيع الطبقة الارســتقراطية

## على أحياء المدينة بين ١٧٥٥ و١٧٩٨

القاهرة : ٨ بكوات يمثــلون ٩٪ ، ١٥ ضابطا يمثلون ٢٢٪، ٩ كشافين يمثلون ٢٠٪ ، المجموع ٢٠ يمثلون ١٠٪

حى القلعة : ٥ بكوات يمثلون ٦ ٪ ، ٨ ضباط يمثلون ١٢ ٪ ، ٧ كشافين يمثلون ١٥٪ ،المجموع ٣٢ يمثلون ١٦٪

بقية الشط الأيمن للخليــج : ٣٤ بك يمثلون ٤١٪ ، ١٣ ضــابطا يمثلون ١٩٪ ، ٦ كشــافين يمثلون ١٣٪ ، المجموع ٥٣ يمثلون ٢٧ ٪

الشط الايسر للخليج : ٣٤ بك يمثلون ٤١٪، ٣٠ ضــابطا يمثلون ٤٥٪ ، ٢٢ كشــافا يمثلون ٥٠٪ ، المجموع ٨٦ يمثلون ٤٥ ٪

المجموع : ٨١ بك ، ٦٦ ضابطا ، ٤٤ كشافا المجموع الكلى ١١٩١

● تدخل بركة الفيل فى الشــــط الايمن ، والازبكية فى الشط الايسر ٠

## جدول يبين توزيع الطبقة الارستقراطية على أحياء المدينة عام ١٧٩٨

القاهرة : ٤ بكوات يمثلون ٧٪ ، ١٠ ضباط يمثلون ٢٦٪ ، ٨ كشافين يمثلون ٢١٪ المجموع ٢٢ يمثلون ١٦٪

حى القلعة : ٢ بكوات يمثلان ٣ ٪ ، ٥ ضباط يمثلون ١٣٪ ، ٦ كشافين يمثلون ١٦٪ ، المجموع ١٣ يمثلون ١٠٪

بقية الشط الايمن للخليج : ٢٣ بك يمثلون ٤١٪ ، ٦ ضباط يمثلون ١٥٪ ، ٤ كشافين يمتلون ١٠٪ ، المجموع ٣٣ يمثلون ٢٥٪

الشط الايسر للخليج : ٢٦ بك يمثلون ٤٧٪ ، ١٧ ضابطا يمثلـون ٤٤٪ ، ١٩ كشـافا يمتلون ٥١٪ ، المجموع ٦٢ يمثلون ٤٧٪

المجموع : ٥٥ بك ، ٣٨ ضابطا ، ٣٧ كشافا

المجموع الكلى ١٣٠

● نفس الملحوظة السابقة

يمكننا الجدولان السابقان من ان نرسم الخطوط العامه لتطور الاحياء الارستقراطية فيما بين ١٧٥٥ و ١٧٩٨ ، وأول هذه الخطوط العامة ، هو الميل الى تفضيل الشط الايسر للخليج كمنطقة لسكنى الامراء ، اذ ان نسبتهم هناك ترتفع من ١٩ ٪ بالنسبة للمجموع الكلى فى بداية القرن السادس عشر وحتى مابين ١٦٥٠ و ١٧٥٠ ، الى ٤٥ ٪ فيما بين ١٧٥٠ و ١٧٩٨ ، الى ٤٧ ٪ عام ١٧٩٨ نفسها .

وقد استمرت بركة الفيل تلعب دورها كمنطقة مفضلة لسكنى الارستقراطيين ، وان لم يكن بطريقة جامعة ، فقد أصبحت جاذبية الازبكية شديدة الاثر عند نهاية القرن ، والخط العام الثانى الواضح ، هو اتجاه مختلف العناصر المكونة للطبقة الحاكمة الى سكنى مناطق مختلفة ، وهو ما يبدو بوضوح - وعلى وجه الخصوص - فى الحيين اللذين كانا مقرين لسكنى الصفوة الممتازة ، وهما الازبكية وبركة الفيل - حتى لتبدو هذه التغييرات التى طرأت على الحدود الجغرافية لمقار سكنى الطبقة الارستقراطية ترجمة صادقة لتلك التغييرات التى طرأت على الهيرارشية الداخلية لهذه الطبقة .

## (أ) مقر سكنى البكوات

كان هجر البكوات للقاهرة عند نهاية القرن الثامن عشر تاما لدرجة لا تعكس الارقام حقيقتها ( ٨ بكوات بين ١٧٥٥ و ١٧٩٨ وأربعة عام ١٧٩٨ ) . فمعظم البيوت التى نعرفها هناك كانت مركزة فى ذلك الحى الخارجى الشاذ حى درب السعادة الذى حظى بنوع من الاحترام فى تلك الفترة . أما عن بقية المساكن فقد كانت مساكن ثانوية « دور صغيرة » . ويمكن أن نقول اذن - بالنسبة للبكوات - أن حدود القاهرة الفاطمية القديمة كانت تشكل حدودا حقيقية ، لم يعد أحد منهم يقيم وراءها ، اللهم الا على شواطىء ترعة المدينة نفسها ، وتوارث « الدور الصغيرة » فى حوارى وأزقة الاحياء القديمة للقاهرة ، شرق القصبة : بالقرب من الجامع الازهر فى شارع الشنوانى وفى الكحكيين ( أحمد أغا شويكار ، عبد الرحمن أغا ، على بك جركس ) ، وبالقرب من المشهد الحسينى ( سالم بك الاسماعيلى ) أو فى بيت القاضى ( الست نفيسة زوجة مراد بك ) [٢١] وكان لكل أمير بيت كبير ( دار كبيرة ) حيث كان يقيم مع اسرته ومماليكه ثم بيت أو بيتان صغيران ( دار أو دارين صغار ) وكان يحتفظ بمكانهما سرا بقدر ما يستطيع ، اذ كان يودع فيها ( أو فيهما )

ـ عند الضرورة ـ ثرواته النفيسة وفى أوقات الازمات الخطيرة فى المدينة ، كان يرى الامراء الذين يخشون الهزيمة أو النفى ، مشغولين باخفاء ثرواتهم فى « دورهم الصغيرة » قبل اختفائهم ، تاركين بيوتهم الرئيسية « الكبيرة » شبه خالية (٢٢) لكن هذه الحيطة ، كثيرا ما تكون عديمة الجدوى ، ذلك ان الحزب المنتصر كان يتوصل الى معرفة هذه « الخزائن » ، ويضع يده على ما كان مخبأ فيها بالقبض على حراس هذه البيوت « الغفر » واستجوابهم . وكانت هذه الدور الصغيرة تستخدم ـ كذلك ـ كمأوى فى الايام العصيبة . وبهذه الطريقة مثلا ، فان المملوكين التابعين لاسماعيل بك ـ واللذين منحهما سيدهما رتبة البكوية عام ١٧٧٧ ، كما اسكنهما فى قصور الحزب المهزوم ، فمنح سالم بك بيت يوسف بك ومنح على بك جركس بيت مراد بك ـ بهذه الطريقة اختفى هذان المملوكان بعد أن ارسل سيدهما الى المنفى ، وعاشا فى داريهما الصغيرتين بعيدا عن مجرى الاحداث ، الى ان اتاح لهما وصول حسن باشا ، وعودة اسماعيل بك من المنفى ، أن يستعيدا مركزيهما وداريهما الكبيرتين » .

ووصلت حركة هجر الارستقراطيين للاحياء القريبة من القلعة ـ هى الاخرى ـ الى نهايتها عند نهاية القرن ، فقد انخفضت نسبتهم هناك من ٣٦ ٪ عند بداية القرن ال ١٦ الى ١٣ ٪ من البكوات فيما بين ١٦٥٠ ـ ١٧٥٥ ، ثم الى ٦ ٪ فقط فيما بين ١٧٥٥ ، ١٧٩٨ ٠ وكانت آخر الاسر المملوكية الكبيرة التى احتفظت ببيوتها هناك ، اسرة البلفية فقد ظل خليل بك بلفية ـ الذى مات عام ٢١ / ١٧٢٢ ـ يعيش هناك حتى وفاته ، لكننا نرى ابنه رضوان الذى توفى عام ١٨٠٠ / ١٨٠١ يجرى وراء « الموضة » ، ويبنى لنفسه بيتا فى الازبكية ٠ ولسنا نعرف من البكوات الذين عاشوا هناك حتى ١٧٩٨ سوى اثنين ٠ وقد عانت قصبة رضوان من الشىء نفسه ، اذ انها بعد ان عرفت نوعا من « العز » فى أيام رضوان بك ، انتهى بها الامر بعد ذلك ان اصبحت وقفا على الاعمال التجارية والصناعية ( الحرفية ) (٢٣) ومن الآن فصاعدا ، بدأ البكوات يتمركزون حول كل من بركة الفيل وبركة الازبكية ، وهما اوسع بحيرات ( برك ) المدينة واكثرها امتلاء بالماء مصدر انتعاشهم ـ فى معظم أوقات السنة ، اذ بلغت نسبتهم هناك ٥٣ ٪ فيما بين ١٧٥٥ و ١٧٩٨ وارتفعت ٥٨ ٪ عام ١٧٩٨ ٠ وعند نهاية

القرن كان كل واحد من البكـوات ـ الذين كانت لهم حرية واسـعة فى الاختيار ، بين عدة بيوت « دور » يمتـلك ـ عـلى الاقـل ـ دارا فى ضواحى بركة الفيل ـ وعادة فى حى قوصون بالذات ـ وأخرى فى الازبكية (٢٤) ، وكان يتنقل بالطبع بين كل منها حسب فصول السـنة ، أو حسب أهوائه هو ، كما رأينا عند رضوان كتخدا وابراهيم كتخدا عام ١٧٥٤ ، نفس الشىء الذى نجده عند عـلى بك الكبير ومحمد بك أبو الدهب واسـماعيل الكبير ومراد بك ومحمد بك الالفى وابراهيم بك الكبير وابنه مرزوق .

ومع ذلك فقد ظلت بركة الفيل هى الحى المفضل لسكنى الارسـتقراطيين ، وقد خصـه الجبرتى بجزء كبير من يومياته ، وخاصة عندما يتحدث عن هذا الحى فى فصل الفيضان . وكانت دور هـذه الطبقة تحيط بشـطئان البركة فى شـبه حزام اذ كانوا ـ وحدهم تقريبا ـ القاطنين على الشط الشمالى للبركة ، فى الداودية وبخاصةعلى شطها الشرقى ، وفى قوصون الذى كان بحق قلعـة للارستقراطية . ومما يتطابق معهذه الهيرارشية للاحياء حول بركة الفيل ، ما فعله محمد بك الالفى حين انتقل للاقامة فى حى قوصـون ما ان ترقى لرتبة سنجق ، بعدان كان يقطن فى شيخ الظلام ، حين كان مجرد كاشف ، وهذا نفس مانراه عنـد

ابراهيم بك الكبير ، اذ أسرع الى ترك منزله فى درب الجماميز ، وذهب للاقامة فى منزل سيده فى حى قوصون ، عقب وفاة الاخير فاتحا له — بوفاته تلك — الطريق الى السلطة .

ومع ذلك فقد كان على الشط الايسر للخليج عام ١٧٩٨ — ولاول مرة فى تاريخ المدينة — عدد من بيوت الامراء ، أكبر من ذلك العدد الذى كان موجودا على الشط الايمن ( اذا تغاضينا عن القاهرة ) ، اذ كان به ٢٦ بيتا فى مقابل ٢٥ ( أى ٤٧ ٪ فى مقابل ٤٥ ٪ ) (٢٥) . واذا كان حى عابدين ( ٧ مساكن للبكوات عام ١٧٩٨ ) ، وشطئان الخليج بين الاحياء التى كان يفضل سكناها البكوات ، فقد كانت الازبكية — على وجه الخصوص — هى التى تجذبهم قرب نهاية القرن ( ١٢ بك عام ١٧٩٨ ) . وحتى حوالى ١٧٨٠ ظل أبناء الطبقة البورجوازية يقيمون فيها بأعداد كبيرة (٢٦) وعندما أشار الجبرتى لاعادة بناء حى الساكت — بعد ان خربته الحرائق عام ١٧٧٦ ، نكتشف من بين الاسماء الاربعة التى عادت تقيم مساكن لها هناك — حسبما ذكر — أسماء ثلاثة من كبار التجار ، فى مقابل بك واحد وهو رضوان بك بلفيه . ومع ذلك ، ففى هذه الفترة ، كانت شهرة الازبكية ذائعة كمركز للنزهات الخلوية

والملذات والتصـــييف والمتع الليليـــــة ، أوقات الفيضان ، وكانت تقارير الرحالة تعكس صدى لهذا الموضوع يتفق مع أوصاف المؤرخين وقصائد الشعراء ، ولنذكر على سبيل المثال ماكتبه Savary عام ١٧٨٠ ، بمناسبة افتتاح سدة الخليج « وكان أكبر الحشود بطبيعة الحال عند الأزبكية ، وهى اوســـع مناطق المدينة ، ويبلغ محيطها اكثر من نصف فرسخ ، وتكون بحيرة واسعة محاطة بقصور البكوات ، وهى مضاءة بأضواء مختلفة الالوان ، وتسبح فوقها آلاف من المراكب ذات صوار تتدلى منها المصـــابيح المضـــيئة ، مكونة بذلك هالة من أضواء متحركة ، تتغير مناظرها كــــل لحظة » .
وابتداء من اللحظة التى ســـكن فيها الامـــيران المسيطران بعد عام ١٧٥٥ :حسين بك الصابونجى المتوفى عام ١٧٥٧ ، ثم على بـك الغزاوى المتوفى عام ٥٩ / ١٧٦٠ فى نفس البيت الذى كان يملكه ابراهيم كتخدا ، فان عـــدد البكوات الذين بدأوا يستوطنون البركة اخذ يزداد أكثر فأكثر ، حتى لتكاد تصبح قاصرة عليهم ، لكن ازدحام الشـــط الشرقى ، ووجود الحى القبطى جهـــة الشـــمال ، أدى بالأمراء الى الاتجاه غرب الأزبكية نحو رصيف الخشاب ، حيث اقام حسن بك الآزبكاوى قبـــل عام ١٧٦٧ ، حيث شيد على بك حوالى عام ١٧٧٠

بيتا للست نفيسة ثم أخيرا نحوحى الساكت الذى
كان على بك قد طهره من الاماكن السيئة ، وهناك
بنى رضوان بك بلفية عام ١٧٧٦ ، ثم شيد محمد
بك الألفى عام ١٧٩٧ قصره المنيف الذى قـدر له
أن يكون مقرا لكل من بونابرت وكليبر .

**( ب ) الضباط والكشاف :**

يتناسب نوع الأحياء التى انحصرت فيها اقامة
ضباط الأوجاقات والكشـاف مع دورهم داخـل
الطبقة المسـيطرة . وبالرغم من تكامل الأوجاقات
مع النظام المملوكى وداخله فى نهاية القرن ، فان
الضباط والكشاف كانوا يسـكنون - فى غالب
الأحيان - أحياء مختلفة .

وكان عدد كبير من الضباط والكشاف يسكنون
القاهرة التى هجرها الارستقراطيون من البكوات
وقد بلغت نسبة مساكن الضباط حسـبما عرف
من البيوت الارسـتقراطية هناك ٢٢ ٪ بين عم
١٧٥٥ و ١٧٩٨ ، و ٢٦٪ فى عـام ١٧٩٨ . أما
عن الكشاف ، فقد كانت نسبتهم فى الفترتين على
التوالى ٢٠٪ و ٢١٪ ، وهـذا مما يسمح بتبيان
درجة التدهـور التى بلغها دور العسـكريين فى
الحياة السياسـية ، وكذلك بلاشـك بتبيان
ارتباطاتهم القوية بالطبقات المدنية وكانت غالبية

هذه المساكن تقع جنوب القاهرة ، وخاصة بالقرب من درب السعادة ــ الذى سبق أن شاهدنا ماكانت له من جاذبية على البكوات ـ وكذا حول القلعة ذلك أن حركة الهجرة التى سبق ان شاهدناها عند البكوات لم تصل لنفس الدرجة عنـــد الضباط ( ٢٠٪ من العسكريين فيما بين ١٧٥٠ و ١٧٥٥ ، ١٢٪ فيمـــا بـــين ١٧٥٥ و ١٧٩٨ ، ١٣٪ عام ١٧٩٨ ) ونفس الامر فيما يختص بالكشاف ( ١٥٪ فيما بين ١٧٥٥ ــ ١٧٩٨ ، ثم ١٦٪ فى ١٧٩٨ ) (٢٧) . وفى هذه الاحياء التى هجرها البكـوات ، كان الكشاف والضباط يميلون للتجمع فى مناطق محددة : التبانة ودرب الأحمر للأولين ( ٦ من ٧ ) وسويقة العزى وسوق السلاح للآخرين ( ٥من٥ )

وفى بركة الفيل ، حدثت من جانب الضـباط حركة انسحاب ذات دلالة ، اذ بينما كان عددهم هناك كبيرا قبل عام ١٧٥٥ ( ٣٤٪ من المجمـوع الكلى للضباط مقابل ٨١٪ للبكوات ) ، بدا أنهم أخذوا ينحسرون اثناء النصف الثانى من القرن ، أمام « غزو » البكوات ، فلم يعد عددهم يتجاوز ٨ ضـــباط فى مقـــابل ٢٧ بك فيمـــا بين ١٧٥٥ و ١٧٩٨ ، و ٤ ضباط فى مقابل ٢٠ بك عام ١٧٩٨ ( ١٢٪ ثم ١٠٪ من الضباط ) . ومن جهة اخرى فاننا لم نعد نجدهم الافى الاحياء الاقـــل جاذبية

بالنســـبة للبكوات ، على الشـــطئان الغربيــة والجنوبية للبركة ( درب الجماميز وشيخ الظلام ) ويمكن ان نتابع حتى نهاية القـــرن رحيلهــم من الداودية التى كانت أعدادهم فيها كبيرة قبل عام ١٧٥٥ ، عندما كان النفوذ الســياسى للأوجاقات لايزال مؤثرا ٠

أما بخصوص الكشاف ، فقد كانت غيبتهم عن بركة الفيل تامة ٠ ولذا فاننا لانجد لهم أثرا الاعند الطرف الجنوبى للحى ٠وقد ســـاهم الكشـــاف والضباط ـ مثلهم في ذلك مثـــل البكوات ـ فى الاتجاه نحو الشط الأيسر للخليج ، أثناء النصف الثانى من القـــرن الثامن عشر ، كما يبين ذلـك الجدول الآتى :

| | ١٦٥٠ ـ ١٧٥٥ | | ١٧٥٥ ـ ١٧٩٨ | | ١٧٩٨ | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | الشط الأيمن | الشط الايسر | الشط الايمن | الشط الايسر | الشط الايمن | الشط الايسر |
| بكوات | ٨٦٪ | ١٣٪ | ٤٨٪ | ٤١٪ | ٤٥٪ | ٤٧٪ |
| ضباط | ٦٥٪ | ٢٢٪ | ٣١٪ | ٤٥٪ | ٢٨٪ | ٤٤٪ |
| كشاف | ـ | ـ | ٢٨٪ | ٥٠٪ | ٢٦٪ | ٥١٪ |

● لم تحسب القاهرة ضمن الشط الايمن فى هذا الجدول .

وبالمقاييس التى يمكن عن طريقها الوصول الى نتائج من المعطيات المتناثرة ، فانه يبدو أن هذا الترنز كان بمثابة « جزر » متناثرة ومتجانسة نسبيا ، فقد كانت الناصرية على سبيل المثال حيا للكشاف ، اذ نجد بها عام ١٧٩٨ خمسة بيوت لكشاف من بين ٦ بيوت امكن حصرها ، أما السادس فقد كان قاسم بك ابو سيف قد شيده عندما كان لايزال كاشفا • وفضلا عن ذلك فربما كان قاسم الكاشف جزءا من قدر هذا الحى « حى الكبراء والوجهاء » حسب تعبير الجبرتى ، ذلك انه لم يكتف بأن شيد لنفسه هناك قصرا رائعا باهظ التكاليف بل انه زوده بحديقة واسعة ، كان مخولا للجمهور ان يأتى فيها بكل مايمكن ان يساهم فى جعل الناصرية حيا حديثا « مودرن » (٢٨) •
واذا كان الضباط والكشاف قد اختلطوا فى الحى المجاور — حى الحنفى — فقد كانت منطقتا عابدين وباب الخرق خاصتين بالضباط ، كما كانت باب اللوق خاصة بالكشاف كما أننا نجد الكشاف ايضا بمحاذاة الخليج ، بين قنطرة الموسكى وباب الشعرية ، بينما بدا أن بركة الرطلى كانت هى المكان المفضل لسكنى الضباط ، قبل نهاية القرن ، لكن المساكن هناك كانت بلاشك مخصصة لفترة الصيف ، فقد كان عمر جاويش ،

وحسن كتخدا الشعراوى ، وسليمان أغا . وعلى كتخدا يمتلكون بيوتاً أخــرى بالمدينة • على أن جاذبية بركة الرطلى بدأت تفقد تأثيرها قرب نهاية القرن ) •

وفى الازبكية ــ كما فى بركة الفيل ــ نجــد نفس الظاهرة ، فضباط الاوجاقات ( وخاصــة ضباط العزبان ) الذين ساهموا بنصيب كبير فى نمو هذا الحى ، ظل عدد كبير منهم يسكن قريبــا من البركة ، لكن مــع التراجــع امام « زحف » البكوات : ١١ ضابطا فى مقابل ١٦ بك فيمــا بين ١٧٥٥ و ١٧٩٨ ، و ٧ فى مقابل ١٢ عام ١٧٩٨ أما بخصوص الكشاف ، فقــد كانت غيبتهم تامة عن هذا الحى الارستقراطى ، وكذلك عن بركــة الفيل (٢٩) •

## العوامل الرئيسية

## فى تطور الاحياء الارستقراطية

## فى القرن الثامن عشر

يعتبر الانجذاب نحو الأماكن الخالية ونحو المياه ــ الضرورية لتحقيق البهجة بقدر ما هى ضرورية للحياة نفسها ــ العامل الأساسى فى تطور الأحياء التى اختارها الأرستقراطيون لسكناهم • وفى

هذا تفسير لاندفاعهم المستمر نحو الشمال الغربى الذى اتخذ طوال تاريخ المدينة شكل الظاهرة الطبيعية ، حتى وصل الى الخليج ثم تجاوزه متوقفا عند البرك ( البحيرات ) التى كانت تحد المدينة العثمانية فى الغرب ، ثم واصل سيره فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، حتى وصل الى النيل ثم الى ما وراء النيل . وكان الخليج ـ الذى كان يعبر المدينة العثمانية من وسطها ـ محاطا ، طوال القرن الثامن عشر ، بالبيوت الفخمة ، وخاصة فى المنطقة الواقعة بين درب السعادة وباب الشعرية .

ولكن ، اذا كان الخليج يظل يموج بصنوف المباهج النيلية الباذخة عند فتح السدة التى تفصله عن النيل ، فانه كان يعود فيصبح ـ بعد انتهاء الفيضان ـ مجرد مستنقع كريه الرائحة ، كما ان قلة اهتمام الحاكمين بأمور الصالح العام فيما يخص مسائل العمران ، قد زاد من خطورة الموقف ، بالاضافة الى ان الترسب المستمر للطمى قد قصر لدرجة ملحوظة من فترة جريان مياه النيل فى الخليج ، ونتيجة لاستمرار وازدياد حركة الترسب التى غمرت الشط الغربى ، وامتدت نحو باب البحر وباب اللوق ، فأن عددا كبيرا من

الأمراء قد اتجه الى شواطىء الأزبكية والى حدائق الشط الأيسر .

وفى الحقيقة ، فان الامراء منذ زمن طويل ، كانوا قد ذهبوا للاقامة بعيدا نحو الغرب ، بجوار النيل ، وشيدوا القصور فيما بين بولاق ومصر القديمة . وهناك كانوا ينعمون بمباهج الريف ، فى نفس الوقت الذى كانت فيه هذه المنطقة النائية بمثابة مأوى لهم ، بعيدا عن اضطرابات المدينة . وفى هذا يقول البارون دى توت Baron de Tott عام ١٧٧٩ « وفى هذه البيوت الريفية ، على وجه الخصوص ، فان « الكبار » باقترابهم من النيل ، كانوا ينعمون بثرواتهم ، وكذلك بالطقس الريفى البديع ، دون أن يبتعدوا عن شئونهم ، وكانت المناطق المفضلة للسكنى لدى الأمراء هى بولاق ومنطقة جزيرة الروضة والمقياس فى مصر القديمة ( ابراهيم بك أبو شنب قبل عام ١٧١٩ ، ومحمد بك ابن ايواظ قبل ١٧٢٣ وابراهيم كتخدا ومحمد بك الالفى .. الخ ) وخصوصا منطقة قصر العينى ، حيث كان لايواظ بك ، الذائع الصيت ، أحد القصور ، اذ كان على عديد من الأمراء أن يقيموا هناك طوال القرن وكثيرا ما كان الأمراء ذوو النفوذ ، يدعون الباشا الى هناك لحضور حفلات باذخة ، وقرب نهاية القرن

كان يأتى للاقامة فيهـــا ـ فى بعض الأحيـان ـ
الباشوات المعزولون ـ أو الحديثو التعيين ـ بدلا
من الاقامة فى بيوت المدينـــة الجميلة ، كما كان
يحدث قبل ذلـك ، بل كان يحدث أن يجتمـع
« الديوان » هناك ، فقد عقد ابراهيم بك الكبيـر
اجتماعا تاريخيا فى قصره فى منطقة قصر العينى
عام ١٧٩٨ ، عند وصول حملة بونابرت ٠ وقرب
عام ١٧٨٠ ، بدأوا يذهبون الى ما وراء النيـــل ،
فقد بنى اسماعيل بك لنفسه قصرا فى الجيـزة
وهو نفس القصر الذى ذهب مراد بك للاقامة فيه
عام ١٧٩١ ، وجعل منه مقرا دائما لاقامته ، وعلى
الأثر ، جاء بلاط كامل للاقامة حوله ٠ وقـد زاد
من سرعة هذا الانتقال نحو الشمال الغربى بالطبع
حركة هجر الاحياء القريبة من القلعة ، لأسـباب
تتعلق ـ فى جزء منها ـ بانعدام الامن (٣٠) ٠ وقد
أشار كتاب « وصف مصر » ، الى وجـود خرائب
حول القلعة ، تشهد بتدهور هذه المنطقة قـــرب
نهاية القرن ، منها خرابة الرجبية وخرابة مشعل
وخرابة البناجوة ، وخرابة منصور ، وفى كل مكان
كانت الخـــرابات ، وفى كـل مكان أيضا كانت
البيوت المهجورة حتى فى داخل القلعة نفسـها ،
واصبح يقطن هــذا الحى ـ الذى كان فيما مضى
حى الأرستقراطية ـ من الآن فصاعدا ، وخاصـة

فى الجزء الجنوبى منه ، شعب فقير مجهد ، بل ان الصليبة نفسها قد اصبحت هى الاخرى مهجورة من « الكبار » .

وقد حدث نفس التطور بالنسبة للقاهرة ، حيث كانت الانشطة الاقتصادية عامل « طرد » لسكنى الارستقراطية ، بسبب الكثير من المضايقات المادية التى تنتج عنها ( والتى يجب أن نضيف اليها صعوبة الحصول ـ فى منطقة تجارية وصناعية كهذه ـ على المساكن الفسيحة التى يحتاج اليها البكوات ) ، وما يتبعها كذلك من ظهور اعداد غفيرة من اصحاب الحوانيت والصناع ، الذين تنتظمهم طوائف الحرف وتنظيمات الاحياء « المزعجة » ولذا فان النفور الذى أبداه الالفى تجاه المدينة وسكانها ، لم يكن ـ بالتأكيد ـ قاصرا عليه بل ان ابناء طبقته بلا شك كانوا يشاركونه اياه ، فهذا البك ، الذى كان يمتلك ـ خارج المدينة ـ عددا من البيوت ، كان يتحاشى اختراق المدينة اثناء انتقاله من بيت لاخر ، اذ كان يعاف المرور وسط الاسواق كى لايتيح بذلك الفرصة لاصحاب الحوانيت والمارة أن « يتفرجوا عليه » .

ان التطور الاقتصادى للمدينة ، وكذا نمو وانتقال مناطق الانشطة التجارية والحرفية ، قد

لعب دورا هاما - وان يكن سلبيا - في تحديد أحياء سكنى « الكبار » في القرن الثامن عشر ٠٠ ففي القاهرة نفسها - وهي مركز الحياة الاقتصادية - كانت حركة الهجرة الى خارجها قد تمت منذ بداية القرن ، أما ماتبقى من مساكن ارستقراطية هناك ، فقد كانت مركزة في الجنوب الغربي بمحاذاة الخليج ، في حي درب السعادة ، الذي كان بعيدا عن الضوضاء المحمومة المسيطرة على بقية المدينة ، في الوقت الذي كان يبدو فيه أن حيا أكثر اقترابا كحي خوشقدم ، الذي كان مشهورا كحي « للامراء والوجهاء » ، قد خلا من الكبار الذين سبق أن سكنوه ٠ وبنفس الطريقة ، فان وجود المراكز الاقتصادية النشطة عند تخوم المدينة ، يفسر لنا - ولو جزئيا - تجمع بعض بيوت الكبار كجزر « مجموعات » صغيرة في حين أدت نشأة بعض هذه الانشطة ( وخاصة المدابغ والسلخانات ) الى ابتعادهم ، وفي شمال الازبكية بين باب الشعرية وباب الحديد حيث تتجمع المصابغ ، وورش النجارة ، وفابريقات الخل ، ومعاصر الزيوت ، والمغازل ، والمناسج ، حيث تؤدي تجارة الحبوب لنشاط واسع ، لم يكن ثمة بيت لواحد من البكوات ٠ وبالمثل ، فان تواجد الانشطة الاقتصادية بين باب الخلق وباب اللوق

( وخاصة السلخانات والمدابغ والمعاصر ) عند الابواب ( باب اللوق • بركة السقايين قناطر السباع ) ، قد أدى بلا شك لنفس النتيجة ، اذ كانت بيوت البكوات تقع أبعد من ذلك جهة الشرق على مسافة من مساكن المدينة •

أما الاحياء الواقعة بين الرميلة وابن طولون والابواب ، فقد عرفت حركة ونشاطا كبيرين ، فقد نشطت فيها تجارة الماشية والحبوب ، وتجارة الخضر والاسماك ، وكذا سلخانات درب الخليفة ، ولذا فقد هجرها « الكبار » وتركت المنطقة ـ كما قلنا فيما سبق ـ للطبقات الشعبية ، أناس حى الخليفة « أولاد القراقة » ، ولتجار الخضار فى الرميلة ، الذين سيلعبون دورا بارزا فى الازمات الكبرى ، التى حدثت فى نهاية القرن الثامن عشر ، وبداية القرن التاسع عشر ، أما حى سويقة العصفور ، بين بركة الفيل وتحت الربع ، والذى كان قد عرف بعض الانتعاش عقب نقل المدابغ منه فقد عاد يتدهور كمركز لاقامةالطبقة الارستقراطية حوالى نهاية القرن الثامن عشر ، ربما بسبب اتساع الانشطة الحرفية والتجارية خلف باب زويلة ، ( وخصوصا الاعمال المتصلة بالملابس كالمدابغ والمصابغ ) • وفىعام ١٧٨٧ بنىاسماعيل

بك ، فى سويقة لاشين (٣١) ، قيصرية بها واحد وعشرين حانوتا ، نقل اليها سوق درب الجماميز ، بما كان فيه من « قماشين ودلانين » • ومن العلامات الدالة على هذا التدهور ، أن بيت لاشين بك ، الذى آل الى عبد الرحمن أغا ، ظل شاغرا بعد موت الاخير عام ١٧٧٨ •

ومع ذلك فان الكثير من الخطوط التى اتبعتها حركة التوطن الارستقراطى ، لاتخضع لتلك التفسيرات ، ويجب علينا ان ندخل فى الاعتبار ، العوامل السيكولوجية ، الفردية والجماعية ، فازدهار حي وتدهور اخر ، لايمكن تفسيره فيما يبدو الا بتغير « الموضة » ، حيث كان اسرع أشكال « التقليعات » انتشارا ، تقليد الامراء المرموقين ، فقد ساهم ابراهيم كتخدا ، ورضوان كتخدا حوالى عام ١٧٥٠ فى « اقتحام » الازبكية ، كما « اقتحم » قاسم الكاشف فيما بعد حى الناصرية ، وكما « اقتحم » مراد بك الجيزة • وهكذا يتضح الميل الى التميز الاجتماعى الذى سبق الاشارة اليه ، بتكوين أحياء خاصة ومتجانسة نسبيا • ونلمس نفس هذه الخاصية عند جماعة ضباط العزبان ، الذين أقاموا فى المنطقة الواقعة بين الخليج والازبكية ، فى النصف الاول من القرن الثامن عشر ، بالاضافة الى مالهذا من نفع استراتيجى

واضح ، اذ يسهل تحريك ضباط الاوجاق عند الحاجة • وتكشف خريطة توزيع المناطق الارستقراطية عام ١٧٨٦ ـ بوضوح ـ عن ميل الى التركز يلاحظ ـ بالطبع ، وعلى وجه الخصوص ـ عند قمة الهيرارشية ، فقد كان البكوات يقطنون حول بركة الفيل ، وفى عابدين ، وعند الازبكية ، وبمحاذاة الخليج ، وشمال باب الخرق ، اذ أمكن تحديد ٤٨ بيتا من ٥٥ في هذه المناطق ، وكان الضباط يسكنون جنوب القاهرة ـ درب السعادة ، وفى سوق السلاح وبركة الفيل والحنفى وعابدين والازبكية : ٣١ مسكنا من مجموع ٣٨ ، وأخيرا ، فقد كان الكشاف يقيمون فى درب الاحمر ، والناصرية ، والحنفى وباب اللوق ، وشواطىء الخليج •

وعلى العكس من ذلك ، فان تدهور بعض الاحياء ـ حينما لايكون ثمة سبب ظاهر لذلك ـ لايمكن تفسيره الابنوع من « البلى » • وهو أحد أشكال تغير « الموضة » • وربما كانت هذه هى حال درب الجماميز ـ الحى الواقع الى الغرب من بركة الفيل والذى أقام به بعض أفراد الصفوة الحاكمة مؤخرا ، وقد استطعنا أن نعد فيه مساكن لـ ٧ بكوات فيما بين ١٦٥٠ و ١٧٥٥ • ومع ذلك فقد بدا أن مكانة

الحى ، مع بداية القرن الثامن عشر ، قد بدأت تضعف ، اذ لم يعد يقيم به فى المدة من ١٧٥٥ الى ١٧٩٨ ، الا اثنان فقط من البكوات ، ( وفى عام ١٧٩٨ ، لم يعد به أحد من البكوات ) ، وقرب نهاية القرن ،اختفى سوق درب الجماميز ، وأشار الجبرتى الى تهدم بيت الامير المقتدر ، اسماعيل بن ايواظ ، والذى تحول الى مسكن للفقراء بينما هو يحمل ذلك الاسم ذا الدلالة : خرابة ، وبعد ذلك بقليل ، يلمس الجبرتى تحول بيت « ابن الدالى » الى ورشة صغيرة ·

ومع ذلك فحركة عائلة مثل الجلفية ، بدءا من الخرنفش بالقاهرة ( حسن كتخدا المتوفى ١٧١٢ )، الى بركة الفيل ( على كتخدا المتوفى ١٧٤٠ ) ، الى الازبكية ( رضوان كتخدا المتوفى عام ١٧٥٥ ) ·· حركة كهذه لايمكن ان تكون مجرد خضوع للموضة لقد كان بيت الامير دلالة واضحة على مكانته السياسية ، فالدار اداة للقوة من حيث ان على الامير ان يقيم فيها اسرته ، ومماليكه ( وصل ما كان يملكه الالفى الى حوالى ألف مملوك ) وخيوله ، ومخزونه من المؤن والذخائر (٣٢) ، كما يمكنه أن يستخدمها ـ عند الضرورة ـ كحصن · وهكذا فقد كان المسكن بالنسبة للامير ، عنصرا هاما من عناصر النفوذ · ولم يكن يمكن ـ والحالة هذه ـ تناسى

مثل هذه الظروف عند اختيار موقع المسكن ٠ وقد سبق ان رأينا ، أنه عندما يحدث تقدم ما فى درجات السلطة السياسية ، فسوف يتبع ذلك تغير فى المسكن ، يتناسب مع تلك المكانة الجديدة ، وها هو ابراهيم بك الكبير يترك درب الجماميز الى قوصون عام ١٧٥٥ بينما يخطو مملوكه محمد الاشقر ( الذى سيصبح بك عام ١٧٧٩/٧٨ ) خطوة فى نفس الاتجاه ، فيأتى ليقيم بالبيت الذى تركه سيده وها هو محمد بك الألفى كذلك يترك شيخ الظلام الى قوصون ايضا بمجرد أن أصبح سنجقا عام ١٧٧٩/٧٨ وفى مقابل ذلك نجد الاميرين الاسماعيليين سالم بك وعلى بك جركس ، ينسحبان اثناء نفى سيدهما اسماعيل بك الى « داريهما الصغيرين » فى القاهرة ولايحصلان على مكانتيهما و ( داريهما الكبيرين ) الا بعد عودة اسماعيل بك ٠ وحالة محمد بك الالفى ، تبين لنا كيف أن اميرا يمكن ان تنحط مكانته اذا لم يقم ببيت وفى حى يتناسبان مع مكانته ، اذ انه عندما عاد من المنفى عام ١٧٩١ ، ذهب ليقيم فى « داره القديمة » ــ بلا شك فى شيخ الظلام ــ وعاش هناك فى شبه استيداع ، الى اللحظة التى اصبح فيها مهددا بفقد كل نفوذه ، وتعرض فيها لانتقادات المحيطين به ٠٠ وهنا قرر

ان يعاود نشاطه ، وأبدى رغبته فى العودة الى حياة تتناسب مع مركزه ، وذلك بالذهاب الى درب السعادة والاقامة هناك .

وفى هذه الظروف فان « ايلولة » البيت ، كانت تشكل لحظة هامة فى خلافة الامراء ، تلك الخلافة التى كانت تتم بطريقة طبيعية ، فعندما كان يخلف مملوك سيده فى وظائفه أو ثرواته (٣٣) - أو بعد نشوب ثورة ، عندما كان الحزب المنتصر يقتسم الوظائف التى تركها الامراء المهزومون خالية اما اما بموتهم أو بهربهم ، كما كان يقتسم فى نفس الوقت دورهم - فان السماح لهذا المملوك بان « يفتح البيت » - أى بيت سلفه - يعتبر تأكيدا لهذا « المترقى » الجديد - بطريقة ملموسة - بحصوله على السلطة والقوة . وفى اجراءات الايلولة هذه ، كانت السيدات يلعبن دورا هاما ، ففى مجتمع تحكمه القوة ، وفى غيبة عامل الاستمرار الذى تهيئه الوراثة عادة ، فقد كن يشكلن عنصرا لاستمرار نسبى . وعن طريق زيجات تتم بالرضا أو بالاكراه ، كان المملوك يؤمن لنفسه امتلاك وظيفة ودار سيده - أو وظيفة دار الامير المهزوم - ويعطى بذلك لخلافته اياه نوعا من الشرعية . وفى هذه الحالة أيضاً ، فان الاقامة فى «البيت» كان بمثابة تجسيد مادى لعملية انتقال السلطة .

ان تطور جغرافية الاحياء التى أقامت فيها الطبقة الحاكمـــة فى مصر فى القرن الثامن عشر ، ينتج اذن عن مجموعة من العوامل ، فمن الناحية المادية كانت هذه الطبقة تنشد الاماكن الخلوية ومصادر المياه ، كما ان النمو الاقتصـــادى للمدينـــة كانت تتشابك العوامل الجاذبة والطاردة فيه ، لتوجـــه بطريقة حاسمة نمو المدينة نحو الشمال الغربى ، ولتعجل بترك الاحياء القديمة ٠ والى ذلك كله ، يمكن ان نأخذ فى الاعتبـار ضـغط « الموضـة » واعتبارات النفوذ ، كما أن وجـــود نظام متدرج « هيبرارشى » للاحياء ـ قرب نهاية القرن الـ ١٨ ـ مع وجود تلك البيوت « المقفولة » ، فى قوصون والازبكية ، واتجاه مختلف العناصر الارستقراطية الى التجمع فى احياء متجانسة ـ يكشف عن مجتمع بالغ الانقســـام ، بحيث لايكون هذا التقســـيم الطبوغرافى للاحياء الارستقراطية ـ على الخريطة والازبكية ، واتجاه مختلف العناصر الارستقراطية لهذا المجتمع ٠

## هوامش :

(١) نقصد بكلمة ارستقراطى وارستقراطية أفراد الطبقة الحاكمة فى مصر وهم كبار الشخصيات المملوكية عند نهاية الاسرة الشركسية (١٣٨٢ ــ ١٥١٧) ثم صفوة المماليك (بكوات وكشاف) وكذلك ضباط الاوجاقات فى العصر العثمانى، وهى طبقة «دخيلة» ، فى مقابل الشعب المصرى الخاضع لهم من «بورجوازية وطنية» (المشايخ وكبار التجار) والطبقات الشعبية .

(٢) من ذلك نذكر تاريخ ابن اياس الذى سهل لنا مهمة استخدامه ترجمة الاستاذ G. Wier وخاصة الثبت القيم الذى أنشأه للجزء الثالث ، ويمكن الرجوع كذلك الى النص العربى . كما يقدم لنا تاريخ أحمد بن الرمال «كتاب فتوح مصر» معلومات قيمة (وهو مخطوط بدار الكتب بباريس برقم ١٨٣٨ Frank Ahmet وخاصة الجزء الذى يصف فيه عودة الامراء المصريين الى القاهرة بعد هزيمة وموت السلطان الغورى فى سوريا (١٥١٦) . ويمكن كذلك الرجوع الى نشرات جمعية المحافظة على الآثار والفنون العربية . وعند الفحص السريع للنصوص التى لا تتجاوز الجغرافية الحضرية لهذه المسائل الا بطريقة سريعة وعشوائية (بالطبع فيما عدا كتاب وصف مصر وخطط على باشا مبارك) فانه لا يمكننا أن نستخلص الا اشارات يصعب أن نحدد على أساسها

الا اتجاهات عامة ، وتبقى كثير من الظواهر والتفسيرات في مجال الافتراض .

(٣) يقصد بالقاهرة ذلك الجزء الذى أسسه الفاطميون والذى كان يحده السور والخليج وقد ظلت بأحيائها تمثل وحدة متميزة عن بقية المدينة فى مؤلفات المؤرخين العرب ويقصد بكلمة حى القلعة تلك المنطقة الواقعة فى الشمال الغربى للقلعة والتى تحدها القاهرة من الشمال ومن الغرب الشارع الكبير المؤدى من باب زويلة الى درب الخليفة أى الربع الجنوبى للمدينة أما «بقية الشط الايمن للخليج» فكان يمتد بين حى القلعة فى الشرق والقاهرة فى الشمال والخليج المصرى فى الغرب . وكانت بركة الفيل وبركة الازبكية تدخلان كجزء من الشط الايمن والشط الايسر للخليج ثم أصبح يشار اليهما منفصلتين . وكان الخليج الذى كان يخترق المدينة عبارة عن ترعة تملؤها مياه الفيضان لعدة أشهر كما كان الفيضان يملأ هذه البرك واحدة بعد الاخرى ثم تجف بقية العام .

(٤) تجار الرقيق .

(٥) فى دليل الى الآثار الاسلامية بالقاهرة .

Index to Mohammdan Monuments in Cairo

نجد جامع قراقوجة الحسنى برقم ٢٠٦ (١٤٤١) ، ومسجد جقمق برقم ٢١٧ (عام ١٤٤٩) ومسجد القاضى يحيى برقم ٢٠٤ (عام ١٤٥٢) ومسجد تمراز الاحمدى برقم ٢١٦ ( عام ١٤٧٢) .

(٦) أنظر ابن اياس فى حديثه عن هذه الاعياد وماكانت

تنظم فيها من احتفالات . جـ ٤ ص ٢٨٠ .

(٧) أنظر ماذكره ابن اياس مثلا فى وصف الاحتفال بالعيد الذىأقيم عند البركة فى سبتمبر ١٤٨١ . جـ ٣ ص١٣٠.

(٨) بركة الفيل وحدها كانت تضم ١٨ بك يمثلون ٤٨٪ و ١٥ ضابطا يمثلون ٣٤٪ ومجموعهم يمثل ٣٣٪ من المجموع الكلى .

(٩) تحريف شائع لدى العامة لكلمة (أمير الجيوش) .

(١٠) على سبيل المثال «بيت ابن بيرة» الواقع خلف الازهر والذى كان واحدا من بيوت قدامى الامراء ثم أصبح فيما بعد — عند نهاية القرن الثامن عشر — خاصا بالشيخ الشرقاوى . (الجبرتى جـ ٤ ص ١٦١) .

(١١) على باشا مبارك . الخطط الجديدة . جـ٢ ص ٩٦. وتبين قائمة الآثار الاسلامية بالقاهرة وجود سبيل وكتاب باسم سليمان بك الخربوطلى فى هذه المنطقة .

(١٢) صناع وتجار الضبب (المفرد : ضبة) وهى الاقفال الخشبية .

(١٣) عاد الجبرتى وهو يؤرخ لاحداث ١٨٠٠ ليتحدث عن «بيت الجلفى» بالخرنفش جـ ٣ ص ١٣٧ .

(١٤) الدمرداشى ص ٤٥٦ . وهذا البيت الجديد فى قوصون هو على وجه التقريب نفس البيت الذى سكنه بعد ذلك رضوان كتخدا مملوك على الجالفى .

(١٥) يرجع نقل هذه المدابغ الى تاريخ نجهله ، لكن يرجح انها نقلت فى بداية القرن الثامن عشر (الدمرداشى ص ٣٨٧ ، على مبارك جـ٣ ص ٦٣) .

(١٦) محمد الدادة أبو قاسم الشرايبى المتـــوفى عام ١٧٢٥/٤ (الجبرتى جـ١ ص ٩٠) ثم قاسم بن دادة مؤسس مسجد الرويعى وقد توفى عام ١٧٣٤ (الجبرتى جـ١ ص ١٧٦).

(١٨) كان لكل من رضوان كتخدا وابراهيم كتخدا بيت فى بركة الفيل (فى حى قوصون) .

(١٩) كان بالازبكية وحدها ١٤٪ من المجموع الكلى (١٦ بك، ١١ ضابطا ، وكاشف واحد) بينما كان ببركة الفيل وحدها ٢٠٪ من المجموع الكلى (٢٧ بك ٨ ضباط ، ٤ كشاف) .

(٢٠) كان بالازبكية وحدها ١٥٪ من المجموع الكلى ( ١٢ بك ، ٧ ضباط ، وكاشف واحد ) بينما كان ببركة الفيـــل وحدها ٢٠٪ من المجموع الكلى (٢٠ بك ، ١٠ ضـــباط ، كاشـــفان) .

(٢١) لم يكن الامراء هم الوحيدون الذين يملكون «الدورا صغيرة» فكتاب وصف مصر يشير الى أن الشيخ السادات كان يمتلك دارا صغيرة بالقرب من خان الخليلى .

(٢٢) على سبيل المثال ماحدث عام ١٧٧٨ عند رحيـــل أتباع اسماعيل بك (أنظر الجبرتى جـ ٢ ص ١١٠ ، ١١٢) وماحدث عام ١٧٩٨ (الجبرتى جـ٣ ص٦) .

(٢٣) خلف حسن بك فى قصبة رضوان أغوات صـــفار وهذا دليل على تدهور مكانة الحى .

(٢٤) كان لعلى بك الكبير ٣ بيوت ولمحمد على أبو الدهب اثنان ، ولاسماعيل بك اثنان ، أما مراد بك فكان له ٦ بيوت وكان لمحمد بك الالفى نفس العدد ولمرزوق بك ٤ ولابراهيم بك الكبـــير ٥ .

(٢٥) كان هناك على الشط الايمن ـ باستثناء القاهرة ـ ٢٣ مسكنا للكبراء (تمثل ٦٣٪ من المجموع) فى مقابل ١٠ فقط على الشط الايسر (تمثل ١٩٪) فى بداية القرن السادس عشر ، و ٣٢ منزلا للبكوات (تمثل ٨٦٪) فى مقابل ٥ (١٣٪) فى المدة من ١٦٥٠ الى ١٧٥٥ و ٣٩ منزلا للبكوات (٤٨٪) مقابل ٣٤ (٤١٪) فى المدة من ١٧٥٥ ـ ١٧٩٨ .

(٢٦) يمكن أن نذكر منهم حسب ماأورده الجبرتى : الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الازهر (توفى عام ١٧٥٨) ثم ابنه عامر ، ثم السيد محمد الدمرداش (توفى ١٧٦٥/٤) ثم الشيخ المرحومى (توفى ١٧٦٥) ثم الشيخ حسن المقدسى (مات ١٧٦٨) ثم حرم الشيخ محمد الجزايرلى (توفيت عام ١٧٧٤) ثم الشيخ أحمد المغربى (توفى ١٧٧٤) ثم الشريف محمد الاسيوطى (توفى ١٧٧٧) ثم السيد أحمد الحموى (توفى ١٧٨٥/٤) . أنظر الجبرتى جـ١ ص : ٢٠٨ ، ٢٦٥ ، ٣١٢ ، ٣٧٩ ، ٤١١ و جـ٢ صفحتا ١٥ ، ١٠١ .

(٥٢) التجار الثلاثة هم : السيد عمر غراب ، السيد عبد السلام ، الحاج محمد محرم (الجبرتى جـ٢ ص ٣) .

(٢٧) ولكن مما له دلالته أن نرى على سبيل المثال رضوان كتخدا تابع ابراهيم بك يترك بيته فى سويقة العزى وهو الذى كان من قبل منزل عبدى بك ليقيم فى درب الجماميز (الجبرتى جـ٣ ص ٢٩٠) .

(٢٨) أنظر الجبرتى جـ٣ صص ٢١٨ ، ٢١٩ وفيهما

يسهب الجبرتى فى وصف القصر وحديقته الواسعة وماأنشاه فيها الجمهور من مقاه وأماكن للهو والمتعة والترف ... الخ.

(٢٩) أمكن العثور على بيت واحد لاحد الكشاف (يحيى الكاشف ) دون أن نتمكن من تحديد تاريخه بدقة . (كتاب وصف مصر) .

(٣٠) قلما كان الموقف فى هذه المنطـقة يتحسن حتى فى النصف الثانى للقرن . أنظر العمليات العسكرية التى كانت القلعة مسرحا لها عام ١٧٧٧ ، ١٧٧٨ ، ١٧٨٤ ، ١٧٨٦. الجبرتى جـ ٢ ، صص ١٠ ، ٢٢ ، ٨١ ، ١١٣ .

(٣١) هو سوق العصر الذى ورد اسمه فى كتاب وصـف مصر (خريطة القاهرة) .

(٣٢) كان بيت عثمان بك الشرقاوى يضم حسبما يقـوله الجنرال لوكلرك اسطبلات تكفى لـ ٤٠٠ حصان . ( وثائق الحرب . من لوكلرك الى مينو ٢٦ يونيو ١٨٠٠ ) .

(٣٣) كانت «موضة» خلافة الامراء فى القرن الثامن عشر أكثر شيوعا من الوراثة الطبيعية . على سبيل المثـال آل الجلفى ، وعلى بك ذو الفقار حين خلف ذو الفقار بك، وحسين بك حين خلف ابراهيم كتخدا ، وأحمد أغا البارودى حين خلف ابراهيم كتخدا .

# ثـــورة فى
# القاهرة المملوكية
## أزمة عام ١١٢٣ هـ ــ ١٧١١ م

### (أ) مقدمة ــ المصادر :

١ ــ **المصادر المستخدمة :** يمكن معرفة احداث القاهرة عام ١٧١١ ، عن طريق مصـــادر عـديدة ومتنوعة ومعظمها مخطوطة ٠ (١)

الشيخ على الشاذلى : « رسالة فى وقائع وقعت بين أمراء الجراكسه بمصر سنة ١١٢٣ » ٠ وهـو مخطوط محفوظ بدار الكتب بالقاهرة ــ المكتبـة التيمورية ــ تاريخ ٠ برقم ٣٦٧ ــ ٩٢ صـــفحة ، ناقص فى البداية ، وبه خرم ( بين ص ٧٤ ــ ٧٥ ) وهى حكاية مفصلة جدا ومعاصرة « لثورة » ١٧١١ كتبها واحد من سكان القاهرة ٠ وقد عرف الجبرتى هذا النص لكنه لم يرجع اليه كثيرا فيمـــا يبـدو

( عجائب الاثار بولاق – ١٢٩٧ هـ ٠ جزء أول )

أحمد شــلبى بن عبـــد الغنى الحنفى المصرى : كتاب أوضاح الاشارة فيمن تولى مصر القاهـــرة ، والمخطوط الذى رجعنا اليه مملوك لمكتبة جامعة ييل وتعود النسخة الى عام ١٧٩٥ وتحتوى عـلى ٢٦٦ ورقة ٠ وهذا الكتاب هو المصدر الرئيسى لتاريخ مصر ابتداء من القرن السابع عشر حتى سنة ١٧٣٧ ويذكر الجبرتى ان هذا النص كان تحت يده ٠ وهو فى الواقع شديد الاقتراب فى تاريخـه مما يذكره أحمد شــلبى وقد ورد ذكر احـــداث ١٧١١ فى الاوراق من ٥١ الى ٦١ ٠

الحاج مصطفى القينالى : « مجموع لطيف يشتمل على وقائع مصر القاهرة من سنة ١١١٠ الى اخـــر تاريخ المجمـــوع » ٠ مخطوط بدار الكتب بفينـا ويتكون من ٢٠١ ورقة ٠ وهذا النص يتناول فترة ١٦٩٢ – ١٧٣٩ ٠ وقد تعرض لاحداث ١٧١١ فى الاوراق من ٦٥ – ٧٩ ٠

أحمد كتخدا الدمرداشى : كتاب « الدرة المصانة فى اخبـــار الكنانة » مخطوط بالمتحف البريطانى بلندن ٠ فى مجلدين مجموعهما ٥٨٩ صـــفحة ٠ وهذا المؤلف يتناول الفترة من ١٦٨٧ – ١٦٨٨ الى

١٧٥٥ ـ ١٧٥٦ ويعـــالج أحـــداث ١٧١١ فى الصفحات من ١٤٥ ـ ١٧٤ ٠

عبد الرحمـــن الجبرتى : « عجـائب الاثار فى التراجم والاخبـــار » طبعة بولاق فى مجلـــدات ١٢٩٧ هـ ٠ وهو المصـــدر الوحيد ـ للفترة التى تهمنا الان ـ الذى اتيح له ان ينشر ٠ وقد تعـرض الجبرتى فى عدة مواضع من مؤلفه لاحداث ١٧١١ مشيرا الى مؤلف أحمد شلبى ٠ ( مجلدا ص ٣٨ ـ ٤٦ ) ثم يعود اليها فى مواضع عدة عند الحـديث عن السيرة الشـخصية لابراهيم بك أبو شـــنب وافرنج أحمد ، ويوسف بك الجزار ٠ واسماعيل ابن ايواظ ٠

المصادر الاوروبية : نجد فى مراسلات القنصلية الفرنسية بالقاهرة والاسكندرية كثيرا من الرسائل تتصـــل بأحداث ١٧١١ أمثـــال رســـائل Monhenault, Peleran محفوظ بدار الكتب بباريس والمعلومات التى تقدمها هذه الرسائل مختصرة لحد ما لكن لها قيمتها اذ انها تســـمح بتثبيت تواريخ أوجاق الانكشارية وتسببوا فى انشقاق مماثل فى الاحداث وتاريخها ٠ كما أمكن الحصول على بعض المعلومات أيضاً عن طريق الوثائق المحفوظـــة فى محفوظات الغرفة التجارية بمرسيليا (٢)

## (ب) أهمية هذه المصادر

تنحصر المصــادر التى رجعنــا اليهــا فى اربع مجموعات :

١ ـــ على الشاذلى ٠
٢ ـــ أحمد شلبى ٠
٣ ـــ قينالى والدمرداش ٠
٤ ـــ المصادر القنصلية ٠

واللجوء الى هذه المصادر يثير مشاكل عــدة فى طريق الباحث ، أدقها مشكلة التعليقات التاريخية ـ الجغرافية التى انحازت فى الغالب الى جــانب القاسمين والعزبان بقدر ماكانت معادية للفقاريين والانكشارية ٠ وهذه بالطبع هى الحال التى وردت بها الوقائع « العســكرية » التى دبرت فى محيط فرقــة العزبان والتى تعكس وجهــة نظرهم فى الاحداث التى ساهموا فيها ٠ وهذا الاتجاه واضح كذلك فى تاريخ أحمد شلبى ( وكــذلك الجبرتى الذى كثيرا مايعود اليه ٠ ) ولهذا السبب فان رواية على الشاذلى التى احتفظت ـ لحد ما ـ بالحيدة بين الفريقين والتى تعبر بوضوح عن الرأى الوســط للقاهريين تعتبر قيمة ـ بصفة خاصة لانها تسمح بتنقيح الصــورة المتحيزة لحــد ما كما توردهــا المصادر العربية ٠ كما تقدم المراسلات القنصلية

وان كانت تميل بوضوح الى جانب افرنج أحمد(٣) امكانية مساعدة للتصحيح المنشود .

وثمة صعوبة اخرى ، تلك هى التعارضات الهامة بين النصوص التى اعتمدنا عليها . فالنصوص المختلفة سواء كانت كاملة أو ناقصة ( وفى بعضها توجد ثغرات وفجوات ) كانت متناقضة أحيانا وكان التاريخ الذى تعطيه للاحداث يختلف بطريقة ملموسة من نص لاخر . والاختلافات الشديدة الاهمية توجد فى المخطوطين « الحربيين » واللذين يبدو فيهما تاريخ الاحداث صعب التحديد بسبب اضطراب العرض . فمثلا ذكر فيهما ان تعيين كتخدا وأغا من الانكشارية ـ ذلك الامر الذى حدث فى المرحلة النهائية « للثورة » ـ قد حدث ـ كما ورد بهما ـ بعد تعيين القائمقام وأغوات مختلف الفرق ، وكذلك يقدمان الهجوم الذى قام به محمد بك الكبير داخل المدينة كشىء لاحق لموت ايواظ بك . وبخلاف ذلك يكون نظام تلاحق الاحداث قد تبين بطريقة صحيحة فى المصادر الاخرى جميعا .

وعلى العموم ، فسوف نتابع التاريخ الذى تقدمه المراسلات القنصلية والتى كانت معاصرة تماما للاحداث وان كانت ـ للاسف ـ قليلة

التفاصيل وعن طريق رواية الشيخ على الشـاذلى التى تعتبر من جهة المصدر العربى الاكثر اكتمالا ، ومن جهة أخرى بدون شك ـ أكثرها قربا للاحداث المروية وبخلاف تأرجح التفاصيل وتعارضـها فان سير الاحداث كما قدمه أحمد شلبى ـ هـو فى الواقع شديد الاقتراب من رواية على الشاذلى ٠

## ٢ ـــ أصول الازمـــة :

ان ازمة عام ١٧١١ يجب ان توضع داخل اطار ( الحياة السياسية ) للقاهرة فى السنوات الاولى من القرن الثامن عشر ٠ ويمكن ان نميز فى هـذا الموقف عناصر « دائمة » واخرى « عارضة » جاءت لتعقد لعبة القوى التقليدية ولتدخل ضـمن اصول الازمـــة ٠

وأهم العناصر الرئيسية اللازمة هو انقســام البكوات المماليك الى حزبين متنافسين والعـــداء المستحكم بين طائفتى العزبان والانكشارية (٤) ٠ واذا كان مانعــرفه عن أصــل كل من الحزبين المملوكين القاسميين والفقاريين يعتبر ضربا مــن الاساطير فان سمات كل من الفريقين ـ فى مقابل ذلك ـ تصبح محـددة بوضـــوح عندما نتعرض لتقييم قوى كـل مـــن المعســكرين اللذين كانا

يقتسمان المهام الرئيسـية والمنافع الاساسية فى الدولة • وكان أبرز بكوات القاسميين بعد ايواظ بك : ابراهيم بك ابو شنب ، وقنصوه بك ، بينما نجد ابرز بكوات الفقـاريين الذين يتزعمهم أيوب بك ومحمد بك الكبير : مصطفى بك ، قايطاس بك محمد بك الصغير ( قطامش ) تابع قايطاس بك ، وحسين بك بارم ديله •

وقد امتد هذا التحزب حتى شـمل الاوجاقات فتحالفت طائفـة العزبان مع القاسـميين بينما تحالفت طائفة الانكشـارية مع الفقاريين • وفى النهاية امتد هذا التحزب نفسـه فشـمل جموع الشـعب المصرى ـ فى ذلك الوقت ـ من علماء وحرفيين وبدو ، وأبرز الامثلة عـلى ذلك تحالف الامير حسن أمير أخميم مع معسـكر القاسمية ـ عزبان فى حين انضم بدو الهوارة الى معسـكر الفقارية ـ انكشارية •

وتعود جـذور التنافس الذى أدى فى النهاية الى ذلك الصدام الدموى بين العزبان والانكشارية الى ( الحقـد ) الطبيعى الذى تكـون لدى اقوى طائفتين عسكريتين كانتا تتصارعان عـلى امتلاك السلطة وبالتالى على المكاسب التى يمكن ان يجنيها من يمتلكها • وبمقتضى نظام الحماية اسـتأثرت

الطائفتان بجزء كبير من طبقـــة الحرفيين والتجار وضمنوا بذلك مكاسب مادية هائلة كانت بمثابة أجر أو تعويض مقابل الفوائد التى يحققها رعاية الاوجاقات لطوائف الشعب • وفى هذا التقسـيم المطبقات المنتجة بين الاوجاقات المختلفـــة اختص الانكشاريون أنفسهم بنصيب الاسد ، بحصولهم على مهمة الاشراف والحماية على أغنى تجار القاهرة تجار البن والعطارة ، لكن قوتهم المالية والاقتصادية لم تؤد الا الى اثارة غيرة الفئات العسكرية الاخرى الاقل حظا بكثير • وقد اتخذت المساوىء الناجمـة عن هذا التقسيم للحياة الاقتصادية والادارية فى القاهرة ــ وخصوصا عدم امكانية السيطرة عـــلى الامصار ، وشكاوى الحرفيين والتجار التى كانت تثور بين فترة واخرى ــ اتخذت ذريعـــة للاعمال التى لجأت اليها أكثر من مرة ــ الاوجاقات الستة الاخرى الذين تحالفوا فيما بينهم لوضع حـــدود للمساوىء التى كان الانكشاريون هم المسـئولين عنها وليس ــ بالطبع ــ المســئولين الوحيدين • لكن التعرض بنظام الحماية لم يكـــن يعنى ــ بلا شك ــ المطالبة بالغائها اذ ان كل أوجاقات الجيش العثمانى كانت تستفيد منها ، لكنه كان يعنى فقط تصحيح القسمة غير العادلة لها • ولذلك فان كل

المحاولات التى بذلت لانهاء هذا النظام ـ وخصوصا على يد كوتشك محمد عام ١٦٩٢ أو علـى أغا عام ١٧٠٣ ـ كان محتما عليها ان تبوء بالفشـــل (٥)

وفى داخل هذه اللعبة السياسية التى حـددنا باختصار سماتها العامة . ظهرت فى بداية القرن الثامن عشر عناصر جديدة سوف تؤدى الى تعقيد الامور ثم فى النهاية الى اثارة ثورة ١٧١١ ، تلك هى مشاكل الاشخاص الذين تسببوا فى انقسام صفوف البكوات الفقاريين . وقد تم الانقسام فى معسكر الانكشارية بسبب وضد افرنج أحمد (٦) باش أوداباشى والقائد الرئيسى للاوجاق ابتداء من ١٧٠٤ (٧) وكردفعل لسيطرته واستبداده كون فريق كبير من جنـــود وضباط الأوجاق حـــزبا معارضا لافرنج أحمد ، يجاهد للسيطرة عـــــلى الاوجاق . وزادت هذه الازمة الداخليـــة خطورة جهود القاسميين ـ العزبان عندما سعوا لانشـــاء حزب داخل الطائفة الغريمة ، وهكذا بدأت تحـدث سلسلة من الازمات فى السنوات الاولى من القرن الثامن عشر انتقلت اثناءها زعامة الانكشارية من حزب لاخر . وفى عام ١٧٠٧ ذهب خصوم افرنج أحمد (٨) ليعتصموا فى قشلاقات العزبان . وبعد

شهرين من التوتر أقيل افرنج أحمد وعزل ونفى في الوقت الذى عاد فيه الجنود الذين التجأوا الى معسكر العزبان الى أوجاقهم وأصبح كور عبد الله هو الباش أوداباشى للانكشارية ٠

ومع ذلك فقد عاد افرنج أحمد بعدوقت قصير الى القاهرة بمساعدة أيوب بك ، وبمجرد أن رفض الانكشاريون قبوله فى الاوجاق ، تم تعيينه فى منصب سنجق بك ( فى نوفمبر ١٧٠٧ ) ٠ وقد هيأت هذه النتيجة نجاحاً للقاسميين الذين سيطر انصارهم على الانكشارية حلفاء اعدائهم ٠ وبعد عامين من ذلك نجح افرنج أحمد فى بسط نفوذه من جديد على الاوجاق بدعم من أيوب بك ومحمد بك الكبير ( اللذين نجحا فى اقناع القاسميين بأن ينضموا اليهما ) ، وقام افرنج أحمد بعدة عمليات ضد فرقته الاصلية ـ الانكشارية ـ أدت الى هزيمتها فى النهاية وكان على الثمانية الذين قادوا العصبة المعادية لافرنج أحمد أن يتركوا معسكرهم وأن يذهبوا للمنفى ( فى قرية يملكها ايواظ بك ) فى الوقت الذى عاد فيه افرنج احمد الى أوجاقه فى منصب باش أوداباش ٠ وعن طريقه عاود

الفقاريون السيطرة على الانكشارية ، تلك السيطرة التى خرجت من أيديها بعضا من الوقت ·

وقد ارتبطت بهذه المعارك الداخلية فى صفوف الانكشارية خلافات أخرى بين البكوات الفقارية كان من نتائجها الاخلال بالتوازن بين القاسميين والفقاريين ، ذلك التوازن الذى كان دعامة السلام المدنى فى القاهرة · وفى المقام الاول كانت مشكلة تغيير حكام مقاطعة جرجا ـ تلك المقاطعة الهامة التى يتحكم حاكمها فى تموين القاهرة بحبوب الصعيد ـ هى أصل النزاع · فعندما أصبح محمد بك الكبير حاكما على المقاطعة بمعونة أيوب بك ، اعتمد على بدو الهوارة حلفاء الفقاريين والانكشاريين ، ولكن عندما استبدل به محمد بك الصغير ( قطامش تابع قايطاس بك ) قامت الصعوبات فى سبيل نقل الحبوب من الصعيد مما أدى الى عودة محمد بك الكبير الى المقاطعة ، فى العام التالى ، وقام « هو » بنزع أملاك قطامش فتضاعفت الخصومة بين البكوين نتيجة للقطيعة التامة التى نشأت بين حامييهما الكبيرين : أيوب بك وقايطاس بك بالرغم من انتماء الاميرين الى نفس « البيت » · وقد أدى ظهور حزب ثالث ،

حقيقى ، قايطاسى ( من محمد بك قطامش وحسين بك بارم ديله ) الى زيادة ضعف الحزب الفقارى الذى كان قد تسرب اليه الوهن بالفعل نتيجة للنزاع الداخلى بين صفوف حلفائه الانكشاريين • وقد عقد مولد هذا الحزب الثالث اللعبة السياسية فى القاهرة وفجر أزمة ١٧١١ وخصوصا عندما أثار قايطاس حفيظة القاسميين ضد أيوب ، وبسبب رغبته الشخصية فى الانتقام من الفقاريين •

## ٣ ــ بداية « ثورة » ١٧١١

عادت الازمة الداخلية فى صفوف أوجاق الانكشارية والتى سويت مؤقتا عام ١٧٠٧ لتبرز من جديد بطريقة شبه فجائية • فقد دخل « الثمانية » المبعدون ــ بعد اشهر من ابعادهم ــ فى علاقات مع قايطاس بك ، وطلبوا اليه أن يتدخل لدى الاوجاقات الستة كى يحصلوا على موافقة بعودتهم الى القاهرة • وسرعان ما جاءهم رد الامير بالترحيب فعادوا ــ بالتواطؤ معه بلا شك ــ الى القاهرة بطريقة سرية فى نهاية عام ١٧١٠ • وقد انتهز قايطاس بك سفر ايواظ بك رئيس الحزب القاسمى ــ والذى كان يقوم على

الدوام بدور الموفق والمصلح - مع موكب الحج وعزم بوضوح على استغلال الشقاق القائم فى صفوف الانكشاريه كى يشبع احقاده (٩) ٠

وتوزع «الثمانية» بين العزبان وفرق الاسباهية ( = الفرسان ) الثلاث وهى : توفكيجان ، جراكسة، جوموليان(١٠) بالتواطؤ مع اختيارى(١١) هذه الاوجاقات وفى نفس الوقت بالرغم من غضب أغا هذا الاوجاق رضوان أغا - الذى أدرك ما سيحدث - لا محالة - من اضطراب نتيجة عودة هؤلاء المنفيين ٠

وعندما أبلغ ابراهيم بك أبو شنب ( رئيس الحزب القاسمى وأيوب بك (رئيس الحزب الفقارى) بهذا الحادث الذى يحمل نذر اخطار شديدة ، لزم كل منهما جانب الحرص والحذر ، بل ان أيوب بك قد أجاب على الالتماسات التى قدمت اليه بالتدخل بأن الامر يدخل فى اختصاص «العسكر» وأن على رجال الاوجاقات أن يحاولوا التوفيق دون تدخل من السناجق ٠ عندئذ بذلت محاولة فى أوجاق الانكشارية من أجل التوصل الى اعادة «الثمانية» الى فرقتهم الاصلية لكن افرنج أحمد رفض أى تفاهم فى الامر بل وأصر الباشا خليل على أن يعود «الثمانية» - قبل أى نقاش - الى

منفاهم الذى غادروه دون سند شرعى .

وظل الامر على هذه الحال أثناء شهور ذى القعدة وذى الحجة عام ١١٢٢ ومحرم ١١٢٣ هـ (ديسمبر ١٧١٠ – مارس ١٧١١ انتظارا لعودة ايواظ بك من الحجاز . وكلما ظهر «الثمانية» فى شوارع القاهرة يتجولون تحت حماية أوجاق العزبان وحماية قائده حسن كتخدا الجلفى وهو واحد من الزعماء البارزين فى صفوف الانكشاريين تشجع خصوم افرنج أحمد الذين لاحت لهم – بهذه الطريقة – فرصة للتمرد . وتجمع الضباط المنتمون لجماعة مصطفى كتخدا القازدوغلى فى معسكر العزبان وهناك طالبوا بعزل افرنج أحمد أو نقلهم هم عوضا عن ذلك الى الاوجاق الذى يقع اختيارهم عليه . ونتيجة لمحاولات التوفيق التى بذلت لدى ابراهيم بك وقايطاس بك تقرر فى النهاية – فى ٢٣ محرم ١١٢٣ – مارس ١٧١١ – نقل ضباط الانكشارية الذين يريدون اللحاق «بالثمانية» الى معسكر العزبان . وكان عدد هؤلاء يبلغ ٦٠٠ مابين كتخدا وشوربجى وأوداباشى وجنود .

وعندما عاد ايواظ بك مع موكب الحج فى ١٣ صفر ١١٢٣ هـ (٢ ابريل ١٧١١) بدا عليه فى

البداية عدم الموافقة على محاولات قايطاس بك التى بدأت نتائجها المهلكة بالنسبة للامن القومى تلوح نذرها فى الافق ، وحاول جاهدا الوصول الى تسوية مع أيوب بك حتى يتفادى وقوع صراع مسلح ، لكن النجاح فى هذا المسعى لم يحالفه اما لان أيوب بك لم يكن على استعداد للتعاون معه أو لان البكوات كانوا محتدين بعض الشىء رغما عنهم بسبب الاستعدادات الحربية التى قام بها قوادهم . وزادت حركة هجر خصوم افرنج أحمد لمعسكر الانكشارية الى المعسكرات الاخرى بينما وصلت الصراعات الداخلية داخل الاوجاقات الاخرى بدفع من القاسميين الى مرحلة الخطورة ، وتفجرت العداوات بين كبار الضباط وجزء من فرقهم على الاقل (١٢) .

ويرفض خليل باشا الموافقه على التنقلات المطلوبة انفتحت الازمة ، وبدا أن أى اتفاق بين القاسميين ـ الذين كانوا يريدون عزل افرنج أحمد وعودة الثمانية ـ والفقاريين ـ الذين كانوا يدعمون افرنج أحمد ويحتمون طرد «الثمانية» ـ بدا مثل هذا الاتفاق مستحيلا .

وبدا كل فريق فى تركيز قواه فى معسكراته الخاصة به ، وأصبحت القوات تلازم معسكراتها

استعدادا للمعركة التى لم يعد ينقصها الى اطلاق الرصاصة الاولى ، وهو الشىء الذى جاهد الجميع بمشورة من رجال الازهر (١٣) أن يعثروا له على مبرر يبدو عادلا ومقنعا ٠

## ٤ ـ صراع مكشوف ( ابريل ١٧١١ )

انفجرت الحرب الاهليـة نتيجة لسلسـلة من الاعمال العدوانية المتصاعدة التى ارتكبها كل من الفريقين ٠ وحسبما ذكر أحمد شلبى (والجبرتى) فان الانكشـاريين ـ أعداء افرنج أحمـد والذين انتقلوا الى صفوف العـزبان ـ هم الذين بدأوها عندما قطعوا الطـريق المؤدى الى القلعة ( طريق المحجر) وعندما حاولوا ـ جهدهم ـ حرمان القصر من المياه بتخريب السـواقى الموجودة فى عـرب اليسار (١٤) ٠ عندئذ عرض انكشارية « القصر » الامر أمام الباشا وقاضى العسكر ٠ وما أن حصل افرنج أحمد على ادانة «العصاة» حتى أمر بقصف معسكر العزبان الذى كان يقع فى القلعة بجانب وأسفل معسكر الانكشارية (١٥) ٠ وهكذا تفجر ـ فى منتصـف ابريل ـ ذلـك الصراع الذى لم يقدر له أن ينتهى الا قرب نهاية يونيه (١٦) ٠

واستمر القصف الذى كان بالغ الشدة - بمقاييس العصر - لمدة ثلاثة أيام بينما واصل العزبان محاصرتهم للقلعة • عندئذ تدخل البكوات - الذين ظلوا حتى ذلك الوقت بمنأى عن الصراع بين العزبان والانكشارية رغم انهم فى الغالب أكثر ميلا للفريق الاول - تدخلوا لاعادة السلم بين المتخاصمين • ولعل محاولة التفاوض تعود الى أيوب بك الذى كتب - فيما يبدو - بهذا الخصوص الى ايواظ بك ( أو الى ابراهيم بك أبو شنب ) • ووضع الامراء القاسميون - كشرط لأية مفاوضة - وقف قصف المدفعية (١٧) • وبدأت هدنة استمرت عشرة أيام (١٨) ، واصطدمت مطالب الفريقين التى بدا من العسير التوفيق بينهما • وحسبما يذكر تقرير قنصل فرنسا بليران Peleran فقد طلب حزب الانكشارية المدعوم من الباشا « وأهم رجال القانون » وبعض البكوات أن يسلم الامير حسن الى الباشا لمحاكمته وأن يخرج «الثمانية» الانكشاريون من معسكر العزبان الذين يبسطون عليهم حمايتهم وأن يعودوا الى المنفى • وأصر العزبان والبكوات بدورهم أن يظل الامير حسن بينهم وأن يعود « الثمانية » الى صفوف الانكشارية وأن يعزل افرنج احمد من وظيفة باش أودا باشى •

وفى مثل هذه الظروف كان تفادى اســـتئناف العمليات العدوانية مســـتحيلا • ومن الجائز أن يكون افرنج احمد هو الذى قطع الهدنة (١٩) لكن عناد كل من الحزبين ورفضهما أية محاولة للتعاون ، والضغط الذى مارسه أيوب بك وقايطاس بك كل فى معسكره ــ كل هذا يبدو كأسباب كافية لفشل محاولة التفاوض (٢٠) • وبينما كان الانكشاريون يعاودون قصف معسكر العزبان دفع خصـــومهم ــ الذين اســتفادوا فيما يبدو من فترة الهدنة فى تقوية مواقعهم حول القلعة ــ دفعوا ببكير أوداباشى ومعه مائة رجل فى هجوم ليلى على معســـــكر الانكشارية ، ولكن بعد احراق أول أبواب المعسكر ارتد المهاجمون بفعل النيران الحامية للمدافعين •

## ٥ ــ وصول محمد بك الى القاهرة

### القتال فى المدينة ( مايو ١٧١١ )

أحدث وصول محمد بك الكبير تحولا حاسما فى الازمة • فقــد أثار تدخله ــ من جهـــة ــ تعميما للصراع الذى ظل ــ حتى الان ــ يدور حول العداء التقليدى بين العزبان والانكشارية ــ مما سيدفع بالبكوات منذ الآن للاصطدام بعضهم ببعض • ومن جهة اخرى فان محمد بك المدعوم بحلفائه من بدو

الهوارة أعطى دفعا جديدا للمعارك ، فقد انتشرت وامتدت من ضواحى القلعة الى القاهرة نفسها اولا ثم الى ضواحيها .

لقد كان أيوب بك هو الذى أخذ المبادأة بتوجيه نداء الى حاكم جرجا بأمل ان يخل ـ لصالح حزبه ـ بالتوازن بين المعسكرين . فقد أرسل اليه رسالة يطلب اليه فيها ان يجمع كل من يستطيع جمعهم من الهوارة والبدو والفلاحين ليزحف بهم الى القاهرة ، متحاملا ـ فى نفس الرسالة ـ على الامير حسن متهما اياه بالوقيعة والدس ليستبدل به ـ أى بمحمد بك الكبير ـ محمدا بك « الصغير » تابع قايطاس ، وبمجرد وصول الرسالة التى الحق بها بيورولدى (٢١) من الباشا يمنحه بمقتضاه « السلطة الشرعية » انهمك محمد بك على الفور فى تجميع جيش قوى ( يقدره الشاذلى بعشرة آلاف رجل ) واتخذ بجيشه على الفور طريقه نحو الشمال دون أن يغفل بهذه المناسبة استباحة مدينة اخميم ـ مقر الامير حسن ـ وسلبها . ووصل البك الى القاهرة عن طريق الآثار والقرافة فى الايام الاولى من شهر مايو وذهب ليستقر قرب الرميلة فى قصر أقبردى .

وقد أثار وصول هذا الجيش البدوى الى القاهرة

مشاعر حادة يبدو صداها فيما كتبه على الشاذلى الذى خصص عدة صفحات من مؤلفه لتناول هـذا الحادث (٢٢) · ولكن يبدو أن المفاجأة التى كان الامير يعتمد على ما ستحدثه من اثر قد افتضح امرها فقد كتب محمد بك الى أيوب ليستولى على مسجد السلطان حسن ليضع فيه بعض القوات وبعض المدافع ويحصر بذلك معسكر العزبان من الخلف ، لكن الرسالة احتجزت فى الطريق ، وأرسل العزبان مائة رجل وبعض المدافع الى المسجد ، وتم احتلاله على يد محمد بك قطامش ومعه ثلاثمائة رجل ، وأصبح المسجد بذلك جزءا من خطة دفاع العزبان ·

وبمجرد مجىء محمد بك اتخذ الحزبان اللذان كانا قد بدآ يتشكلان اثناء المرحلة الاولى من الصراع ، شكلهما المحدد · فمن جهة ، حول ايوب بك وافرنج احمد ، ومحمد بك الكبير والباشا الذى منح الاخير لقب سر عسكر (٢٣) نجد مصطفى بك الشريف ، والجزء الأكبر من طائفتى الانكشارية والمتفرقة ( بزعامة محمد أغا ) وضباط الاسباهية بدون فرقهم ( رضوان أغا من الجامولیان ، عمر أغا من الجراكسة ، أحمد أغا من تفكجيان ) وكتخدا الجاوشية وسليمان اغا من بعض من رجاله · وفى المعسكر الآخر نجد ايواظ

بك أمير الحج ، وابراهيم بك وقايطـــــاس بك الدفتردار (٢٤) ومعهم قنصـــوه بك وعثمان بك ( بارم ديلـــه ) ، ومحمـــد بـك قطـــامش ، وفرق الاسباهية الثلاث ، وأوجاقا الجاوشـــية والعزبان مع ســـــتمائة من المنشقين على أوجاق الانكشارية . ان ازمة ١٧١١ تؤكد ذلك الصدع الذى أصـــاب التقسيمات التقليدية التى قامت عليها الحياة الســـياسة فى القاهرة حتى ذلك الوقت . وقد جمع معسكر العزبان بالاضافة الى بكوات القاسـمية البكوات الفقارية من عصـبة قايطاس بك وعدد آخر من البكـوات الذين كانوا يلزمون حتى الآن موقف الحياد . وفيما عـــدا أوجاق العزبان الذى حافظ على وحـدته ، بدت الاوجاقات الاخرى شـــديدة الانقســـام لدرجة عميقة ، سواء بأن ينضم جزء من الاوجاق لمعسكر معاد ( الانكشارية ) أو بأن يجد كبار الضـــباط انفسهم فى معسكر غير المعسكر الذى ينضم اليه جنودهم ( الاسباهية ) . وهذه الانقســـامات الداخلية تبين بجلاء شراسة الصراع الذى لم يكن من المســـتطاع أن ينتهى الا بســحق أحد الحزبين المتعاديين مادامت كل محاولة للتوفيق - من نوع تلك الحلول التى كانت تتوصل اليها الاوجاقات عادة - قد اصبحت مستبعدة . أما بقية الشعب

( العلماء والاهالى ) فقد كانوا بالمثل منقسمين بين المعسكرين .

وخلال الحوادث العسكرية ، العارضة والعشوائية فى معظم الاحيان بدأت تتكون استراتيجية متماسكة يعود الفضل فيها على وجه التقريب الى محمد بك الكبير (٢٥) . فبعد هجوم فاشل من الانكشارية على معسكر العزبان اقتنع الاولون فيما يبدو بعدم جدوى الهجمات المباشرة (٢٦) ، فنزل محمد بك من القلعة ونقل العمليات الى المنطقة الواقعة بشارع الصليبة - حيث كان مقره - ليستطيع القيام بهجوم شامل موحد ضد العزبان الذين كانوا يحاصرون القلعة ، ولكى يحاصرهم - هم بدورهم ، حسب الخطة التى كان قد لجأ اليها منذ البداية والتى كان العزبان قد أحبطوها . وتمت مهاجمة مسجد السلطان حسن ، لكن محمد بك قطامش قام بصده ، فنصب المهاجمون مدافعهم خلف متاريس امام المسجد فى سوق السلاح وكذلك على رأس شارع الصليبة ، لكن محمد بك لم ينجح الا فى طرد العزبان من موقعهم فى سبيل المؤمنين جنوب الرميلة . ولكى يفك العزبان ذلك الحصار الذى ضرب حول مسجد السلطان حسن ولكى يدعموا المواقع التى كانوا يحتلونها فى منطقة الرميلة

أقاموا حاميات فى وكالة المزاريق وفى مسـجد محمد باشا وفى مسـجد الامير اخور · وكانت هذه المواقع تحمى المواقع الامامية لمعسـكرهم وتؤمن الاتصال بمسـجد السـلطان حسن ، حصنهم الامامى · اما الانكشاريون — بدورهم — فقد وسعوا نطاق القصف مما سبب اضرارا بالغة للمبانى التى اتخذوا منها اهدافا لهم (٢٧) ·

وعندما عجز محمد بك عن الهجوم على أعدائه فى الضواحى المجاورة للرميلة ، فانه عرض القيام بمناورة جديدة لكسر شوكتهم ، وذلك بارسـال « عسـكر » الى مسـاجد الحى الجنوبى للقاهرة بغرض قطع المياه والطعام عن جنود معسـكر العزبان وعن مسجد السلطان حسن ·

وما ان اشتم العزبان خبر هـذه الخطة حتى بادروا باحتلال مسجد الجائى اليوسـفى ومسجد الماردانى من قبيل الاحتياط ، لكن الانكشـاريين اسـتطاعوا احتلال مسـجد الامير سـودون زادا الواقع بين المسـجدين السابقين والذى أهمل العزبان احتلاله · ودارت معارك عنيفة عندئذ فى سـويقة العزى لامتلاك المسـاجد (٢٨) ، بينما اضطر الاهلون الى الاحتماء فى بيوتهم ولم يكونوا يستطيعون التزود لا بالطعام ولا بالمياه · وبعـد أن قاوم العزبان ضـد الحصـار الذى فرضته

الانكشـــــارية على مســـجد الجـائى نجحوا بعـد عدة أيام من المقاومة فى فك الحصـــــار وطردوا خصومهم من مسجد سودون زادا ٠

وهنا ، قام الانكشـــــاريون بمحاولة جديدة للالتفاف حول مواقع الاعداء ونتج عن ذلك اتساع جديد لمنطقة المعارك فى قلب القاهرة ٠ وأرســل عمر - أغا الجراكسة ولكن بدون قوات من أوجاقه - ليحتل مسجد قجماس ، بينما كان على سليمان - كتخدا الجاوشية ولكن ايضا بدون جنـود من فرقته - يستولى على مســـــجد المؤيد - فى باب زويلة - ومسجد اسكندر فى باب الخرق (٢٩) ٠

وعندما اطمأن الانكشـاريون للســـيطرة على وسط المدينة ، بات عليهم ان يعزلوا الحى الجنوبى الذى يقع تحت ســـــيطرة العزبان (٣٠) ٠ وقد استطاع عمر أغا ان يستقر فى مســـجد قجماس وأن يستميل اليه بعض الرجال فى الدرب الاحمر وباب زويلة لكن العزبان قاموا على الفور بهجوم مضاد ، واستعاد صالح شـــوربجى الرزاز جامع قجماس كما استطاع ان يعاود احتلال منطقة باب زويله بمعونة من ســـــكان المنطقة فيما يبدو - أولئك الذين اعياهم طول القتال واتساعه (٣١) - واحتفظ العزبان بالسيطرة على الطرق المؤدية الى

مسجد السلطان حسن ، وتلك المؤدية الى معسكرهم .

وحاول الامراء من جديد معاودة الاتصال بأيوب بك لوضع حد للصراع ، واقترحوا عليه تعيين باش أوداباشي جديد للانكشارية . أما افرنج احمد وعبد الله اوداباشي ـ اللذان ينبغى ان يستبدل بهما غيرهما ـ فيمكن أن يعينا فى وظيفة شوربجي ـ أو ان يرسلا للمنفى . لكن أيوب بك رد بضرورة نفى « الثمانية » واعدام الامير حسن (٣٢) . وبذلك بقى كل من الحزبين على موقفه . وبعد مشورة العلماء (٣٣) ، لجأ القاسميون الى « الوسائل الكبرى » تنفيذا لنصيحة ايواظ بك فقرروا تنحية خليل باشا ـ الذى كان منذ بداية الازمة قد أعطى تأييده لايوب بك وللانكشارية ـ وتعيين قنصوه بك كقائمقام (٣٤) ، وتنحية قادة الفرق الخمس وتعيين أغا جديد ـ موال لهم ومقبول من حزبهم ـ لكل أوجاق . وعندئذ اتخذ الباشا وافرنج احمد من جانبهما ـ وربما كرد سريع على هذه الاجراءات ـ قرارا بتجنيد فرق جديدة مرتزقة (٣٥) . ورغم ذلك ، ورغم مهارة الاستراتيجية التى وضعها محمد بك ، فان ميزان العمليات على وجه العموم لم يكن فى صالح

الانكشـــارية الذين لم يســـتطيعوا ان يحطموا الحصار المضروب حول القلعة ، ولا أن يلتفوا حول العزبان · ومع تعيين قائمقام جديد وأغوات جدد عن طريق خصومهم فان الانكشــارية وحلفاءها ، اصبحوا يقاسون الان من الفشل ـ الذى لا يمكن انكاره ـ فى خطتهم السياسية ·

## ٦ ـ معارك قصر النيل وموت ايواظ بك أول يونيو ١٧١١

لســـنا نعرف على وجه التحـــديد ، أى من الفريقين هو الذى عمل على نقل العمليات الحربية الى خارج القاهرة · لكن هذه الخـــرجات اليومية العجيبة للفريقين للتصـــارع والقتال بالقرب من قصر العينى ، لم يكن غرضها ـ كما هو معلوم ـ تجنيب القاهريين ويلات الحرب ·

ومن المصادر التى رجعنا اليها يمكن ان نستنتج أن الامراء ـ عندما وعوا صعوبة الحصول على كسب حاسم فى داخل المدينة ـ حاولوا الســـيطرة على المناطق التى يمر منها تموين المدينة ، وخاصـــة المياه النقية · وســـواء كان القائمقام هو الذى اقترح قطع مجارى المياه التى تغذى القصـــور بحاجتها من الماء حتى يشعر الباشا والانكشارية بخطئهم أو ان الباشا وأيوب بك هما اللذان أرسلا

ـ أولا ـ قواتهما ( بدو الهوارة ) لاعتراض طريق السقايين لحرمان خصومهم ومعهم سكان المدينة من المياه (٣٦) ، فانه من الممكن ان يكون المتخاصمون قد وجدوا فى السهل الملىء بالحدائق والحقول ، والذى يمتد بين النيل والقاهرة ـ وهو المكان الذى كانوا يمارسون فيه تدريبهم على استعمال السلاح ـ أنسب مكان لعملياتهم العسكرية ، عن شوارع القاهرة الضيقة والمتعرجه ، ولذلك فقد اعتادوا ابتداء من نهاية مايو الخروج للتلاقى هناك ٠

وقد بدأت الاشتباكات الحادة ـ فيما يبدو فى ١٢ ربيع الثانى ( ٢٩ مايو ١٧١١ ) وأمر أيوب بك والباشا أعوانهما من الهوارة بالتوجه الى شاطىء النيل والاستيلاء على جمال وحمير السقايين ٠ وسرعان ما اصبح الماء شحيحا فى القاهرة حيث وصل ثمن القربة من الماء الى خمسه نصف فضة ٠ عندئذ ارسل امراء معسكر ايواظ بك بعض العسكر الى قصر العينى ليعيدوا تأمين حرية الاتصال بالنيل لكنهم هوجموا من محمد بك وهوارته وتفرقوا ٠ وفى الغد توالت المعارك ٠ وفى يوم الاثنين ١٤ ربيع ثان ( اول يونيه ) ٠ خرج امراء المعسكرين من القاهرة ومعهم كل قواتهم ليبدأوا المعركة فى

قلب الريف ، وقدم ايواظ بك والحزب القاسى من جهة الشمال ( فى اتجاه بولاق ) وجاء محمد بك وأيوب بك وحلفاؤهما من جهة الجنوب ( نحــــو الآثار ) • وتم اللقـــاء فيمـــا بين قصر العينى والروضة • وبعد تبادل طلقات المـدافع اصـبح الاشتباك بالايدى ، وأسفرت المعركة الرهيبة ـ وغير الحاسمة فى نفس الوقت ـ عن سبعمائة من القتلى ، وحسمت المعركة فى النهاية لصالح محمد بك • لكن ابرز ما حدث فيها كان مصرع ايواظ بك الذى قتل اثناء المعركة التى دارت بالقرب من المقياس •

وقد احدث اختفاء ابرز الامراء القاسميين أثرا عميقا عكس المؤرخـون فى كتـاباتهم صـداه • وعندما حملت رأسه الى أيوب بك ، انخرط هذا الاخير فى البكاء ـ فيما يقال ـ وقال لمحمـد بك الـكبير الذى كـان مزهـوا بانتصـاره : « انت نشأت فى الصعيد ولا تعـرف شـيئا عن امـور القاهرة • هؤلاء الناس قاسميون ، ولا يرون فيما حدث الا شيئا من فعل الفقاريين • ايواظ بـك كان لديه الكثير من المال ، ولسوف ينفقون هـذا المال فى سبيل الانتقام له » •

وسرعان ما وجد القاسميون ـ الذين اربكهـم فى البداية موت ايواظ بك ـ رئيسا قادرا عـلى

الامساك بزمام حزبهم . فقد عقدوا اجتماعا عند قنصوه بك ، وقدم يوسف الجلفى مملوك ايواظ بك فى صحبة اسماعيل ابن الامير الراحـــل ، وبعد ان حث الامراء على تنظيم صفوفهم للثـــأر لموت سـيده ، تم تعيينيــه فى وظيفــة امير الحج وسر عسكر مكان سيده الراحل . ومـــا ان تم الاعتراف به خليفة لايواظ بك حتى بـدأ يغترف من الثروة التى خلفها سيده ليقوى صفوف حزبه وذلك عن طريق توزيع عطاءات سخية من المـال على المحاربين .

وبعد هذه الايام الثلاثة التى تلت موت ايواظ بك عادت المعارك فاستؤنفت خارج القاهرة حيث كان الحزبان يتوجهان كل يوم تقريبـا الى القصر العينى . وفى ١٩ ربيع الثانى ( ٦ يونية ) هزم بدو الهوارة التابعون لمحمد بك على يد يوسف بك الجزار وأمراء حزبه . وفى ٢٧ ربيع الثانى ( ١٤ يونية ) خرج الجيشان من باب واحد ، باب قناطر السـبـاع وذهبوا للتحارب طول اليوم فيما بين قصر العينى والروضة . وفى المســاء قام محمد بك بهجوم فاشل ضد مؤخرة العزبان وهم يعودون الى القاهرة ، وأوشك ايوب بك ان يقع اسـيرا فى يد اعدائه ، وفى ١٥ يونية ذهب يوسف بك لينهب القصر الجميل الذى كان يملكه افرنج أحمد عـلى

طريق بولاق ، فقام خصومه ـ أخذا بالثار ، بدورهم بنهب قصر حسين كتخدا • واستمرت موقعة ١٦ يونية يوما كاملا ، وخلفت على ارض المعركة حوالى اربعمائة قتيل ، واصبح القتال اكثر شراسة بدخول اعوان جدد من البدو الى ميدان المعركة فى صف كل من المعسكرين : فقد استدعى أيوب بك بدر أولاد حبيب استعدادا لهجوم جديد ، وانضم بدو والبحيرة الى صفوف العزبان ، ولكن لم يكن يبدو على اى من الفريقين، طوال شهر يونية ، سواء خارج القاهرة او حول القلعة ، انه قادر على سحق الاخر (٣٧) •

## ٧ ـ هزيمة ايوب بك وموت افرنج أحمد •

استمرت الازمة ـ مع ما يصاحبها من اعمال العنف والتخريب والآلام التى فرضت على شعب القاهرة أكثر من شهرين • ولم يكن عناد كل من الفريقين يسمح ببحث اية امكانية للسلام والاتفاق • ومن جهة اخرى فأن توازن القوى الملموس كان يمنع أية امكانية لاحراز نصر عسكرى • واتخذ امراء معسكر العزبان ـ مستفيدين من الفرصة التى هيأتها لهم سيطرتهم على مدينة القاهرة ـ عدة قرارات فى منتصف شهر يونية مكملة للاجراءات التى اتخذوها فى

مايو والتى سوف تؤدى فى النهاية الى ارتباك المعسكر المعادى وذلك بضم المحايدين والمتمردين الى صفوفهم ، فعملوا اولا على تعيين كتخدا من صفوف الانكشارية هو حسن جاويش الجلب الذى عين فى هذا المنصب عن طريق القايمقام وتعين له مقر فى بيت الوالى بالقرب من باب زويلة ، كما صدر الامر الى اولئك الذين كانوا مسجلين فى دفاتر الاوجاق بالذهاب للالتحاق به بلا ادنى تأخير . وفى ٢٥ ربيع الثانى (١٢ يونية) عمل السناجق والقائمقام على تعيين على أغا فى وظيفة أغا الانكشارية رغم قلة حماس الاخير للعودة فى مثل هذه الظروف ـ لشغل مناصب كان يشغلها بجدارة منذ عدة سنوات . وكان خلق « هيبرارشية متوازية » (٣٨) اجراء ثوريا يضفى الصيغة الشرعية لامر واقع ، هو وجود فريق من الانكشاريين المتحالفين مع القاسميين وفى صراع مع بقية اوجاقهم . اما الانكشاريون الذين لزموا الحياد ، وأولئك الذين سبق ان التجأوا الى معسكر العزبان او الى اوجاقات اخرى فقد ذهبوا يلتحقون ـ من جديد بفرقتهم . وبعد ذلك بأيام ( ٢ جمادى الاولى ـ ١٨ يونية ) أمر امراء العزبان بأن يعلن فى شوارع القاهرة بأن كل من كان اسمه مسجلا فى اوجاق ويتقاضى منه

راتبه فعليه ان يتوجه الى فرقته الاصلية فى خلال ثلاثة ايام والا فسوف تتخذ ضد شخصه وممتلكاته اجراءات عنيفة · ووجه تحذير — على وجه الخصوص — الى « العسكر » الذين كانوا بالقلعة بأن منازلهم ستستباح ان هم رفضوا الاذعان والطاعة · وقد اثار هذا الانذار — الذى كان الامراء القاسميون يملكون وسائل تنفيذه حيث كانوا يحتلون المدينة شمال القلعة — بعض المتاعب للقصر ، وبدأت موجة من الهروب تظهر فى معسكر الانكشارية بالرغم من تجول على أغا بالمدينة كى يعيد ضم المترددين ·

وبينما كان الانكشاريون يحاولون — دون ان يحالفهم النجاح — اخذ معسكر العزبان على غرة ، وبينما كان قصف المدافع وطلقات البنادق تتوالى حول القصر ، وبالرغم من تعدد الخروج الى خارج القاهرة ، فان العسكر والامراء الذين تجمعوا عند قنصوه بك قرروا — للخلاص من الامر — مهاجمة قصر ايوب بك الواقع فى الحى الرئيسى للحزب المعادى · وكان السنجق قد حول هذا المقر الفخم الى حصن منيع فقوى اسواره فيما بين مسجد ابن طولون وقناطر السباع بوضع الرجال والمدافع على اسطح المنازل المجاورة · وبدأ الهجوم يوم الاحد ٥ جمادى الاولى — ٢١ يونية

بادئا من منزل ابراهيم بك ابو شنب بوحـدة من الانكشارية المنشقة ووحـدة اخرى من العزبان كانتا تحت قيادة كـور عبد الله اودا باشى . ومن منزل ابراهيم ابو شنب ، وحسب التاكتيك الذى كان متبعا ـ فى العادة ـ اثناء معارك الشـوارع داخل القاهرة لتفادى التعرض لنيران العدو ، مر المهاجمون من المسكن المجاور المتصل بمسكن عمر أغا ثم غادروه للحظة ، وامر يوسف بك بوضـع مدفع فيه ليحصل لنفسه على موضع قدم فى هذا الموقع واخيرا وعن طريق ربع يقع بين منزل عمر اغا ومنزل ايوب بك بدأ الهجوم الكبير ، وقـرر ايوب بك الذى كان فى عزلة عن رجاله ان يهرب قاصدا استامبول ، وقرر رضوان أغا الجامو ليان . وسليمان كتخدا الجاويشية ، ومحمد اغا المتفرقة ان يسافروا معه فى نفس الوقت الذى كان يتجه فيه محمد بك الكبير الى الصعيد مع هوارته بينما اختار عمر أغا الجراكسة وأحمد أغا التفكجيان ان يبقيا فى القاهرة ليجربا حظهما . وعندما اقتحم المهاجمون مقر ايوب بك وجـدوه خاليـا من المدافعين عنه .

وكان هرب الأمراء ضربة قاضية للباشـا ولافرنج أحمد اللذين وجدا نفسيهما منـذ الآن محرومين من أى دعم خارجى ، وأصبحا على الفور

محصورين داخل اطار ضيق . فبمجرد احتلال منزل ايوب ارسل القاسميون فصيلة مع بعض المدافع فوق جبل الجيوشى حيث يمكن التحكم فى قصر الباشا وفى معسكر الانكشارية ، وبالطريقه نفسها التى سبق ان تحكم بها الانكشارية فى معسكر العزبان . ومنذ الان اضحت كل مقاومة مستحيلة : ولكى يتجنب الباشا قصف القلعة امر برفع العلم الابيض وارسل القاضى ونقيب الاشراف للتفاوض مع الامراء فى شروط التسليم . وبمجرد ان صدق رسميا على وثيقة عزله وعلى تعيين قنصوه بك فى منصب قائمقام نزل من السراية وسط الموكب المعتاد وذهب ليقيم - حسب العادة - فى احد قصور القاهرة ( ٦ جمادى الاولى - ٢٢ يونية ١٧١١ ) . وتم اقتحام وسلب معسكر الانكشارية الذى هجره من كانوا فيه ، وطلب افرنج أحمد الامان وحصل عليه لكنه اغتيل عندما تعرف البعض عليه بعد نزوله من القلعة . ، وكذلك اعدم عديد من زعماء حزبه سواء وقت سقوط القصر او فى الايام التى تلت ذلك امثال : حسن أغا مستحفظان وعمر اغا الجراكسة وأحمد اغا التفكيجيان .. وفى الوقت الذى بدأت فيه تصفية حقيقية (٣٩) فى القاهرة ، فى الوقت الذى اتخذت فيه اجراءات حربية ضد

البكوات الهاربين ، اعيد « الثمانية » الى معسكر الانكشارية وسلموا بواسطة حسن الجلفى كتخدا العزبان الى جانب حسن كتخدا وعلى أغا ٠

## ٨ ـ خاتمـــة :

انتهت ازمـــه ١٧١١ بنصر ســاحق للحـــزب القاسمى ولحلفائه الوقتيين وهم الأمراء القايطاسيون ( اتباع قايطاس بك ) ، وثبت القائمام الاغوات الذين كانوا قد عينوا فى الاوجاقات الســـبعة ، وسافر محمد بك الصغير « قطامش » ـ الذى عين حاكما لجرجا ـ على رأس حملة لاخضاع الصعيد ، وكان على محمد بك الكبير ان يهرب كأيوب بك الى استامبول ، واجبر الهوارة على الخضـــــوع والتماس الامان ٠ لكن هزيمة ايوب بك عادت ـ فى النهاية ـ بالفـائدة عـلى من كـان المسـئول الاساسى عن الازمة وهو الامير الفقارى المنشق : قايطاس بك ٠ فتجاه حزب قاسمى اضـعفه موت زعيمـــه الرئيسى فان قايطـــاس بك قد فـرض سلطته فى السنوات التالية لعام ١٧١١ ، وفيها مارس الامراء الفقاريون ما يشبه احتكار مناصب حكام الاقاليم ، تلك التى كانت مقسمة من قبـل بالتساوى بين الحـــزبين ، فى نفس الوقت الذى اختص فيه قايطاس بك نفسه بمنصب الدفتردار ،

ومحمد بك قطامش ( تابعه ) بمنصب امير الحج
نجح القاسميون ـ بدعم من عابدين باشا الذى
وصل الى القاهرة فى ديسمبر ١٧١٤ ، فى ابعاد
منافسيهم الفقاريين من الوظائف الاساسية ٠
وباغتيال قايطاس بك فى يولية ١٧١٥ وبنفى
محمد بك قطامش بدأت فترة من السيطرة
القاسمية ٠ لم يقدر لها ان تنتهى الا عام ١٧٢٣
باغتيال اسماعيل بك بن ايواظ ٠

ان ازمة ١٧١١ قد ارتدت كل المظاهر المعتادة
لقواعد الحسابات بين جماعات المماليك المتخاصمة
كما عرفتها القاهرة كشىء عادى اثناء القرنين
السابع عشر والثامن عشر ٠ وقد ظلت الحرب بين
حلفى القاسمية ـ عزبان ، والفقارية ـ انكشارية
مسألة امراء مرتبطين باتفاقات ضمنية بعيدة عن
الشعب المحلى الذى اكتفى بأن يعانى ـ فى سلبية ـ
من آثارها ٠ ويفسر البعض احيانا نقل المعارك
الى خارج القاهرة بأنه جاء نتيجة لرغبة الامراء فى
ابقاء الرعايا بمنأى عن شئون المماليك (٤٠) ٠
ومع ذلك فان هذا « اللا اسهام » لم يكن كليا على
الاطلاق ٠ فقد سبق ان عرفنا ان العلماء قد
تدخلوا فى الازمة وان كان ذلك ـ لوجه الحق ـ
بطلب من الامراء ، كما ان العلماء قد انقسموا على
انفسهم بعمق ازاء هذه المشكلة ، ومن جهة اخرى

فان بعض الملاحظات التى اوردها المؤرخون توحى للذهن بأن شعب القاهرة فى لحظـــات معينة من الصراع خرج عن تحفظه لكى يساهم بدور لصالح القاسميين – عزبان (٤١) لكن ، ربمـــا كـــان هؤلاء المؤرخون ينســـاقون وراء عواطفهم التى كانت تميل لصالح القاسميين • وقد جعل عـــلى الشاذلى – وهو الذى كان يعكس بلا شك وبقدر من الدقة مشاعر القاهريين – جعل من نفســـه عدة مرات صدى لما كان يشعر به الاهلون من ملل تجاه تتابع العمليات الحربية ويشير – بوضوح – الى انهم يلقون بمسئولية الامر – بقدر متساو – على كلا المعسكرين •

ومع ذلك فان ازمة ١٧١١ تختلف من عـــدة وجوه عن « ثورات » القاهرة الاخرى • وقـــد دهش المؤرخون – بالطبع – من هـــذه الخرجـــات اليومية – والمتفق عليها – خارج القاهرة ، وانتهى بهم الامر ان اعتبروها ملمحـــا من الفولكلور المملوكى • لـــكن الحرب الاهلية عـــام ١٧١١ لـــم تكن بأية حال حربا هينة ، فقد كانت طويلـــة لدرجة شاذة ، كما انها بلا شك كانت من اكثر الحروب التى عرفتها القاهرة دموية ، وقدر « بوميية » وهو رحالة فرنسى خســـائر الفريقـــين بحـــوالى اربعة آلاف رجـــل وهـــو رقم قد لايكـــون

مبالغا فيه اذا وضعنا فى الاعتبار ان معارك اول يونية وحدها خلفت على ارض المعركة حوالى ألف رجل من العسكريين ، كما ان الاسهام الفعال لجنود البدو والذى جد فى طلبه كل من الفريقين يعطى بالمثل ملامح خاصة لهذه الازمة ، بالاضافة الى ان لجوء المتخاصمين الى استراتيجية مدبرة بعناية لحد ما ، وتلك المناورات البارعة لمحمد بك الكبير - رغم انها لم تكلل بالنجاح - أثناء المعارك داخل القاهرة تسهم فى اعطاء هذه الازمة مكانة مرموقة بين « الثورات » المملوكية فى القاهرة العثمانية .

# هوامش :

(١)درس هولت P. M. HOLT المخطوطات العربيـــة المتصـــلة بتاريخ مصر ابان هـــــذه الفتـــرة فى مقالة Al Jabarti's introduction to the history of ottoman Egypt (Bullutin of the school of the oviental and African Ciudies, 1962).

وقد خصص الدكتور محمد أنيس دراسة مطولة لمجموعة المصادر اللازمة بعنوان : مدرسة التاريخ المصرى فى العهد العثمانى . القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٥٨ .

(٢) استوحى مارسيل Marcel كتابه
L'Egypte le Puis la Conquéte des Arabes, Paris,

من التاريخ الذى كتبه الشيخ اسماعيل الخشاب (دار الكتب باريس . مخطوط عربى برقم ١٨٥٨) ، كاستجابة لطـــلب الفرنسيين فترة حملتهم على مصر . والمؤلف كما هو واضح كتب بعد فترة طويلة جدا من الاحداث لذلك كان هاما من وجهة نظر جغرافية التاريخ أكثر منه فيما يتعلق بالاحداث نفسها .

(٣) كانت التجارة الفرنسية تدخل ضمن نطاق حمـــاية الانكشارية . ويبدو أن القناصلة الفرنسيين كانوا يحصلون

على تأييد مطلق من أفرنج أحمد لكافة مشروعاتهم ولذلك كانوا يتمنون له — بالطبع — كل النجاح .

(٤) كان عدد فرق الجيش العثمانى بمصر سبع فرق (أوجاقات — المفرد — أوجاق) أهمها هى الانكشارية وتعنى فى اللغة التركية الفرقة الجديدة وكانوا يسمون فى القاهرة أيضا مستحفظان بمعنى حراس بسبب دورهم فى حماية القلعة ومدينة القاهرة ، ثم الاوجاق الغريم : عزبان ومعناه عساكر المشاه . وكان لكل منهما معسكره بالقلعة ويسمى (باب) .

(٥) هذه الاعتبارات العامة لا تلقى مطلقا بالا للحركات السياسية والاجتماعية التى حدثت فى هذه الفترة مثل : الموقف داخل جماعة الانكشارية ، ظهور «مصلحين» مثل كوتشك محمد وعلى أغا مما يتطلب دراسة عميقة تكملة لتلك التى بدأها فى مقاله عن كوتشك محمد .

(٦) «أفرنج» كما تذكره المصادر العربية «أفرنك» ( التى نجدها فى وثائق المحفوظات ) أكثر مطابقة للنطق فى ذلك الوقت ونجده مكتوبا «فرانك» فى الوثائق القنصلية .

(٧) كان يقود أوجاق الانكشارية — ككل الاوجاقات — أغا يعاونه كتخدا «ملازم» وعند الانكشارية الذين كان يرسل أغاهم من استانبول أو يتم اختياره من صفوف الجاويشية أو المتفرقة (فرقتين بالجيش العثمانى بمصر) كانت

رتبة كتخدا هى أعلى رتبة يمكن أن يصل اليهـــا فرد فى العسكرية المصرية ، وأصحاب الحق فى هذه الوظائف كانوا يلعبون دورا حاسما فى أوجاقاتهم . أما الكتيبة (أودا) فكان يقودها أوداباشى أى قائد الكتيبة أما ضباط الصف هـؤلاء فكان يقودهم باش أوداباشى أى رئيس قواد الكتائب وكان فى الغالب شخصية قوية ويمارس فى الواقع قيادة الاوجاق منذ نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر .

(٨) كان الحزب المعادى لافرنج أحمد بزعامة ((ثمانيـــــة)) ضباط (تذكر المصادر القنصلية انهم سبعة لكن قائمة أسمائهم تختلف من مصدر لاخر . وهناك — فى مختلف المصادر — اتفاق على هذه الاسماء الستة : ناصف كتخدا القازدوغلى ، كور عبد الله باش أوداباشى . مصطفىكتخدا الشريف ، قرا اسماعيل كتخدا ، ابراهيم أوداباشى حسن كتخدا النجدلى.

(٩) بخلاف مايذكره الشاذلى من أن ((الثمانية)) كانوا مخولين بالعودة الى القاهرة بعد شهرين فقط من النفى ، يبدو من الافضل أن نأخذ بما ذكره القينالى والدمرداش اللذان قررا أن الثمانية لم يعودوا الى القاهرة الا بعد سفر محمل الحج بقيادة ايواظ بك الذى عين أميرا للحج فى مايو ١٧١٠ . أما أحمد شلبى (والجبرتى) فقد كانا أقل تحديدا للاحداث التى أدت الى أزمة ١٧١١ والتى تبدو فيها مسئولية خصوم أيوب بك وافرنج أحمد بوضوح .

(١٠) بخلاف طائفتى الانكشارية والعزبان هناك المتفرقة الذين يحتلون المقام الاول ، ثم الجاوشية (رسل) الذين كانوا مكلفين بمهام مختلفة فى خدمة الباشا ثم هناك فرق الاسباهية الثلاث وهى : جامولیان (ركاب الجمال) وهم متطوعون ، وتوفكجيان وهم الفرسان ثم الشراكسة وهم فرقة تتكون أصلا من شراكسة المماليك .

(١١) كان قدامى ضباط الاوجاقات يسمون : اختيارية وهم يشكلون مجموعة ذات نفوذ فى فرقهم . (المفرد: اختيار).

(١٢) وهكذا طالب القاسميون — فى صفوف الجامولیان — باحلال على أغا ( أغا مستحفظان سابق ) محل رضوان أغا وكذلك طالب الجاويشان بتغيير سليمان كتخدا واسماعيل أغا خليفة ابراهيم بك .

(١٣) حسبما يذكر الشاذلى — الذى تنقصه الدقة عند عرض مقدمات الازمة — فان «الثمانية» هم الذين لجأوا أولا الى رجال الازهر وحصلوا — بعد دفع مبلغ من المال — على فتوى تخولهم حق قتال الجماعة التى تمنعهم من العودة الى معسكرهم . لكن افرنج أحمد حصل بعد ذلك من نفس هؤلاء العلماء — الذين كانوا يميلون له — على فتوى مضادة . ويذكر الدمرداش أن الانكشارية استشاروا العلماء الذين أصدروا فتوى ضد «قطاع الطرق» بعد بدء العزبان محاصرة القلعة .

(١٤) عرب اليسار : حى يقع فى طرف قراميدان جنـوب القلعة . وهذه العمليات يقصها الشاذلى بطريقة مختلفة قليلا اذ يذكر انه بمجرد رفض الباشا عودة «الثمانية» عقـد اجتماع عند العزبان استثير فيه ابراهيم الصابونجى أوداباشى. وتقرر فيه أن يقوم العزبان بهجوم ضد باب المحجر فى الوقت الذى يقوم فيه السناجق بقطع المجرى الذى يغذى القلعـة بالمـاء .

وفى هذا الوقت كانت هناك مناوشة فى السـواقى بين قنصوة بك وعثمان بك ومحمد بك قطامش وبين بعض من رجال أيوب بك .

(١٥) يتحدث الشاذلى بتأثر واضح عن قذائف تبلغ مائة طلقة مدفع وعن آثار التلفيات والخسائر التى أحدثتها .

(١٦) تبعا لما يذكر الشاذلى فان القصف بدأ يوم الخميس ١٦ صـفر ١١٢٣ (٥ ابريل ١٧١١) لكن أحمـد شلبى (والجبرتى) يقدمان تواريخ مختلفة .

(١٧) ربما كان سبب تحفظهم هذا هو خوفهم من أن يتخذ أيوب بك (الذى نصب المدافع على جبـل الكبش قريبا من منزله) من تدخلهم ذريعة لاستباحة مواقعهم .

(١٨) حسب رواية الشاذلى و ١٣ ــ ١٥ يوما حسبمـا يذكر أحمد شلبى والجبرتى وثلاثة أيام فقط حسبما يروى الدمرداش والقينالى .

(١٩) يتهم كل من الدمرداش والقينالى افرنج أحمد بانه عاود القصف فى الوقت الذى كان بكوات المعسكر المنافس ينتظرون رد أيوب بك . وقال ابراهيمبك وهو يسمع المدافع تعاود قصفها لمعسكر العزبان «هذا جواب الصلح» .

(٢٠) وهذا مايمكن استنتاجه من يوميات على الشاذلى الذى يعكس رأى «رجل الشارع» .

(٢١) كانت الاوامر الصادرة من الباشا — الذى يحكم مصر باسم السلطان — تسمى بيورولودى وهى كلمة تركية معناها «لقد أمر .. لقد تقرر ..» أما كلمة فرمان فقد كانت مخصصة للقرارات والاوامر السلطانية .

(٢٢) ينسب على الشاذلى الى هذا البك توجيه العمليات داخل معسكر الانكشارية وكذلك توجيه المحاولات المتتابعة التى أدت الى نقل المعارك الى داخل القاهرة بينما يميل أحمد شلبى (والجبرتى) الى التركيز على الدور الذى لعبه افرنج أحمد .

(٢٣) قصة استدعاء محمد بك كما توردها رسالة الشيخ على الشاذلى مفصلة جدا . وحسبما يذكره القينالى والدمرداش اللذان كانا بالطبع متحاملين على محمد بك ، فان الهدنة قد قطعت بعد وصوله ، ولكن تبعا لمراسلات Peleran فان محمد بك لم يصل الى القاهرة الا بعد قطع الهدنة فى ٤ مايو ١٧١١ .

(٢٤) كان قاضى المعسكر ونقيب الاشراف منحـــازين لصف الباشا .

(٢٥) من بين بكوات مصر الاربعة والعشرين (سنجق بك)، ثمة اثنان على أكبر درجة من الاهمية وهما الدفتردار وهـو المختص بشئون المالية وأمير الحج الذى يرأس موكب محمل الحج وكانا فى رتبة ((وزير)) .

(٢٦) واقعة البدارم (اسم المكـان الذى يفصـل بين المعسكرين المتنازعين) التى يذكرها مؤلف الرسالة ربما كـان القصد منها التمهيد لهجوم خادع ، وهو ماتحقق بطريقـة رائعة بمعونة من الكلاب الضالة فى حى الرميلة كما يذكر الدمرداش والقينالى ، بينما يتحدث أحمد شلبى والجبرتى عن هجوم غير مثمر ضد معسكر العـزبان ثم عن طريق قراميدان وفى تاريخ متأخر .

(٢٧) حسبما يذكر الشاذلى ، كان مسـجدا المحمودية ومسجد الامير آخور من بين المبانى التى أصيبت . وتاثر القاهريون بالغ التأثر بهـذا القصف الذى كان ((يضىء فى الليل كالبرق)) مما جعلهم يظنون أن الارض ستميد من تحت أقدامهم . وتولى التعليقات الحزينة للمؤرخ أهمية كبـيرة لردود الفعل هذه .

(٢٨) وصفت هذه المعارك بدقة فى رسالة على الشاذلى ، بينما لم يميزها أحمد شلبى والجبرتى عن العمليات التىدارت فيما بعد فى حى باب زويلة .

(٢٩) حاليا باب الخلق .

(٣٠) هذه المرحلة من العمليات وصفت بكثير من التفاصيل عند أحمد شلبى والجبرتى بأكثر مما وصفت فى رسالة على الشاذلى . أما القينالى والدمرداش فيرتبانها بعد موت ايواظ بك فى أول يونية وينسب أحمد شلبى والجبرتى فكرة هذه المناورة الى افرنج أحمد ، لكن القينالى يرى أن محمد بك هو الذى اقترح فكرتها التى تتطابق مع استراتيجيته أثناء الازمة بكاملها .

(٣١) أصبح التزود بالمياه — على وجه الخصوص — بالغ الصعوبة وبلغت جرة المياه العذبة سعرا خرافيا ( واحد ونصف فضة للجرة ) .

(٣٢) لا تذكر محاولة المفاوضات هذه الا عند على الشاذلى ويبدو انها حدثت وقت أن كان أمراء معسكر العزبان يستعدون لاتخاذ اجراءات لا يمكن علاجها . ويؤكد أحمد شلبى والجبرتى أن محاولة بذلت من جانب الباشا ، بعد تعيين قائمقام ، لاقناع البكوات المعادين بالمجىء الى القلعة لعرض شكواهم ضد الانكشارية ، لكنهم تهربوا من ذلك العرض .

(٣٣) أو على الاقل فريق منهم: اذ استدعى ايواظ بك واتباعه العلماء المخلصين لهم وبعد أن شرحوا بالوقائع تحيز الباشا وحوادث العنف التى وضحت مسئولية الهوارة عنها ، عندئذ حصل ايواظ بك وأتباعه على فتوى تخولهم حق الدفاع عن النفس .

(٣٤) حسبما يذكر القينالى والدمرداش فان عزل الباشا وتعيين قائمقام جاء بعد وقت قليل من وصول محمد بك

الكبير الى القاهرة (فور تعيينه سر عسكر من قبل الباشا وهو الامر الذى كان السبب المباشر فى القرار الذى اتخذه الامراء) وفى هذين التاريخين نذكر أحداث المعارك بعد موت ايواظ بك . والقائمقام هو الشخص (بك على الدوام ابتداء من ١٦٠٤) الذى يرعى الامور أثناء الفترة التى تنقضى بين موت أو عزل أحد الباشوات ووصول خليفته . وعندما كان البكوات يعزلون الباشا كانوا يقومون بتعيين واحد منهم كقائمقام .

(٣٥) وضع هذا النوع الجديد من العسكر تحت قيادة أغا . ويذكر الجبرتى أن عددهم كان يبلغ ٨٠٠ لكن منهينولت يتحدث عن فرقة تبلغ ٣ آلاف رجل يقودها الباشا .

(٣٦) يؤكد ذلك الجبرتى وأحمد شلبى ومن المعروف انهما معاديان لمعسكر أيوب بك ويميلان لتحميله مسئولية الآلام التى قاسى منها شعب القاهرة . وقد تبنى وجهة النظر هذه الشعراء الذين اتخذوا صف المعسكر القاسمى عندما تباكوا على آلام هذا الوقت ، ولا تتيح لنا النصوص أن نقول ما ان كان محمد بك هو أصل هذه المناورة الجديدة فى حصار المعسكر المعادى .

(٣٧) يتحدث مؤلف الرسالة عن حوادث السلب والنهب التى قام بها بدوكلا الحزبين ويذكر فى هذا الصدد مايشبه باتفاق جنتلمان يعطى لهذه الحرب المليئة بالاتفاقات المحترمة من كلا الجانبين نوعية خاصة : اذ كان على العرب قتال

العرب بينما كان من حق الانكشارية فقط أن يتطاولوا على العزبان ، ولا تذكر المصادر الاخرى ـ وهى متحيزة لمعسكر القاسميين ـ أية اشارة لمسألة اللجوء الى البدو من جانب أى من الفريقين . ويذكر مؤلف الرسالة أن أيوب بك ومحمد بك اقترحا عندئذ على الامراء المعادين وعلى العزبان وضع حد لهذه المعارك عن طريق نفى «الثمانية» واعدام الامير حسن .. وكان الشىء الوحيد من مطالب خصومهم والذى وافقوا عليه هو عزل الباشا . لكن القاسميين رفضوا هذه الاقتراحات .

(٣٨) والذى اكتمل بتعيين كور عبد الله ـ أحد «الثمانية» ـ فى وظيفة باش أوداباش .

(٣٩) على سبيل المثال فقد نفى العلماء الذين كانوا قد أفتوا لصالح الانكشارية .

(٤٠) مما يؤكد هذه الطريقة فى رؤية الامور مايذكره de Laporte (نقلا عن اسماعيل الخشاب) فى وصف مصر (الدولة الحديثة ـ جزء ثانى) «ورغبة من البيتين المملوكيين الموجودين بالقاهرة فى ألا يجعلا من سكان القاهرة ضحايا لاحقادهم الشخصية فقد اتفقا على التلاقى فى سهل خارج المدينة حيث كانا يذهبان للنزال ، وفى المساء يعود كل منهما الى مقره من شارع مختلف ، ولذلك فان هذا النزاع لم يعكر صفو الامن العام فالاسواق مفتوحة وكل أمرىء يسعى لعمله» .

(٤١) يذكر الدمرداش على سبيل المثال ان أولاد الحارة ـ اثناء عمليات عمر أغا بالقرب من باب زويلة ـ قدموا مساعدة فعالة الى صالح شوربجى الرزاز الذى أرسـل من قبل العزبان . ويذكر الجبرتى وأحمد شلبى حالات مماثلة من ردود الفعل بدرت من شعب القاهرة لصالح العزبان .

# أحيـاء القـاهرة الشـعبية في القـرن الثـامن عـشر والحركات الجماهيرية التى قامت بها

يولى المؤرخون المصريون للقرنين السابع عشر والثامن عشر ، جل اهتمامهم للوقائع السياسية التى كانت « الطبقة المملوكية » المسيطرة تلعب ابرز الادوار فيها . وقلما كان يشار لغير العلماء وكبار البورجوازيين من تجار وحرفيين ، اما جماهير الشعب – كصغار الحرفيين والمهنيين والعمال والفلاحين ، فقد ظلوا يعيشون « خارج التاريخ » . ولم يكن هؤلاء ليطفوا على سطح الاحداث الا اوقات الازمات القصيرة والطارئة ، حيث يبدو بوضوح عمق الحركات الشعبية التى لانملك عنها – للاسف – الا أقل المعلومات .

والبحث التالى مخصص لدراسة جغرافية الاحياء الشعبية فى القاهرة : ولدراسة الحركات الجماهيرية التى قامت فيها فى القرن الثامن عشر .

ربما كان الايسر لنا ان « نستخلص » خريطة تلك الاحياء الشعبية ـ نفسها ـ عن طريق محاولة تقريب « سلبية » نقوم بواسطتها بتحديد المناطق التى لاتدخل فى اطارها هذه الاحياء ـ اى تلك المناطق ذات النشاط الاقتصادى الكبير فى الوسط ومناطق الاحياء البورجوازية والارستقراطية ـ اكثر من ان نستطيع تحديد هذه الخريطة للاحياء الشعبية عن طريق المعلومات الضئيلة التى يقدمها لنا المؤرخون وكتاب « وصف مصر » . ففى وسط المدينة الفاطمية القديمة ـ القاهرة ـ والتى كانت تشغل الربع الشمالى ـ الشرقى للمدينة كما كانت ايام العثمانيين ، كان يتركز معظم النشاط الاقتصادى والتجارى للمدينة بطول « القصبة » التى كانت تصل « باب الفتوح » « باب زويلة » ، وكذلك بطول الشوارع المتاخمة : فكنا نجد بداخل القاهرة ١٣٩ وكالة من بين ١٩٧ يحددها كتاب « وصف مصر » ، و ١٢ من ١٣ خان ، وكذلك معظم حرف الرفاهية وعددا كبيرا من مختلف الحرفيين . وهناك كان النشاط التجارى يصل لدرجة من التركز تبتعد معها المناطق السكنية الى حواف القاهرة . وبمعنى آخر ، فان القاهرة فى الغالب ، كانت حى التواطن البورجوازى مثلها فى

ذلك مثل « السبع قاعات » ( ١ ) وضواحى الازهر ( ذلك الحى المفضل لسكنى علماء الازهر ) . وكان التجار والمشايخ ينشئون - أبعد من ذلك قليلا سواء قرب الخليج أو حول الازبكية - مساكنهم الفخمة . اما الطبقة المسيطرة من المماليك - البكوات ، وضباط الفرق العسكرية - فكانت تفضل السكنى خارج القاهرة فى احياء متميزة تكاد تكون مقصورة عليهم خصوصا حول « بركة الفيل » وعلى طول شاطىء الخليج المصرى، وفى منطقة حدائق الشاطىء الايسر للخليج ، مع تفضيل أخذ يزداد شيئا فشيئا - عند نهاية القرن السابع عشر - للازبكية ..

ولم تكن مناطق الاحياء الشعبية سوى فراغات تلك الخريطة التى انتهينا من رسم أبرز خطوطها . ففى هذه الفراغات كانت توجد كل الاحياء التى لم يكن اسمها ليرد على أقلام المؤرخين الا عند الحديث عن حركة شعبية نشبت بالمدينة . وهذه الاحياء هى تلك المناطق الواقعة بين مراكز النشاط الاقتصادى الواسع فى الوسط وبين جدران المدينة - داخل القاهرة نفسها - والاجزاء المحيطة بالمدينة من جهة الشمال ( خصوصا حى العطوف ) ومن جهة الشرق ( من قلب الزاوية الشمالية الشرقية وحتى

باب الوزير ) : ثم الاحياء التى تحيط بالقلعة ( خصوصا الحطابة فى الشمال وعرب اليسار فى الجنوب ) ثم كل المنطقة الجنوبية للمدينة « الرميلة الحبالة ، القرافة ، درب الخليفة ، الصليبة ، ابن طولون ، قناطر السباع . » (٢) وبعد ذلك فى الغرب نجد الحى المشبوه : باب اللوق ثم الفوالة ، فالحى الواقع على حافة الازبكية بين باب الشعرية وباب البحر ، واخيرا فى اقصى الشمال ، وخارج المدينة نفسها نجد حى الحسينية . ومراعاة للدقة — من الناحية التاريخية — يحسن ان نضع فى اعتبارنا — ونحن نتعرض لوصف هذه الاحياء — — تلك التغيرات التى حدثت فى بعض قطاعاتها ، مثال ذلك تقاطر الكثيرين من الميسورين للسكنى فى حى المدابغ القديمة — فى الجنوب الغربى لباب زويلة — اثر نقل المدابغ الى باب اللوق ، وكذلك — بعكس ما سبق — تدهور الاحياء القريبة من القلعة ، بعد ان بدأت الطبقات الارستقراطية تهجرها شيئا فشيئا .

تقودنا الاحصاءات الى لوحة مشابهة لتلك التى رسمناها ، وما يمكن ان نستخلصه من « قائمة » المصطلحات الواردة فى كتاب « وصف مصر » والتى تشير الى شعب فقير يسكن فى منازل صغيرة ،

واكواخ ، وأخصاص ( خص ) ، وخرابات ( خرابة ) واحواس ( حوش ) (٣) ٠

ويرتبط توزيع تلك الاحياء الشعبية ـ فى خريطه البنية الاقتصادية للمدينة ـ بمناطق توطن أنشطة معينة ، شاقة وقليلة التنوع ( خاصة ما يرتبط منها بصناعة المأكولات ) ٠ وتتصل بهذه الانشطة فى المقام الاول الطوائف الحرفية الكبرى لصناع المواد الغذائية التى نشأت فى هذه المناطق المتاخمة للمدينة ٠ وتذكر على وجه الخصوص السلخانات ( وما يرتبط بها من طوائف الجزارين ) التى نشأت فى حى الحسينية ، وباب اللوق ، وبوكة السقايين ، وقناطر السباع ، وابن طولون ، ودرب الحليفة ( أما السلخانات التى كانت توجد وسط القاهرة فى حارة اليهود فكانت ترتبط باحتياجات حى فقير آخر ـ لكنه يصطبغ بصبغة احياء الاقليات ـ هو حى اليهود الذى نستبعده ـ ككل احياء الاقليات ـ من هذه الدراسة ) ٠ وبعد ذلك تأتى الانشطة المتصلة بتجارة الحبوب فى شرق الجمالية وحول باب الشعرية وبالقرب من باب اللوق ، وعلى وجه الخصوص الضواحى المتاخمة للرميلة ، حيث كانت أهم اسواق ومخازن القاهرة ٠

ثم تأتى الاعمال التى لها علاقة بتجارة الخضروات

( مجموعة كاملة من اسواق الخضر حول ابن طولون ودرب الخليفة وباب ( الفتـــوح ) وتلك التى لها علاقة بتجارة الفاكهـــة ( بالحسينية وبالقرب من باب الشعرية ) • وبعض هذه الانشطة ـ كالمدابغ ـ كان من شأنه ان يحول دون ســـكنى الاغنياء بالحى •. وقـد انتقل معظم هــذه المدابغ من باب زويله الى باب اللوق فى القرن الســابع عشر عـلى وجه التحديد •. وبقى بعض منها بالقــرب من حى العطـــوف ، كما ان مدابغ اخرى كانت تعمــل ـ بالمثل ـ فى الاحياء الشعبية المحيطة بالمدينة ، وكان عدد كبير منها فى باب الشعرية وباب البحر وبالقرب من بركة السقايين ، وكذلك نشــأت فى هذه الاحياء الفحامات والجيارات والجباسات •

وقد أدت ســيطرة الانشــطة المرتبطة بالمنتجات الغذائية أساسا ـ وبخاصــة الحبوب ـ الى ارهاف حساسية سكان هذه الاحياء ، وخاصة بالنســبة للتقلبات والضوائق الاقتصادية ( كالمجاعات وغلو الاسعار ) ، كما كانت هذه الاحياء بسبب موقعها على هامش المدينة ، حيث كانت الحســينية وباب اللوق تشكلان فى واقع الامر ضواحى حقيقية ـ مناطق احتكاك وعبور • اذ كانت الحسينية تقع على طريق الحج • أما باب الشعرية وباب اللوق فكانا يقعـــان على الطرق المؤدية الى بولاق ، وكان الحى

الجنوبى فى الطريق المؤدى الى مصر القديمة ، كما كانت الرميلة ودرب الخليفة معبرا للراغبين فى زيارة المقابر . ويمكن ان تشرح لنا الخدمات والتعاملات التى كانت تتم فى هذه الاحياء ، اسباب التوتر الاجتماعى ، وكذا النشاط الدينى الذى كان سائدا فيها . كما ان هذه الخاصيات تفسر أيضا ذلك التطور الكبير الذى تم فى هذه الاحياء نتيجة لاعمال الترفيه ، المباحة منها وغير المباحة . وكان أكثر اماكن التسلية شهرة ، حى باب اللوق الذى كان معروفا بهذه الصفة منذ ايام المقريزى ، كما كانت الرميلة فترة الحكم العثمانى منبع المشروبات الروحية ، وبيوت الدعارة فى باب اللوق شىء تحدث به كل الرحالة . ويقدر الرحالة التركى « ايفيليا جلبى » عدد البغايا اللائى كن يمارسن نشاطهن فى هذا الحى بثمانمائة ، ويخصص دراسة مستفيضة لهذه الفئات ــ كما ان الاماكن المشبوهة فى الحسينية ــ والتى كان المسافرون يجدون فيها ملذاتهم ــ لم تكن أقل شهرة . بل ان واقعة اغلاق اماكن اللهو هذه مرات عديدة فى القرن الثامن عشر ، ( خاصة على يد على أغا عام ١٧٠٣ ثم على يد عبد الله باشا حوالى ١٧٣٠ ) تنهض شاهدا على مقاومة هذه الاحياء للمجهودات التى كانت تبذل لاقامة « نظام اخلاقى » .

## حركة الحرفيين والصوفيين

كان كل حي من هذه الاحياء يكتسب خاصيته المميزة له من ذلك الرباط القائم بين المنظمات الحرفية ( الطوائف ) والمنظمات الدينية ( الطرق الصوفية ) ، ذلك الرباط الذى كان يتضح وقت الازمات بطريقة فريدة ٠

وان اصالة حي الحسينية وديناميته ، تبدوان كما لو كانتا قد قامتا أساسا ـ اثناء القرن الثامن عشر ـ على تلك الوشائج القائمة بين طائفة الجزارين والطريقة البيومية ٠ وقد ادى انشاء سلخانة جديدة عند الطرف الشمالى للحى ، الى توطن عدد كبير من الجزارين بالقرب منه ٠ وحسبما يذكر « ايفليا جلبى » فقد كان يوجد فى المدينة كلها ٢٢٠٠ جزار موزعين بين ثلاث طوائف : مائتان منهم يشكلون طائفة سلخانات باب الفتوح وحدها ، لكن قائمة الطوائف لعام ١٨٠١ (٤) تذكر فى الواقع طائفة اخرى « لجزارى الضأن » فى حي الحسينية ( برقم ٤١ ) ٠ وهؤلاء الجزارون قوم متينو البنية ، حادو الطباع ، تربطهم تقاليد طائفية قوية ، وبرز من بينهم قادة الحركات الشعبية التى قامت فى الحسينية حوالى نهاية

القرن الثامن عشر ، كما كانت طائفتهم هى النواة التى تتجمع حولها حركات التمرد . ويذكر « الجبرتى » اسم ثلاثة من هؤلاء القادة الجزارين ينتسب منهم اثنان على الاقل لحى الحسينية ، حيث كان لهما نفوذ قوى على أهالى الحى : أولهما « المعلم درع » الذى تزوجت ابنته من « الشيخ حسن الكفراوى » ( الذى مات عام ١٧٨٧ – ١٧٨٨ ) – وهذا الشيخ يدين بلا شك – ولو جزئيا – لرابطة المصاهرة هذه بالنفوذ الذى اكتسبه فى الحى . وقد اصبح ذات يوم ممثلا له ومدافعا عنه . وثانيهما هو « احمد سالم الجزار » – الذى كان فى نفس الوقت أحد شيوخ البيومية ، وواحدا من الزعماء الشعبيين ، والذى من أجله ثار الحى مرتين : مرة فى عام ١٧٨٦ والاخرى عام ١٧٩٠ . والمرجح ان يكون « ابن شمعة » – شيخ الجزارين واحد الزعماء الشعبيين خلال احداث ١٨٠٥ التى لعبت فيها الحسينية دورا حاسما – على صلة ما بحى الحسينية .

اما المبدأ الثانى الذى قامت عليه الحياة فى الحسينية أثناء القرن الثامن عشر فهو العنصر الدينى ، والامر هنا يتعلق بطريقة البيومية التى كان نشاطها – منذ نشأتها – مرتبطا بالحسينية . فقد كان « على البيومى » – وهو الذى كان فى

بادىء الامر أحد اتباع الطريقة الخلوتية ثم واحدا من أتباع الطريقة الاحمدية ـ قد اصبح مركزا « لعبادة » حقيقية فى هذا الحى الذى سكنه منذ زمن قريب . وكان « على البيومى » هو نقطة البدء فى تكوين طريقة صوفية جديدة . وبعد موته ( عاش ٦ - ١٦٩٧ الى ٦٩ - ١٧٧٠ ) بدأ المسجد الذى يحمل اسمه ـ وكذلك مقبرته يشهدان نشاطا دينيا هائلا ترجم بعد ذلك الى مولد يتردد عليه الكثيرون . وقد انتشرت الطريقة الجديدة بصورة طبيعيه بين جزارى الحسينية ، يشهد بذلك ماقام به الشيخ أحمد سالم الجزار من أعمال ، حيث ظهر نفوذه الكبير على الحى اثناء الازمات التى شارك هذا الشيخ فيها . ويمكن الافتراض كذلك أن الخلوتية ( التى ظهر بينها على البيومى ) قد لعبت دورا هاما فى الحياة الروحية للحى ، « فالسيد على بن موسى » ـ وهو شخصية ذات نفوذ ( ومدرس بالمشهد الحسينى ) ـ كان أيضا واحدا من شخصيات الحسينية المرموقين ، وبعد موته اصبح أخوه « بدر الدين » زعيما للحى . وهو الذى قاد حركته عام ١٧٨٩ .

وفى الحى المجاور ـ حى باب الشعرية ـ والذى يرد اسمه دائما هو الاخر عند التعرض للحركات الشعبية ، نجد نفس الرابطة بين نفوذ الطوائف

ونفوذ الطرق الصوفية . لكن هذا الارتباط لايبدو بنفس وضوحه فى الحسينية . وكانت الحرف الاكثر انتشارا فيه هى تجارة الفواكه والحبوب فى ميدان باب الشعرية تحت رقم ( ٧٣ ) . ويمكن الافتراض بأن الطريقة الشعراوية كانت تلعب دورا هاما فى هذا الحى الذى يرتفع فى وسطه ضريح « عبد الوهاب الشعرانى » والمسجد الذى يحمل اسمه . وكان نفوذ البكرية - التى كان شيخها يقطن بالقرب من الازبكية - بالمثل ، محسوسا بدرجة خاصة فى ذلك الحى الذى كان يمتد مابين باب الشعرية وبركة الازبكيه وباب البحر .

أما الحى الجنوبى - ابتداء من ضواحى القلعة وحتى الخليج - فكان قد فقد سكانه الميسورين وازدحم بسكان اخرين معسرين ، كان مقرهم هو درب الخليفة وضواحى ابن طولون . وكانت المساكن فى هذه المناطق شديدة البؤس ، وكان « التعصب » هناك ملحوظا أكثر منه فى أى مكان اخر . وفى احداث ١٨٠٠ كان سكان باب القرافة وغرب اليسار يصفون انفسهم بالفقر « اننا ناس فقراء الحال » . وكانت الاعمال الرئيسية فى هذا الحى هى تجارة الحبوب ( وكانت توجد بالرميلة طائفة لشيالى الحبوب برقم ٤٨ ) وكذلك تجارة الخضروات ( حول ابن طولون ) بالاضافة الى

السلخانات ( وترتبط بها طائفة جزارى الضأن بحى الخليفة برقم (٥١) . وكانت ندرة الحبوب وغلو أسعارها فى السنوات الاخيرة من القرن الثامن سببا فى حوادث الهياج والعصيان التى كثيرا ما اندلعت فى ازميلة ، وبعد ذلك بقرن ـ فى عام ١٨٠٥ ـ قاد «حجاج الخضرى الرميلاتى» رئيس طائفة تجار الخضر وأحد شخصيات الحى ـ من ناحية اخرى ـ مسرحا لنشاط دينى واسع يتركز أساسا حول الطريقة الرفاعية . وكان مقام الشيخ سيدى أحمد الرفاعى . يوجد تجاه مسجد السلطان حسن مباشرة ( مكان مسجد الرفاعى حاليا ) . وكان مولده مشهورا جدا ، ويذكر « أحمد شلبى » انه فى رجب من عام ١١٤٠ ( فبراير عام ١٧٢٨ ) كان الزحام شديدا وصاخبا لدرجة أن سبعة عشر شخصا ماتوا تحت الاقدام نتيجة التدافع والزحام . وكانت السيدة زينب فى قناطر السباع مركزا اخر للنشاط الدينى . وتتضح قوة الشعور الدينى عند سكان هذه الاحياء فى الشهرة الهائلة التى سرعان ماكان يحوزها بعض الاولياء ، أمثال الشيخ الشيمى ، الذى جذبت شهرته الجماهير الى الرميلة، وان كان قد لقى فيها نهاية أليمة .. هذا على الرغم من استنكار وأدانة ذوى العقيدة الخاصة لمثل هذه الامور .

وكان تنظيم الاحياء الشعبية ــ ككل المدينة ــ يعتمد على التقسيم الى حارات ( وكانت منها حوالى ٦٠ حارة بالمدينة ) مليئة بمنازل مختلفة الاتساع ، ومغلقة عادة بأبواب كانت تغلق اثناء الليل لهـا شبكة متدرجة من الشـوارع تبـدأ من الشريان الرئيسى لها وهو الدرب ــ الذى يأخذ الحى اسمه عادة منه ــ الى العطفات ( عطفة ) والازقة • وهذا التقسيم كان ــ على مايبدو ــ بادى القوة والفعالية خصوصا فى الاحياء الشعبية • وفى هذه الحارات كان الناس ذوو الحرفـة يميلون للتجمع معـا وكذلك أولئك الافراد ذوو الاصول ــ الجنسـية الواحدة أو أبناء الدين الواحد ــ وكانت الحـارة محتمية بجدرانها • وكانت الحارة خاضعة لسلطة شيخ الحارة يعاونه نقيب (٥) • وكان هذا النظام يشبه فى الكثير نظام الطوائف الحرفية الذى كان مرتبطا به ( بمعنى ان السلطة كانت تنظر للاحياء نفس نظرتها للطوائف ) دون أن يحدث بالرغم من ذلك صراع بين النظامين ، لان اساس الحى ــ فى الغالب ــ كان طائفة حرفية ، ومن جهـة اخرى ، فبالاضافة لشيخ الحارة ــ الذى كانت له فيمـا يبدو سـلطات رجـال الادارة والبوليس ــ كان

النفوذ فى الحى مرتبطا برجالات الطوائف والطرق الصوفية السائدة • وفى مثل هذه الحارات ، حيث الكثافة السكانية عالية وحيث كانت البنيات الاقتصادية والدينية قادرة ومسيطرة ، فان التضامن داخل الحى كان فى شكله الامثل والاقوى •

وكانت الروح الاجتماعية للحى تعبر عن نفسها عادة فى تظاهرات جماعية يساهم فيها سكان الحى ( وخاصة الشباب منهم ) وتسير فى مواكب صاخبة وملونة تصحبها « الطبول والمزامير » خلف حملة » المشاعل » و « البيارق » • وهذه الرايات — البيارق — ربما كانت شعارات مميزة للحى ، وان كانت — بلا شك وفى غالب الاحيان — هى بيارق الطريقة الصوفية السائدة فى الحى • وكانت هذه المواكب تنظم فى مناسبات الزواج — زفة — أو الختان أو مولد أحد الاولياء المحليين أو فى مناسبة احتفال ذى صبغة اكثر عمومية كمولد النبى ، حين كانت تندمج تجمعات مختلف أحياء المدينة عند حلول الليل لتسير فى موكب كبير كأن يعبر شوارع المدينة معرجة على المساجد التى تقابلها لزيارتها •

وكانت الاحياء تتجمع بطريقة أقل سلمية لتدافع عن نفسها ضد الاعتداءات التى يكون

ضحيتها فردا من الافراد أو الحى كله . ويعطينا المؤرخون أمثلة كثيرة لامثال هذه الافعال من الدفاع الذاتى عن النفس ، كما أدى العداء الخفى بين الاحياء المجاورة ، الى قيام معارك منظمة تتصادم فيها الاحياء مع بعضها البعض .

ويقص علينا « أحمد شلبى » مثلا كيف أنه فى عام ١١٤٨ هـ - ١٧٣٦ م اشتبك اهالى الحسينية فى معركة مع أهالى بولاق وكيف أنهم تماسكوا بالايدى فى حى الاشرافية .

ويتحدث « على مبارك » عن المشاجرات التى كانت تقوم بين أحياء الحسينية والحطابة والعطوف خارج القاهرة وفى « الخلا » المجاور لها حتى منتصف القرن التاسع عشر والتى كانت تتم بطريقة تجعلها أشبه بالطقوس .

وفى بعض الاحيان لجأت السلطات الى استخدام القوى الشعبية لصالحها . ويقدم لنا تاريخ المدينة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر أمثلة عديدة على محاولة « تحريك » - « عساكر » الاحياء هذه ، كتلك الحملة التى ارسلها الباشا عام ١٦١٣ من أبناء حارة الفوالة ضد العسكر المتمردين ، أو كتجنيد اسماعيل بك فى عام ١٧٧٧ لاهالى الأحياء « اهل الحارات والعصب » . لكن هؤلاء الحكام - فى مجموعهم - كانوا ينظرون فى خوف وشك

لتلك القوات التى تصعب السيطرة عليها .
ويتصرف المؤرخون ـ الذين كانوا ينتمون الى « البورجوازية » المصرية ـ بنفس الطريقة عند تصديهم لانفجارات العنف الجماعى التى تظهر فى « الاحياء الدنيا » للمدينة . وكانت الاسماء التى يطلقونها على فرق الاحياء الشعبية والضواحى ذات معان بذيئة لدرجة لاتكاد تصدق . وتشى بالكثير من مخاوف واحتقار هؤلاء « المفكرين الراقين » لهؤلاء الناس ، أسماء كالعصب ، الشطار ، الزعار ، الغوغاء الاوباش ، الحرافيش (٦) . وأسماء وكلمات اخرى كثيرة تداعت من ماض بعيد مع « الفتوة » واحتفظت بهالة من الغموض والمخاوف ، وكانت هذه الفرق فى الواقع هى آخر تناسخ للفتوة التى بقيت على خريطة الحى عن طريق الاستعراض ، ومن تلاحم الروابط الحرفية بالتطلعات الدينية ، تلك الروابط التى ميزتها فى مرحلتها الاخيرة . وهذا الالتحام الذى كان يتم فى حفلات التكريس ـ سرية كانت أم علنية ـ وفى الطرق الصوفية كما فى الطوائف الحرفية ـ لم يكن ليبدو للعيان الا فى مناسبة الحركات التى تحدث بطريقة فجائية وسريعة الانتهاء فى الاحياء الشعبية ، ولذا كان من الصعب أن نعرف ماهية النماذج المحددة ـ وبنفس الصعوبة ـ أن نقول

على وجه الدقة كيف كانت منظمة « عصب » الاحياء هذه ، تلك التى لعبت ــ وبوضوح تام ــ دورا هاما فى تحريك الكتل الشعبية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ٠

## الابعاد الاقتصادية والسياسية للحركات الشعبية

ومن واقعة الثغرات التى سبقت الاشارة اليها فى بحثنا فيما يختص بالحركات الشعبية فانه من الصعب فى اغلب الاحيان ان نؤسس الوقائع نفسها بدقة ٠ ولسبب قوى جدا فان التفسيرات والتعليقات التى يمكن ان نقدمها فى هذا الصدد افتراضية لحد كبير ٠ وبهذا التحفظ يبدو لنا أنه من الممكن أن نميز ابتداء من السنوات الاخيرة للقرن السابع عشر وحتى بداية القرن التاسع عشر مرحلتين فى تاريخ الحركات الشعبية فى القاهرة ٠ ففى اثناء المرحلة الاولى يمكننا أن ننسب هذه الحركات الى الازمات الاقتصادية ، أما فى المرحلة الثانية فيبدو أنها تعود ــ فى الغالب ــ الى متاعب سياسية ٠

وفى اثناء الستين عاما التى انقضت بين ١٦٧٥ و ١٧٣٥ ، كانت الحركات الشعبية فى المدينة ردود فعل مباشرة للصعوبات النقدية والغذائية

التى عرفتها مصر فى ذلك الحين . وقد نشأت الاضطرابات النقدية أساسا من تدهور قيمة العملة النقدية الاكثر تداولا فى أيدى الناس وهى « البارة » ( نصف فضة ) . والقيمة التبادلية بين البارات والعملات الذهبية والفضية المستخدمة - كما يبينها الجدول التالى - يعطى صورة واضحة عن هذا التدهور :

فالبارة التى كانت تزن فى الاصل ١ر٢٨ ج ، أصبح من المفروض ان تزن ٠ر٦٨٩ ج ( وتحتوى على ٧٠٪ من الفضة ) عام ١٦٩٨ ، وفى عام ١٧٠٣ لم تعد تزن سوى ٠ر٥١٨ ج

وقد أدى طرح كميات هائلة من العملات المنقرضة (المقاصص) الى اضطراب فى التبادلات كما سبب ضيقا للشعب بسبب ارتفاع الاسعار الذى جاء نتيجة لهذا الاجراء .

أما العنصر الثانى فى الازمة فكان التذبذب الشديد بدرجة غير عادية فى أسعار المنتجات الغذائية الاساسية وخاصة القمح ، فى السنوات التى تسوء فيها المحاصيل . اذ بينما يكون سعر اردب القمح فى السنوات التى تجود فيها المحاصيل من ٢٥ - ٣٠ بارة فى المتوسط ، فانه يسجل الاثمان الاتية فى سنوات القحط :

**جدول يبين تغير عدد « البارات » التى تساويها كل وحدة من العملات الموضحة**

| السنوات | نقود ذهبية | | نقود فضية | |
|---|---|---|---|---|
| | شريفى بندقى | شريفى محمدى | ريال | كلب |
| ١٦٧٥ | ٩٥ | ٨٥ | ٤٢ | ٤٠ |
| ١٦٩٧ | ١٢٠ | ٩٥ | ٦٤ | ٤٨ |
| ١٧٠٠ | ١٣٢ | ١٠٢ | ٦٦ | ٥٢ |
| ١٧٠٣ | ٢٠٠ | ١٦٠ | ١٢٠ | ١٠٠ |
| ١٧٢٣ | ٢٠٠ | | ١٠٠ | ٧٥ |
| ١٧٣٦ | ١٤٨ | | ٧٨ | |

**أثمان القمح فى سنوات القحط**

| السنة | سعر الاردب بالبارة |
|---|---|
| ١٦٦٧ | ٨٠ ـ ٩٠ |
| ٧٧ ـ ١٦٧٨ | ١٨٠ |
| ٨٩ ـ ١٦٩٠ | ١٢٠ |
| ١٦٩٤ | ١٨٠ |
| ١٦٩٥ | ٢٧٠ |
| ١٦٩٦ | ٦٠٠ |
| ١٧٠٥ ـ ١٧٠٦ | ٢٤٠ |
| ١٧١٤ | ٦٦ |
| ١٧١٨ | ٢١٠ |
| ٢١ ـ ١٧٢٤ | ٢١٤ |
| ١٧٣٦ | ١٠٠ |

وبتقريب هـذه الارقام يظهر ان قمم منحنيات الخط البيانى كانت تصل الى أقصاها كل عـقد ( أى كـل عشر سـنوات ) ، وتتفق تواريخ قمم هذا الخط البيانى مع ظهور أهم الحركات الشعبية التى يتعرض لها المؤرخون ٠

وقد وقعت حركات الهياج والعصـيان الاولى الناتجة عن المجـاعات فى صفر ١٠٨٩ ( ابريل

١٦٧٨ ) ثم فى جمـادى ١٠٩٨ ( مايو ١٦٧٧ ) ، ثم فىمحرم ١١٠٧ ( سبتمبر ١٦٩٥ ) . وكانت أحداث هـذه الحركات تبـدأ أولا فى الرميلة ثم تنتشر بتتـابع لايكـاد يتغير . ففى الفترة التى تشح فيها الحبوب ويصل غلوها للذروة ، كانت « الرعية » تتجمع أسفل القلعة للاحتجاج وللمطالبة باتخاذ اجراءات مناسبة لعلاج الحـال . وتؤدى هذه الظاهرة الى حوادث يضـطرب فيها النظام ، وتحطم أثناءها أبواب مخازن الحبوب (حواصيل ـ رقعة من سلع ) فى الرميلة ، ثم تنهب شـأنها شأن المحلات المجاورة . وكانت حـوادث العنف هذه تنتهى عادة باجراءات قمع شديدة القسـوة ( ففى حوادث ١٦٧٨ مثلا مات ١٣ شـخصا ) أو بمحاولات متفاوتة الفاعلية لتثبيت أسعار المواد الغذائية أو لتزويد الاسواق بالمؤن .

أما أن الرميلة كانت مركزا لهذه الحـركات المختلفة ، فمن الممكن تفسيره بمجاورتها لمـركز السلطة السياسية للبلاد حيث كان النـاس يحملون شكاواهم ، ومن وجهة أخـرى بسبب المعيشة فى مكان تكثر فيه أسواق الحبـوب ، وأخيرا لوجود شعب فقـير فى هـذه المنطقـة من المدينة أكثر تأثرا من غيره بالمتاعب الاقتصادية، على وجه الخصوص .أولئك هم «صـغار

الرميلة» كما كان يتحدث عنهم المؤرخ فى عام ١٦٩٥ .

وانقضى عام ١٧٠٥ دون أزمة ، رغم الغلاء الشديد الذى لم تعرف له مصر مثيلا من قبل ، لكن الحركات الشعبية عادت تندلع بعد ذلك حسب نفس الايقاع العقدى (أى الذى يحدث كل عقد) ، ففى محرم من عام ١١٢٨ ( ديسمبر ١٧١٥ ) قامت الاضطرابات عندما حاول الباشا أن يضع تعريفة للنقود وأن يضرب بارة جديدة وأن يحرم استخدام العملات المنقرضة . وهنا حدث هياج حقيقى فى المدينة ، وأغلقت الاسواق، وصعد المتظاهرون الى القلعة حتى حصلوا على مرسوم بتثبيت الاسعار . وكان لابد من انقضاء شهر كامل كى تعاود الاسواق نشاطها الطبيعى، وكانت اضطرابات سنوات ١٧٢٢ ، ١٧٢٣ ، ١٧٢٤ بالذات خطيرة لدرجة شاذة . وكان سببها المباشر غلو أسعار الحبوب ، ذلك الغلو الذى ظل يلح على الدوام من سنة ١٧٢١ وحتى ١٧٢٨ ، ففى حوالى شهر ذى القعدة ١١٣٤ (أغسطس — سبتمبر ١٧٢٢) تسبب ضعف الفيضان فى رفع سعر أردب القمح الى ١٨٠ بارة فحدث هياج رجم المتظاهرون أثناءه السناجق المتوجهين لعقد اجتماع فى الديوان

بالحجارة . ثم قامت حركة شعبية فى الرميلة فى ذى الحجة ١١٣٥ (ستمبر ١٧٢٣) ، واخيرا فان الغلاء المستمر والذى زاد من خطورته تدهور العملات النقدية والمضاربات التجارية لشركس بك أثار «الرعية» من جديد فى ٣ ربيع ١١٣٧ (٢٠ نوفمبر ١٧٢٤) فأغلقوا المحلات ونهبوا أسواق القاهرة ، وهاجموا الازهر ثم صعدوا تجاه الرميلة حيث فتح عليهم جنود العزبان ورجال «شركس بك» النار ، لكن الثورة استمرت عدة أيام فى القاهرة . وقد حدثت آخر هذه السلسلة من الحركات الشعبية فى ذى الحجة ١١٤٥ (يونية ١٧٣٣) حين أدى ارتفاع سعر المواد الغذائية ـــ الذى تسبب فى حدوثه اضطراب النقد الى هياج جديد للرعية ، واغلقت المدينة كلها ، وعندما ظهر المتظاهرون فى الرميلة قرر السناجق اتخاذ اجراءات عاجلة حتى يتفادوا أن تتحول الحركة الى عصيان وتمرد .

ولعدة عقود أخرى من السنين ، تكف المصادر التى لدينا عن ذكر أية حركات شعبية أخرى خطيرة ، لكنه صمت لا يمكن أن نفسره فقط بعدم كفاية المصادر التى تحت أيدينا ويمكننا أن نبحث عن سبب هذا الهدوء الذى عرفته مصر فيما بين ١٧٣٥ ـــ ١٧٧٠ فى ذلك الركود الذى انتاب

مصر بوضوح فى هذه السنين ، وتتفق ملاحظات الجبرتى على هدوء البلاد ووفرة المواد الغذائية وانخفاض أسعارها أيام حكومة ابراهيم ورضوان كتخدا حتى عام ١٧٥٥ ثم فى فترة على بك ، تتفق مع مانعرفه عن تطور الاسعار وقيمة النقود فى هذه الفترة . ففى هذه الفترة لم يحدث ارتفاع فى سهم الاسعار يمكن مقارنته بسهم ارتفاعها أثناء النصف قرن السابق ، إذا استثنينا فترة ١٧٤٣ — ١٧٤٥ حين وصل سعر أردب القمح الى ٦٠ بارة ، وان كان هذا الارتفاع أقل مما كان يحدث أثناء الازمات السابقة . ومن جهة أخرى فان انخفاض قيمة العملة بدا وكأنه توقف لفترة ، ففى عام ١٧٣٦ كان البندقى الذهبى يساوى ١٤٦ بارة وفى عام ١٧٦٤ أصبح يساوى ١٦٠ ، ويبين هذا نزولا معتدلا أثناء هذه الاعوام الثلاثين ، وفى نفس هذه الفترة من الزمن ارتفع الريال من ٧٨ الى ٨٦ بارة ويتطابق هذا مع الميل السابق . وعلى العموم فان فترة الهدوء المؤقت لم يكن يمكن لها أن تستمر . فها نحن نرى أمارات الاضطراب الاقتصادى تعود الى الظهور بعد أعوام ١٧٧٠، و ١٧٨٠ الشىء الذى يعلن عن فترة جديدة من الفوضى واختلال النظام . وعاد تدهور النقد

يتخذ ايقاعا سريعا ، فارتفع البندقى من ١٦٠ بارة عام ١٧٦٩ الى ٢٣٥ بارة عام ١٧٨٩ ثم ٣٤٠ عام ١٧٩٨ ، كما انخفض الوزن القانونى للبارة من ٥٧٠ر٠ج (ونسبة ٦٠٪ فضة) فى حوالى منتصف القرن الى ٣٤٠ر٠ج (مع نسبة ٥٠٪ فقط فضة) ثم الى ٣٠٢ر٠ج مع نسبة فضة اقل تبلغ ٣٧٪ قبل مجىء الفرنسيين وهو مايمثل تخفيضا يصل لنسبة الثلثين . ومن جهة أخرى فانه ابتداء من ١٧٨٠ عادت نوبات الغلاء والمجاعات تصبح اكثر تكرارا ، وفى عام ١٧٨٣ وصل سعر أردب القمح الى ١٠ ريالات ، كما كان عام ١٧٨٥ عام غلاء ، ثم عاد سعر الاردب يرتفع الى ٥ر٩ ريال عام ١٧٨٩ بعد فترة من الرخاء عام ١٧٨٧ .

والى هذه الظروف الاقتصادية المزعجة والتى كان من طبيعتها أن تخلق حالة من القلق والاضطراب بين الاوساط الشعبية ، تضاف مثالب النظام المملوكى ، الذى تميز فى نفس هذه الفترة بانتكاسة الى العنف والابتزاز ، فى نفس الوقت الذى بدأت فيه الكوادر السياسية والاجتماعية التقليدية تتحلل منذ على بك . وعادت الاعمال الوحشية تصبح شيئا معتادا ، وشيئا فشيئا بدأت الضرائب المفروضة المتزايدة تصبح

أمرا جائرا حتى أصبحت تهيىء ابتداء من ١٧٨٠ ظروفا صالحة لخلق بعض الاضطرابات التى لم تعد — كما كانت منذ قرن سابق — مجرد رد فعل لبعض المثيرات الاقتصادية ، فقد بدأت الحركات الشعبية تتخذ شكل احتجاج مبدئى ضد العسف والظلم ، ثم أخذت تتعمق وتتخذ لنفسها شكلا سياسيا حقيقيا ابتداء من ١٧٩٨ . وذلك التطور الذى كان بالفعل ملموسا أثناء أحداث ١٧٨٦ كان — من جهة — نتيجة ليقظة الجماهير وقادتها ، وجاء من جهة أخرى نتيجة لعمل ممثلى البورجوازية المصرية الذين ركبوا رأس الحركات الشعبية واتجهوا بها وجهة تحقق أغراضهم الخاصة .

وبنفس الطريقة ، كان لصراع ١٧٧٧ الذى دار بين الازهر والبكوات نفس سمات الحركات التقليدية للعلماء ولطلاب «جامعة المسجد» وان كانت المعونة التى قدمها «عدد لا بأس به من الناس الذين لا شأن لهم» قد ضاعفت من خطورة هذه الازمة لدرجة غير عادية .

وقد أدى ذلك السخط الكامن ضد نظام السلب والنهب الذى افتتحه مراد بك وابراهيم بك الى بلورة هذه الحركات الشعبية فى عدة أحياء فى المدينة . ففى جمادى الاولى ١٢٠٠

(مارس ١٧٨٦) ادت حوادث العنف التى ارتكبها احد البكوات من اتباع مراد بك ضد الجزار أحمد سالم — الذى كان كما سبق أن ذكرنا فى نفس الوقت أحد شيوخ البيومية — ادى فى ذلك الوقت : الشيخ دردير . وبعد قليل ، فى شهر شوال (يوليو — اغسطس ١٧٨٦) كانت الازبكية هى مسرح هياج الجماهير وتمردها ، وذلك بعد حادث اغتيال راح ضحيته أحد زراع المستنقع على يد أحد المماليك . وقد أدى تدخل الباب العالى الى جعل شعب المدينة يأمل فى نهاية للظلم ، ولذلك استجاب الناس بحماس لنداء محمد باشا فى أغسطس ١٧٨٦ ، وهو الشىء الذى أكد مخاوف ابراهيم بك فى امكانية حدوث ثورة من جانب «الرعية» ، والذى يبرهن كذلك، على كل حال ، على تأثر «الرعية» بالدعاية العثمانية الموجهة ضد المماليك . لكن الآمال التى وضعت فى حركة حسن باشا باءت بالفشل ،

وفى الوقت الذى كانت حملته تمثل فشلا سياسيا، كانت الحركات الشعبية فى الاحياء الشعبية تتتابع . وفى محرم ١٢٠٢ (أكتوبر ١٧٨٧) ثارت الطوائف الحرفية ضد مشروع للاقتراض وضعه اسماعيل بك . وفى رجب ١٢٠٢ (ابريل — مايو ١٧٨٨) ثار حى باب الشعرية عقب اعدام نفذ

على وجه السرعة فى احد أبنائه ، وبعد ذلك بعامين — فى محرم ١٢٠٥ (أكتوبر ١٧٩٠) هبت الحسينية بقيادة البيومية للدفاع مرة أخرى عن احمد سالم الجزار ، وكان على الامراء أن يصلوا لاتفاق مع الثائرين .

وجاء الاحتلال الفرنسى فأعطى دفعا جديدا لهذه الحركات المحلية وحولها الى معركة مزدوجة الخاصية بمعنى انها كانت معركة دينية من جهة ووطنية من جهة أخرى ، وقد واجه فيها الفرنسيون — بالاضافة الى الفرق العثمانية وفلول النظام المملوكى — قوات القاهرة الشعبية . وفى ثورتى القاهرة الكبيرتين (أكتوبر ١٧٩٨ ومارس — ابريل ١٨٠٠) كونت أحياء الحسينية والعطوف وباب اللوق والقرافة وعرب اليسار فرقا عسكرية ، وكانت قيادة الحركة معقودة لعدد من رجال «البورجوازية» المصرية من العلماء وكبار التجار (عمر مكرم — أحمد المحروقى — احمد محرم) . وفى عام ١٧٩٨ كما فى عام ١٨٠٠ بلغت المشاعر فى الحسينية الذروة ، وفى كل المناسبات، كان هذا الحى هو آخر من يلقى السلاح .

وكانت مساهمة الاحياء الشعبية فى الاحداث

التى أدت الى تولية محمد على عام ١٨٠٥ بالغة الاهمية هى الاخرى ، لكن — فى هذه المرة — كان هناك — الى جانب الزعماء التقليديين ، الذين كان أبرزهم عمر مكرم — زعماء شعبيون يلعبون دورا نشيطا فى توجيه الاحداث ، من أمثال «حجاج» شيخ تجار الخضر فى الرميلة ، و «ابن شمعة» شيخ الجزارين ، كما ركب كل منهما فى موكب النصر الذى ذهب يوم الاثنين ١٠ ربيع الثانى ١٢٢٠ (٨ يوليو ١٨٠٥) لاستقبال القابجى الذى يحمل أمر تولية محمد على كباشا للقاهرة. ومع هذين الزعيمين ، ومع العلماء الذين كانت حركتهم دائمة وحاسمة طوال الازمة ، مر بالموكب فى ذلك اليوم رجال الاحياء الشعبية الذين ساهم دعمهم فى النصر العسكرى لمحمد على والذى كان بمثابة بيعه شعبية له من أحياء: باب الشعرية ، الحسينية ، العطوف ، الخليفة، القرافة ، الحطابة والحبالة . ولاول مرة منذ قرون ، ونتيجة للصدع الذى أحدثته الحملة الفرنسية فى العهد المملوكى ، ونتيجة لتحلل هذا النظام ، أصبحت القوى الشعبية فى القاهرة هى التى تصنع التاريخ بعد أن كانت هى التى تعانى من أحداثه .

ولكن ، لم يكن لهذه الفترة المدهشة من تاريخ

مصر — رغم ذلك — أن تستمر طويلا . فذلك التحالف الذى كان معقودا بين العناصر الشعبية والبورجوازية المصرية والذى كان بالنسبة لمحمد على مجرد خطوة فى سبيل السلطة ، ذلك التحالف للاسف لم يدم حتى النصر . فتطلع هذه القوى للاستقرار السياسى ، لم يكن يعنى عند العلماء الا عودة الامور الى «مجراها الطبيعى»، وهو مايتطابق مع رغبات محمد على . وكان على «الرعية» أن تستسلم وأن تلقى بالسلاح، سواء أكان ذلك بالرغم منها ، أو عن طيب خاطر . وشيئا فشيئا أمكن تحييد هؤلاء الزعماء حتى استبعدوا بعد ذلك نهائيا ، وجثم الوقع الثقيل لسلطة محمد على فوق صدر مصر ، ومن جديد عادت الجماهير الشعبية تتوارى فى ظلامها الدامس ، الموغل فى القدم .

# هوامش :

(١) الحمزاوى بالقرب من الحمزاوى حاليا .

(٢) قناطر السباع كانت مقامة أمام مسجد السـيدة زينب فوق الخليج المصرى .

(٣) يحدد كتاب وصف مصر الحوش بانه « أفنية أو أسوار مليئة بأخصاص ارتفاعها أربعة أقدام ويسكنها عدد كبير من أناس فقراء مكدسين — مع ماشيتهم — كيفما أتفق » .

وأنظر كذلك — أحمد أمين : قاموس العادات والتقاليد ، القاهرة : ١٩٥٣ ص ١٨٤ .

(٤) وهى القائمة التى أعدها علماء الجيش الفرنسى اثناء الحملة على مصـــر .

(٥) لم يكن يشار الى وجود شيخ مشايخ الحارات قبـل عام ١٨٠٢ ( الجبرتى جزء ٢ ص ٢٤٠ ) ولكن ورد فى احدى

وثائق عام ١٨٠٠ (وثائق الحرب ) المتعلقة بحى الحنفى ذكر شيخ المشايخ دون أن تحدد مهام منصبه .

(٦) يستعمل الجبرتى بمناسبة الحديث عن مدينة طنطا عام ١٧٦٨ كلمـة جديدة ترتبط هى الاخـرى بالفتـوة تلك هى « العيارون » أى المتشردون .

(٧) هذا بالرغم من أن عدم كتابة المصـــادر هذه فيما بين ١٧٥٠ و ١٧٧٠ تسبب لنا مشـــكلة جمـــة ، اذ يتوقف مؤلف احمد شلبى عند ١٧٣٧ ومؤلف القينالى عند ١٧٣٩ ، بينمـــا لايتعدى الدمرداش عام ٥٥ ـــ ١٧٥٦ ، ولذا فلا يمكن الاعتماد الا على مؤلف الجبرتى ، وهـــو الذى لايمكن الاعتمـــاد عليه حقيقة الا حوالى ١٧٧٠ وهو التاريخ الذى كان المؤلف يتحدث فيه عن وقائع عاصرها وكان شاهدا عليها .

## المراجع العربية والتركية

بالاضافة الى المصــادر التى وردت بصــدر الفصل الخامس يمكن الرجوع الى مايأتى :

١ — الاسحاقى : كتاب أخبار ، القــاهرة ، ١٢٩٦ هـ .

٢ — ابن أبى السرور : كتــاب الكــواكب ، مخطوط .

٣ — نزهة الناظرين ، مخطــوط بدار الكتب بالقاهرة .

٤ — المقريزى : كتــاب المــواعظ ، بولاق ، ١٢٧٠ هـ ، الخطط ، بولاق ، ١٢٧٠ هـ .

٥ — ايفليا جلبى ، سـياحة نامة ، استانبول ١٩٣٨ .

٦ — وثائق القلم التركى بدار المحفــوظات العمومية بالقاهرة .

٧ — وثائق المحكمة الشرعية بشبرا .

٨ — على مبارك باشا ، الخطط الجديدة .

11 — de NERVAL, voyages en Orient, Paris, 1927.

12 — Nicolas TURC, Chronique d'Egypte, le Caire, 1950.

13 — PARSONS, Travels in Asia and Africa, London 1808.

14 — THEVENOT, Voyages de Thevenot, Amesterdam.

15 — FOURMONT, Description historique et géographique, Paris, 1755.

16 — G. Wiet, Histoire de la Nation Egyptienne,

## المراجع الافرنجية


1 — Jouirn de ROCHEFORT, Le voyageur d'Europe, Paris, 1684.

2 — I.M. LAPIDUS, Muslem Cities in the Later Middle Ages, Harvard, 1937.

3 — R. MANTRAN — Istanbul, Paris, 1962

4 — GIBB & BOWEN, Islamic Society and the West, Oxford, 1951.

5 — G. BAER, Egyptian Guilds, Jerusalem, 1964.

6 — Archives de l'Expédition d'Egypte, chateau de Vincennes.

7 — NEIBUHR, Voyage en Arabie, Amesterdam, 1776.

Jomard, Chabrol, Doguereau

8 — Description de l'Egypte.

وصف مصر . ومن كتابه الذين رجعنا اليهم :

9 — LANE, Modern Egyptians, London, 1954.

10 — S.J.SHAW, Financial and Administrative Organization in Ottoman Egypt, Harvard, 1964.

## صدر من هذه السلسلة

- **ميونيخ كيف ؟** يوسف صبرى
- **صفحات مجهولة من التاريخ المصرى :** د . محمد أنيس
- **الحركات السرية فى الاسلام** د . محمود اسماعيل
- **مذكرات سعد زغلول** مصطفى النحاس جبر
- **أسرار الماضى** حافظ محمود
- **مشاكل أطفالنا النفسية** د . ملاك جرجس
- **بطولات مصرية ( من عمر مكرم الى بييرم التونسى )** نعمان عاشور

- **أحمد شوقي والأدب الحديث** د . طه وادى
- **ثأر ابن عنترة** أحمد عباس صالح
- **سيناء الحرب والمكان** محمود المراغى
- **ملامح الشخصية المصرية في العصر المسيحى** د . رأفت عبد الحميد
- **شعاع من طه حسين** ثروت أباظة
- **المصريون والحرب** جمال الغيطانى
- **وماذا بعد ٦ اكتوبر** عبد المنعم الصاوى
- **سيكلوجية الشخصية المصرية ومعوقات التنمية** د . ملاك جرجس
- **بابلو نيرودا ( شاعر الحب والنضال )** د . الطاهر أحمد مكى

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٤/٣٧٢٧

مطابع مؤسسة روز اليوسف

كتاب روز اليوسف

رئيس مجلس الإدارة

عبد الرحمن الشرقاوى

رئيس التحرير

فهمى حسين

المشرف الفنى

محمد سليم

العدد السابـ

يوليـــة

الاشـــتراكات والاعلانات يتفق عليهـا مع الادارة ٨٩ « أ » شـــار

العينى تليفـــون ٢.٨٨٨ ـــ ٢.٨٨٧ تلغرافيــا روز اليوسف ج . م




الثمن ٢٠ قرشا — طبع بمؤسسة روز اليوسف